يوتوبيا

توماس مور

ترجمة وتقديم : د. أنجيل بطرس سمعان




يوتوبيا

الإخراج الفني وتصميم الغلاف

ألبير جورجي

توماس مور

يوتوبيا

طبعة ثانية منقحة

ترجمة وتقديم

د. أنجيل بطرس سمعان



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٧

الطبعة الأولى ١٩٧٤
الطبعة الثانية ١٩٨٧

مقدمة الطبعة الثانية

بعد مضى حوالى عشر سنوات على ظهور الطبعة الأولى من « يوتوبيا » توماس مور ، وبعد أن نفدت منذ فترة ليست بقصيرة وتوالى سؤال بعض القراء عنها ، وافقت الهيئة المصرية العامة للكتاب مشكورة على إصدار طبعة ثانية لها .

وقد انتهزت هذه الفرصة لتصحيح بعض الأخطاء المطبعية واللغوية وغيرها مما ينقّى النص من بعض الشوائب ولكن لا يغير شيئا من النص الأصلى للترجمة أو المقدمة التى رأيت الاحتفاظ بها كما هما ، كنتيجة لجهد طموح لفترة من فترات حياتى العلمية .

فمما لا شك فيه أنه خلال السنوات التى مضت منذ اتمامى لهذا العمل قد ظهر العديد من الدراسات الممتازة عن مور وعصره ، مما أفدت منه الشىء الكثير ومما عمق معرفتى بمور وأعماله وخاصة « يوتوبيا » . ولكنى فضلت ألا أضيف شيئا من هذا إلى العمل الحالى ، على أن أضمن دراسة أخرى مستقلة عن توماس مور - أرجو أن أتمها فى وقت قريب - شيئا مما أضفته الى معرفتى بهذه الشخصية العالمية الفريدة .

أما الترجمة فبعد اجراء بعض التنقيحات الطفيفة التى قمت بها أرى انها تستحق أن تبقى على ما هى عليه .

ويطيب لى هنا أن انوه بكرم الاستقبال الذى لقيته الترجمة عند نشرها فى طبعتها الأولى من النقاد والدارسين والقراء .

وأنوه بوجه خاص بالتقييم العلمى الممتاز الذى عرض به الأستاذ الدكتور محمود المنزلاوى الكتاب فى مجلة «موريانا» : Moreana (مجلة الجمعية الدولية لأصدقاء توماس مور : Amici Thomae Mori) والذى افدت منه الشىء الكثير .

كما أشكر الأستاذ الدكتور الأب جرمان ماركادور : Germain Marc' hadour على دأبه على تزويدى بكل ما هو جديد ومثرٍ عن توماس مور .

وأخيرا أقدم وافر شكرى للهيئة المصرية العامة للكتاب لاهتمامها بنشر « يوتوبيا» ، هذا الأثر الأدبى الفلسفى الخالد ، فى طبعة ثانية بهذه الصورة الطيبة .

أنجيل بطرس سمعان
كلية الآداب ـ جامعة القاهرة

٣ اكتوبر ١٩٨٦ م

تمهيد

كتب توماس مور (١٤٧٧ – ١٥٣٥) « يوتوبيا » باللغة اللاتينية وظهرت الطبعة الأولى بعنوان :

"LIBELLUS VERE AUREUS NEC MINUS SALUATARIS QUAM FESTIUUS DE OPTIMO REIP. STATU, DEQUE NOVA INSULA UTOPIA"

أو « كتاب مفيد وممتع حقًّا عن الحكومة المثلى للدولة والجزيرة الجديدة المسماة يوتوبيا » وذلك فى لوفان (Louvain) فى ١٥١٦ .

وتلت الطبعة الأولى طبعات ثانية وثالثة فى عدد من العواصم الأوربية .

وظهرت الترجمة الإنجليزية الأولى بقلم رالف روبنصون (Ralphe Robynson) بعنوان : *"A FRUTEFUL AND PLEASAUNT WORKE, OF THE BESTE STATE OF A PUBLYQUE WEALE, AND OF THE NEWE YLE, CALLED UTOPIA"* . فى لندن فى ١٥٥١

وتلت الطبعة الأولى طبعة ثانية منقحة فى ١٥٥٦ ، ثم ثالثة فى ١٥٩٧ ، ورابعة فى ١٦٢٦ وظلت ترجمة رالف روبنصون الترجمة الإنجليزية الوحيدة حتى ١٦٨٤ حين ظهرت ترجمة جديدة لجيلبرت بورنيت (Gilbert Burnet) ثم أخرى فى ١٨٠٨ لأرثر كيلى : (Arthur Cayly) ، لم تكن فى الواقع سوى نسخة منقحة من ترجمة روبنصون .

وفى ١٩٢٣ ظهرت ترجمة جديدة أخرى لريتشاردز (G.C. Richards) ، نشرتها دار كلاريندون ــ أكسفورد للنشر .

وقد ظلت ترجمة روبنصون ، بالرغم من ذلك ، أكثر الترجمات الإنجليزية انتشاراً ، بالرغم مما وجده بها النقاد والمحققون من أخطاء ، وذلك لما تتميز به من حيوية وقرب للعصر الذى ظهرت فيه « يوتوبيا » .

وفى ١٩٦٥ ظهرت طبعة دار جامعة ييل للنشر (Yale University Press) وهى مراجعة كاملة لترجمة ريتشاردز قام بتحقيقها اثنان من كبار الدارسين لأعمال توماس مور وعصره بوجه عام هما : إدوارد سيرتز (Edward Surtz, S.J.) وج . هـ. هيكستر (J.H. Hexter) وتعد هذه الطبعة أهم طبعة ظهرت « ليوتوبيا » بالإنجليزية ويرى النقاد أنها ستصبح الترجمة الإنجليزية المعتمدة لها .

أما الترجمة العربية التى نقدمها هنا فهى الترجمة الكاملة للنص الإنجليزى « ليوتوبيا » ، بما فى ذلك الرسالتين الأوليين من الرسائل التى قدم بهما النص فى الطبعات الأولى وهما رسالة توماس مور إلى صديقه بطرس جايلز (Peter Giles) ، ورسالة بطرس جايلز إلى جيروم بوسليدين (Jerome Busleyden) .

وقد مرت الترجمة بعدة مراحل . فقد قمنا أولا بترجمة النص الإنجليزى لترجمة رالف روبنصون (طبعة Everyman لسنة ١٩٥٧). وهى الطبعة المنقحة التى تستخدم حروف الهجاء الإنجليزى الحديث . وذلك مع تصحيح الأخطاء التى أشار إليها المحققون الذين راجعوا ثلاث طبعات من أهم الطبعات التى ظهرت « ليوتوبيا » وهم :

J. H. Lupton, ed., *Utopia*, Clarendon Press, Oxford, 1895.

J. Rawson Lumby. ed., *Utopia*, Cambridge University Press, Cambridge, 1886.

J. Churton Collins, ed., *Utopia*, Oxford University Press, London, 1904, reprinted 1952.

كذلك قمنا بإضافة ما كان روبنصون يحذفه أحياناً من جمل وحذف ما كان يضيفه أحياناً أخرى لإيضاح المعنى ، إلى جانب حذف عدد من المرادفات التى كان روبنصون مغرماً باستعمالها والتى كانت ميزة من ميزات الأسلوب فى الوقت الذى قام فيه بالترجمة . وقد اعتمدنا فى ذلك ، بالإضافة إلى الرجوع إلى الطبعات المحققة ، على النص اللاتينى كلما اقتضى الأمر ذلك .

وعند انتهاء الترجمة قمنا بمضاهاتها بالترجمة الإنجليزية لطبعة ييل المشار إليها آنفاً وهى :

Utopia, ed., by Edward Surtz, S. J. and J.H. Hexter, Yale University Press, New Haven and London, 1965.

وذلك للتأكد من سلامة الترجمة العربية وإجراء ما استلزمه ذلك من بعض التعديلات ، ومرة أخرى كنا نرجع إلى الأصل اللاتينى عند وجود اختلاف أساسى بين الترجمتين .

وقد حرصنا على إضافة بعض الهوامش اللازمة لإيضاح بعض فقرات النص أو إلقاء شىء من الضوء على بعض أسماء الكتّاب أو الكتب أو الشخصيات الواردة به. ولكنا عملنا على أن تكون هذه الهوامش موجزة حتى لاتشغل القارئ عن النص ، أما الأمور المتعلقة بالخلفية التاريخية والمصادر التى يرى النقاد أن توماس مور قد استقى منها بعض آرائه وعلاقة بعض هذه الآراء بحياته الخاصة ومشاركته فى الحياة العامة لإنجلترا فى عهد الملك هنرى الثامن ، وبفلسفته العامة فى الحياة فقد تناولناها فى المقدمة .

وقد اعتمدنا فى المقدمة وفى إعداد الهوامش – إلى جانب الطبعات المحققة – على كثير من المصادر الأخرى التى تعالج الأدب اليوتوبى بوجه عام وأعمال توماس مور بوجه خاص والتى نورد طرفاً منها فى قائمة الكتب الملحقة بهذه الترجمة . أما فيما يختص بحياة توماس مور فقد اعتمدنا على سيرة حياته التى كتبها كل من وليم روبر :

William Roper, *The Life of Sir Thomas More*, prefixed to *Utopia* ed. by J. Rawson Lumby : Cambridge. 1886,

ور . و . تشيمبرز : R.W. Chambers, *Thomas More*, London, 1935 .

هذا إلى جانب الكثير من الأبحاث التى توالى نشرها مجلة « موريانا » (*Moreana*) التى تصدرها جماعة أصدقاء توماس مور (Amici Thomae Mori) باللغتين الفرنسية والإنجليزية أساساً وتتضمن أبحاثاً بالألمانية والإيطالية ، بل بعض الفقرات باللغة العربية أحياناً ، فى مدينة أنجيه (Angers) الفرنسية تحت رئاسة تحرير الأستاذ الأب جرمان ماركادور (Abbé Germain Marc'hadour) الأستاذ بجامعة أنجيه . وقد أصدرت هذه المجلة عدداً خاصًّا عن « يوتوبيا » (نوفمبر ١٩٧١) كان حافلا بالأبحاث القيمة بأقلام نخبة من المتخصصين فى أعمال توماس مور وعصر النهضة .

وتعد هذه الترجمة – بقدر ما نعلم – الترجمة العربية الأولى لهذا الأثر الخالد الذى ترجم إلى الكثير من لغات العالم بل ظهرت له عدة ترجمات فى العديد من هذه اللغات مثل الفرنسية والإيطالية والألمانية والروسية واليابانية . فقد بحثنا دون جدوى عن ترجمات سابقة وذلك بالرجوع إلى فهارس دار الكتب بالقاهرة وقوائم الأعمال المترجمة المنشورة فى مصر . إلى جانب الرجوع إلى عدد من الدارسين والنقاد المهتمين بحركة الترجمة أو بموضوع الكتاب من أساتذة الفلسفة والاجتماع والنظريات السياسية . فأيد الجميع عدم وجود ترجمة سابقة « ليوتوبيا » . وكل ما وجدناه مترجماً إلى العربية



منها بضعة مقتطفات مع ملخص للكتاب فى مقال الأستاذ الدكتور زكى نجيب محمود فى مجلة « تراث الإنسانية » (القاهرة — مايو ١٩٦٣) .

وقد شجعنا على ترجمة « يوتوبيا » ما لها من أهمية كعمل أدبى فلسفى اجتماعى سياسى ، تجعلها جديرة أن تجد مكانها فى المكتبة العربية إلى جانب « جمهورية » أفلاطون و« محاوراته » وكتاب أرسطو فى « السياسة » و « آراء أهل المدينة الفاضلة » للفارابى وغيرها من كتب التراث العالمى فى هذا الميدان .

وقد استخدمنا لفظ يوتوبيا عنواناً للكتاب لأنه اللفظ الذى عرف به فى كثير من اللغات ولأنه أقرب فى النطق إلى اللفظ الأصلى من لفظ الطوبى أو لفظ يوطوبيا المستخدم أحياناً . فقد صاغ توماس مور كلمة يوتوبيا لتكون اسم علم لجزيرته المثالية من كلمتين يونانيتين هما ou و topos ومعناهما لا — مكان ولكنه أسقط حرف o وكتب الكلمة باللاتينية : utopia وهى نفس اللفظ المستخدم فى الإنجليزية ، والذى استخدمه فى العربية بعض كبار المترجمين العرب من قبل .

ويسعدنى أن أسجل هنا تقديرى وشكرى للأستاذ الأب جرمان ماركادور لتشجيعه لى على إتمام الترجمة بدعوتى للانضمام إلى جماعة «أصدقاء توماس مور» بمجرد علمه بعزمى الإقدام على الترجمة (١٩٦٤) وبموالاة إرسال أعداد مجلة « موريانا » لى منذ ذلك الوقت .

كما أسجل شكرى للزميل الأستاذ الدكتور مجدى وهبه لقراءته للترجمة والمقدمة وإبداء بعض الملاحظات القيمة .

أنجيل بطرس سمعان
كلية الآداب — جامعة القاهرة

مقدمة

تعد « يوتوبيا » أكثر أعمال توماس مور شهرة وذيوعاً كما تكاد تكون الأولى من سلسلة الأعمال الأدبية الفكرية التى تقدم صورة متكاملة لعالم مثالى ، تختفى منه شرور عالم الواقع ، وتتحقق فيه أحلام الإنسانية بالسعادة والكفاية والعدل . وذلك فى قالب روائى جذاب . أما فكرة العالم المثالى أو الفردوس الأرضى أواليوتوبيا كما صارت تسمى منذ صاغ توماس مور هذه الكلمة ، ففكرة راودت خيال الإنسان من قديم الزمان وتناولها الفلاسفة والمفكرون وقدموا لها صوراً مختلفة اتخذت الطابع الدينى أحياناً والطابع الفلسفى أحياناً أخرى ، وصيغت فى قالب الحوار تارة وفى قالب القصة الخيالية تارة أخرى . ومن أمثلة ذلك « جمهورية » أفلاطون وكتاب « السياسة » لأرسطو ، « وآراء أهل المدينة الفاضلة » للفارابى ، و« مدينة الشمس » لكامبانيللا أما ما يميز « يوتوبيا » عن تلك الأعمال السابقة لها فهو الشكل الأدبى الروائى الذى قدم به توماس مور عالمه المثالى من ناحية وارتباطها بعالم الواقع ومشاكله ارتباطاً وثيقاً من ناحية أخرى .

أما من الناحية الأولى فلم يركن توماس مور إلى تقديم أفكار مجردة أو عرض نظرى لما يجب أن تكون عليه الدولة المثلى ، كما فعل أفلاطون فى جمهوريته مثلا ، بل قدم صورة أدبية لجزيرة مثالية ادعى أنها حقيقة واقعة صادفها الروائى أثناء رحلاته وتركت فى نفسه أثراً قوياً . فنقل صورة مفصلة لها ، وربط بينها وبين عالم الواقع عن طريق الموازنة وإبراز أوجه الشبه والخلاف . فأرسى مور

بذلك قواعد الرواية اليوتوبية التى نعرفها اليوم فى أعمال هـ . ج . ولز (H.G. Wells) وألدس هكسلى (Aldous Huxley)، وجورج أورويل (George Orwell) مثلا. والتى تعتمد — فى سبيل تقديم مضمون فكرى : اجتماعى أو سياسى — على التشويق والتجسيم والإيحاء بأن العالم الذى يصفه الكاتب عالم واقعى موجود بالفعل — وإن كان هذا العالم الجديد لا يمثل فى جميع الأحوال العالم المثالى المرغوب فيه . بل على العكس من ذلك قد تتمثل فيه مساوئ عالم الواقع بشكل مفرط وذلك على سبيل التحذير والتبصير بما يهدد الإنسانية من أخطار ، كما هو الحال فى « عالم جديد جميل » *(Brave New World)* لألدس هكسلى أو « ١٩٨٤ » (1984) لجورج أورويل مثلا

أما من الناحية الأخرى فيتضح ارتباط « يوتوبيا » بعالم الواقع بما تحمله من آثار العصر الذى كتبت فيه وما تعكسه من صفات صاحبها واهتماماته . فكما قدم لنا مور صورة براقة لدولته المثلى . قدم لنا صورة قاتمة لمساوئ العصر الذى عاش فيه ، وشخص عيوب نظم الحكم والحياة الاجتماعية فيه تشخيصاً بارعاً ، وأبرز بلمسات إنسانية رائعة ما فى ذلك العصر من صور الظلم والقهر والاستبداد .

ولعل أهم ما تتسم به « يوتوبيا » من سمات العمل الكلاسى الذى يخلده الزمن هو أنها ترتبط بأحلام الإنسان وبواقعه على حد سواء . فإن ما تعالجه من قضايا سياسية واجتماعية ليست وقفاً على عصر معين أو مكان بالذات ، ولكنها قضايا إنسانية عامة قد تتخذ أشكالا مختلفة فى العصور المتعاقبة وتحت الظروف المتغيرة ولكنها واحدة فى جوهرها. ومن هنا فقد ظلت « يوتوبيا » عملا حيًا. فما زالت بعد أن مضى على ظهورها أكثر من أربعة قرون ونصف قرن من الزمن ، تترجم المرة تلو الأخرى إلى معظم لغات العالم ، وتظهر فى طبعات مختلفة متعددة ، وتنشر عنها البحوث

والدراسات . فقد ظهرت لها مثلا ثلاث ترجمات إنجليزية جديدة فى منتصف الستينات[1] وترجمت إلى الروسية واليابانية عدة مرات . وظهرت لها ترجمات حديثة فى إيطاليا وإسبانيا وفنلندا وغيرها من البلاد .

ولما كانت « يوتوبيا » كما أسلفنا وثيقة الصلة بحياة مؤلفها وبالعصر الذى كتبت فيه فسنبدأ أولا بتعريف موجز بتوماس مور ثم نتناول بعض نواحى عصر النهضة الذى ظهرت فيه قبل أن ننتقل إلى تحليل بعض جوانب الكتاب بشىء من التفصيل .

توماس مور :

كان توماس مور شخصية مرموقة ورجلا من أبرز رجال عصره وأكثرهم علماً ونزاهة وإنسانية ، ومن خيرة أبناء إنجلترا وأعلم علمائها . كرس حياته لخدمة الحق والعدالة واستشهد فى سبيل مبادئه فخلد التاريخ اسمه وظلت شخصيته من الشخصيات القليلة التى تبعث فى النفوس الإعجاب والحب عبر السنوات والأجيال .

حياته :

مصادر حياة توماس مور الأساسية هى كتاباته وكتابات بعض المقربين إليه من أهله وأصدقائه ممن عاشروه فى بعض فترات حياته ثم سجلوا أقواله وأحاديثه معهم ، وما روى لهم عن بعض الأحداث التى لم يشهدوها ، مثل وليم روبر

---

(١) ظهر إلى جانب طبعة ييل المشار إليها آنفاً والتى تعد ترجمة جديدة الترجمتان التاليتان :

1. *Utopia*, A New Translation, by Peter K. Marshall, Washington Square Press, 1965.

2. *Utopia*, Translated by Paul Turner, Penguin Classics, 1965.

(William Roper)، زوج ابنته الحبيبة مارجريت ، وقد قضى فى بيته ست عشرة سنة فى فترة من أكثر فترات حياته نشاطاً وازدحاماً بالأحداث ، ثم وليم راستيل (William Rastell)، ابن اخته الذى يرجع إليه الفضل فى الحفاظ على أعماله غير المنشورة قبل وفاته ثم نشرها فيما بعد، وكذلك إرازموس (Erasmus)، أقرب الأصدقاء إلى نفسه . ثم هناك رسائل توماس مور باللاتينية والإنجليزية إلى أهله وأصدقائه وعلماء عصره . وأخيراً الوثائق الرسمية للدولة التى شغل مور الكثير من مناصبها .

وكان وليم روبر أول من كتب سيرة توماس مور . وقد ظلت هذه السيرة : « حياة سير توماس مور » (*The Life of Sir Thomas More*) بالرغم من أنه كتبها بعد حوالى ثلاثين عاماً من انقضاء الأحداث التى يعالجها وبالرغم من عدم دقتها فى بعض الأماكن، مرجعاً أساسياً، وذلك لنجاح روبر فى رسم صورة حية نابضة لتوماس مور . ثم جاء نيكولاس هاربسفيلد (Nicholas Harpsfield) ثم كريسيكر مور (Cresacre More) وجميعهم عاصروا مور أو استقوا معلوماتهم من أشخاص عاصروه . أما فى العصر الحديث فقد ظهرت عدة ترجمات لحياته لعل أهمها : « توماس مور » (*Thomas More*) بقلم ر . و . تشيمبرز (R . W . Chambers) ونشرت فى ذكرى مرور أربعمائة سنة على وفاته فى عام ١٩٣٥ ومازال الدارسون والباحثون يضيفون إلى معرفتنا بحياة توماس مور ما يكتشفونه من معلومات تلقى المزيد من الضوء على حياته وشخصيته ، كما تشهد بذلك الكتب العديدة التى مازالت تصدر عنه[١] .

ولد توماس مور فى ٧ فبراير ١٤٧٧ وتلقى تعليمه فى مدرسة القديس انطونيوس فى لندن . ثم التحق وصيفاً بمنزل الكاردينال جون مورتون (John Morton) . وكان

(١) انظر قائمة مختارة من هذه الكتب فى نهاية هذا الكتاب .

رجلا من خيرة وأبرز رجال عصره وكانت داره ملتقى لكبار الشخصيات العامة والعلمية . وقد أثنى عليه مور ثناء عطراً فى الكتاب الأول من « يوتوبيا ». ومكث مور تحت رعايته من ١٤٩٠ إلى ١٤٩٢ . وتنبأ له الكاردينال بمستقبل عظيم . فحين كان الصبى توماس مور يقف إلى جوار المائدة كان الكاردينال يخاطب ضيوفه قائلا : « إن هذا الصبى سيكون له – كما سيشهد بذلك من سيكون منا على قيد الحياة – شأن عظيم . ونصح كاردينال مورتون بإلحاقه بجامعة أكسفورد وهو فى الرابعة عشرة من عمره ، وقضى هناك عامين من ١٤٩٢ حتى ١٤٩٣. وذلك فى الفترة التى بدأت فيها حركة إحياء التراث القديم والتى وصفت بالعلم الجديد(New Learning) ، والتى كانت تدعو إلى إحياء دراسة اللغة والآداب اليونانية والجيد من الأعمال اللاتينية . وهناك أخذ مور فى تعلم اللغة اليونانية على يد أحد كبار أساتذتها ، توماس ليناكر (Thomas Linacre) (١٤٦٠ –١٥٢٤) الذى أصبح من خير أصدقائه وموجهيه. ولكن أباه ، جون مور ، إذ كان محامياً ناجحاً ثم قاضياً ، كان يرغب فى أن يتجه ابنه إلى دراسة القانون الذى كان يرى فيه الطريق إلى الحياة العامة . وهكذا عاد توماس مور إلى لندن والتحق فى ١٤٩٤ بنيو إن (New Inn) ثم انتقل فى ١٤٩٦ إلى لينكولنز إن (Lincoln's Inn) وهما اثنتان من أربع جمعيات قانونية من حقها وحدها منح إجازة ممارسة مهنة الحقوق فى بريطانيا. وفى ١٥٠٠ بدأ مور ممارسة هذه المهنة .

إلا أنه فى عام ١٤٩٩ كان قد التقى بالعلامة الهولندى إرازموس (١٤٦٦ – ١٥٣٦) ونشأت بينهما تلك الصداقة الوطيدة التى دامت طوال حياتهما وكان لها أكبر الأثر فى حياة مور . فقد أسهمت فى الإبقاء على اهتمام مور بدراسة الكلاسيات وبالكتابة بالرغم من مشاغل حياته العملية المتصلة بالمحاماة ثم القضاء، وما تبع

ذلك من مناصب ومسئوليات سياسية. فقد ظل مور على صلة دائمة لا بإرازموس فقط ، بل بكبار المهتمين بالدراسات اليونانية فى إنجلترا وهم ليناكر ، أستاذه فى أكسفورد ووليم جروسين (William Grocyn) (١٤٤٦؟–١٥١٩) الذى استمر مور فى دراسة اليونانية على يديه ، وجون كوليت (John Colet) (١٤٦٧؟–١٥١٩) مؤسس مدرسة القديس بولس (St. Paul's School) فى لندن. ومن الملاحظ أن مور وما زال فى أوائل العشرينات من عمره كان قد أخذ فى تكوين مثل هذه الصداقات مع رجال يكبرونه سنًّا ويفوقونه علماً . فإن دل ذلك على شيء ، فإنما يدل على ما توسمه فيه هؤلاء العلماء من قدرة وصفات نادرة .

أما الفترة التالية من حياته فكانت فترة تنازعته فيها رغبتان : رغبة فى الاتجاه إلى حياة الرهبنة والخدمة الدينية ومواصلة البحث والدراسة ، ورغبة فى ممارسة القانون والمشاركة فى الحياة العامة . فقد عين فى ١٥٠١ محاضراً فى القانون فى جمعية فيرنيفالز إن (Furnival's Inn) وألقى سلسلة من المحاضرات فى كنيسة سانت لورنس (St. Laurence Jewry) عن « مدينة الله » (*City of God*) للقديس أوغسطينوس ، قيل إن أكثر رجال لندن علماً كانوا يتوافدون لسماعها . وكان فى ذلك الوقت ينزل ضيفاً على رهبان دير تشارترهاوس (Charterhouse) ، حيث قضى فترة أربع سنوات تقريباً يشاركهم حياة الزهد والتقشف ويواصل دراسته للغة اليونانية .

وهنا أخذ فى كتابة أول أعماله باللاتينية وهو :

EPIGRAMMATA THOMAE MORI PLERAQUE
E GRAECIS VERSA

« مقطوعات توماس مور اللاذعة والكثير من الأبيات المترجمة من لغة

الإغريق » ، والتي يشار إليها عادة « بالأبيغرامات » أو (Epigrams) بالإنجليزية ونشرت فى ١٥١٨ وإن كانت بعض أجزائها قد نشرت قبل ذلك [١] .

وظل مور فترة من الزمن يفكر فى الانضمام إلى سلك الرهبنة إلا أنه عاد فعدل عن تلك الفكرة. ولعل ذلك يرجع من ناحية إلى عدم رضى والده منذ البداية عن انغماسه فى دراسة الكلاسيات فلما ضاق ذرعاً بما اعتبره مضيعة للوقت لرجل أراد له أن يصبح القانون مهنته ، عمل على أن يثنيه عن عزمه بخفض مساعداته المالية له ، وإلى تأثير بعض أصدقائه وخاصة ممن شجعوه على مزاولة حياة أكثر نشاطاً من حياة الرهبنة مثل جون كوليت من ناحية أخرى . ويضيف بعض الدارسين لحياة مور عاملا ثالثاً يرون فيه العامل الفاصل وهو اهتمام مور فى تلك الفترة بالكاتب الإيطالى بيكو ديللا ميراندولا (Pico della Mirandola)(١٤٦٣–١٤٩٤) الذى لم يكن من رجال الدين ، والذى يمثل أهم ما يميز عصر النهضة وحركة الإصلاح من تعقل ووقار . ولم تكن أعماله تكاد تفارق توماس مور فى تلك الفترة ، مما حدا به إلى ترجمة سيرته وبعض رسائله إلى الإنجليزية وقد أتمها حوالى عام ١٥٠٥ ونشرت بعنوان : *THE LIFE OF JOHN PICUS ERLE OF MYRANDULA* « حياة جون بيكو الميراندولى » (١٥١٠ ؟) .

وهكذا لم تشهد الفترة الواقعة بين عامى ١٥٠٤ و١٥٠٥ اتجاه مور إلى الحياة العامة بدخوله البرلمان فى ١٥٠٤ فحسب ، بل زواجه أيضاً فى ١٥٠٥ ويقال إن كوليت هو الذى أشار عليه بذلك أيضاً .

---

(١) R.W. Chambers, *Thomas More*, London, 1935, Ref. to Peregrine Books Edition, 1963, p. 16.

دخل توماس مور البرلمان وهو فى السادسة والعشرين من عمره ولعب دوراً هاماً فى معارضة المطالب المالية للملك هنرى السابع الذى كان قد تقدم بطلب مبلغ كبير من المال بمناسبة زواج ابنته مارجريت من ملك اسكتلندا إلا أن حركة المعارضة التى تزعمها مور نجحت فى الوقوف فى وجه الموافقة على منحه ذلك المال . وعلم الملك أن الفضل يرجع فى ذلك إلى ذلك الشاب المتحمس ، فتربص له ولوالده إلى أن أوقع بالأخير وزج به فى السجن حتى سدد الغرامة التى فرضها عليه وقدرها مائة جنيه ، وأحس الابن توماس أن الملك سيتعقبه فابتعد عن الحياة العامة ، وانكب على الدراسة والترجمة وخاصة دراسة الكلاسيات واللاهوت . ويقال إنه قام برحلة إلى أوربا ونزل بباريس ولوفان فى عام ١٥٠٨ ، وهناك حاول التعرف على نظم التعليم فى تلك البلاد .

وما لبث أن مات الملك هنرى السابع فى ٢٢ أبريل ١٥٠٩ . وباعتلاء ابنه هنرى الثامن العرش بدأت فترة جديدة فى حياة مور . فقد حيا الملك الشاب بقصيدة عصماء بعنوان « نشيد التهنئة » (Carmen Gratulatorium) ، أشار فيها إلى « نهاية الاستعباد » و « بداية الحرية » ، فعبر بذلك عن الأمل الذى كان يراود الجميع فى حكم تختفى منه مساوئ الحكم السابق الذى سادته الحروب والمظالم والفساد . وما لبث نجم مور أن لمع ، فاعتلى المنصب تلو الآخر إلى أن شغل المركز الأول فى بلاط الملك هنرى الثامن كما سنرى بالتفصيل .

فإذا عدنا إلى حياة توماس مور الخاصة وجدنا أنه تزوج من الابنة الكبرى من بنات رجل فاضل هو جون كولت (John Colt) وكان قد تعرف به ودعاه إلى داره . ومما يقال إن مور أعجب بالابنة الثانية ولكنه قرر الزواج من أختها الكبرى لأنه أحس — كما يخبرنا وليم روبر — أن زواجه من الصغرى «سيكون فيه حزن

كبير ، وكذلك شيء من العار للكبرى ؛ إذ ترى أختها التي تصغرها وقد فضلت عليها في الزواج »[١]. أما زوجه جين فكانت شابة في السابعة عشر من عمرها قليلة الخبرة بالحياة . وكان زوجها يكبرها بحوالى تسع أو عشرة سنوات ، رجلا مثقفاً ومحامياً واعياً . لذا عمل على تثقيفها وصقلها بالشكل الذى يتفق وميوله واهتماماته. وقد ترك لنا صديقه إرازموس الذى كان قد زاره ونزل عليه ضيفاً وصفاً دقيقاً للطريقة التي اتبعها مور لتثقيف زوجته وصقل عقلها وذلك في رسالة إلى أولريك فون هوتين ، قال :

« تزوج فتاة صغيرة من أسرة طيبة ، كانت قد نشأت مع إخوتها في منزل والديها في الريف وقد اختارها ومازالت في طور التكوين ، حتى يتمكن بسهولة أكبر من تشكيلها كما يريد . ولذا عمد إلى تلقينها الأدب وتدريبها على جميع أنواع الموسيقى . وقد نجحت في ذلك بحيث أصبحت زوجة رقيقة جذابة عند وفاتها ، وما زالت شابة ، تاركة له عدداً من الأطفال »[٢] .

وفي مكان آخر يصف إرازموس دون ذكر أسماء قصة صديق له يتزوج فتاة رقيقة عديمة الخبرة بالحياة ، ويحاول تثقيفها بأن يطلب إليها أن تعيد على مسامعه ملخصاً لما تسمعه من عظات ، فتضيق الزوجة ذرعاً بذلك ، وتنخرط في البكاء متمنية الموت ، فيقترح الزوج أن يذهبا في زيارة لوالدها وهناك يطلب إلى الأب

---

(١) William Roper, *The Life of Sir Thomas More*, reprinted from Hearnes' Edition, 1716, prefixed to More's *Utopia*, ed. by J. Rawson Lumby, Cambridge, 1886., p. vi.

(٢) Erasmus' Letter to Ulrich Von Hutten, 23 July 1519, R.W. Chambers, *Thomas More*, Peregrine Books, 1963, p. 89 .

أن يستخدم نفوذه مع ابنته لتنصاع لإرادة زوجها ، ولكن الأب يعتذر طالباً إلى الزوج أن يستخدم حقه ويعطيها علقة ساخنة تعيد إليها صوابها . ولكن الزوج يرفض ذلك . وهنا يقوم الأب بتمثيل دور الوالد الغاضب الذى يرفض سلوك ابنته ، فتفضل الزوجة الصغيرة العودة إلى زوجها وطُرقه على مواجهة غضب الأب وتقريعه . وهكذا يتصالح الزوجان ويتبادلان قبلة يعودان بعدها إلى دارهما وهما على وفاق تام[١] .

ويبدو من رسالة إرازموس الأولى أن الزوجة الشابة قد اعتادت حياتها الجديدة وتعلمت العزف على الآلات الموسيقية وأصبحت الزوجة التى تمناها مور والتى وصفها فيما بعد فى موجز حياته الذى تركه ليكتب على شاهد قبره بأنها « زوجته الصغيرة الحبيبة » .

وقد لخص مور بعض آرائه فى الزواج فى قصيدة باللاتينية بعنوان «كيف تختار زوجتك » وفيها ينصح صديقه بالزواج ويشير عليه بأن يختار زوجته لا لجمالها أو مالها بل لفضيلتها وطهرها . ويؤكد له أنه سيجد فى ذلك سعادة كبرى . أما الزوجة التى يوصى بها فهى الزوجة التى تحب القراءة والموسيقى ، الزوجة الهادئة غير الصاخبة وغير الصامتة تماماً .

وقد تركت له زوجته عند وفاتها فى عام ١٥١١ ثلاث بنات : مارجريت وإليزابيث وسيسيلى وابناً واحداً : جون ، بين الثانية والسادسة من العمر . فما لبث مور وقبل أن ينقضى العام الأول على وفاة زوجته الأولى أن تزوج للمرة الثانية من سيدة أرملة تكبره سناً ، هى السيدة أليس ميديلتون (Alice Middleton) ، التى أصبحت أماً لأولاده ، ومدبرة لمنزله. ومن الواضح أن مور لم يتزوج للمرة الثانية لمجرد العثور

---

(١) نفس المرجع ص ٨٩ — ٩٠ .

على مربية لأطفاله ومدبرة لمنزله – بالرغم من أنها قامت بذلك بالفعل خير قيام – فهناك الكثير من الدلائل على قيام علاقة حب صادق بين الزوجين ، بالرغم مما تردد كثيراً عن حدة طبع هذه الزوجة وصرامتها وشكواها الدائمة من أسلوب زوجها فى الحياة ، وبالرغم من وصف الزوج لزوجته بأنها لا هى « بالجميلة ولا بالصغيرة » فقد وفرت له الحياة العائلية التى كان ينعم بها وعملت بشخصيتها العملية على خلق نوع من التوازن مع مثالية مور وعدم واقعيته .

أما أحب الأبناء إلى قلب مور فكانت ابنته الكبرى مارجريت التى ورثت الكثير من صفات أبيها ومن بينها حب العلم والدراسة ، فأجادت اللاتينية واليونانية وكتبت الشعر باللاتينية وقرأت كتب العلوم والفلسفة . ويعد مور من أوائل من نادوا بأهمية تعليم الفتاة إذ كان يرى أنه لا فرق بين الرجل والمرأة فى هذا الصدد فكلاهما قابل للتعلم ، والتعليم مفيد لكليهما ، كالأرض المحروثة يبذر بها الحب فتثمر . ومن هنا فقد عارض بشدة الرأى القائل بأن العلم يفسد أخلاق الفتيات ولا يثمر لضعف عقولهن . وقد كانت بناته اللائى أشاد صديقه إرازموس بثقافتهن خير دليل على صدق آرائه .

كان منزل مور أشبه ما يكون بالأكاديمية العلمية . يقول إرازموس إنه كان مدرسة للمعرفة ولممارسة المبادئ المسيحية . فإلى جانب كونه مركزاً لتجمع أصدقائه من العلماء الإنسانيين والدارسين للآداب الكلاسية ، ممن كانوا كثيراً ما ينزلون ضيوفاً عليه ، فقد كان مدرسة تعلم فيها أبناء مور وابنة زوجته الثانية وصديقة بناته – مارجريت جيجز – تعلموا جميعاً اللاتينية واليونانية ، وقاموا بكتابة الشعر والترجمة ، ودرست مارجريت جيجز الطب فكانت أول فتاة تفعل ذلك .

وكما كان مور يشجع سماع الموسيقى والعزف على مختلف الآلات الموسيقية ،

فلم يكن يسمح بلعب الورق أو النرد أوما شابهها فى داره . كذلك لم يكن يسمح بتكوين العلاقات الغرامية وإن كان يشجع الزواج بين الفتيان والفتيات فى محيط الأسرة سواء كانوا من أبنائها أو المنتمين إليها . ومن أمثلة ذلك زواج مارجريت جيجز – التى كانت تعتبر ابنة متبناة للأسرة – من جون كليمنت الذى كان تلميذ مور وخادمه أو وصيفه وأصبح فيما بعد طبيب البلاط ، وزواج جون هاريس ، سكرتير مور من وصيفة ابنته : دوروثى كوللى ، وزواج ابن توماس مور ، جون من الفتاة التى كان والده وصياً عليها.

وقد قدم لنا وليم روبر فى سيرة حياة توماس مور صورة رائعة لمور الزوج والأب ورب الأسرة والصديق ، ولداره التى تموج بالحياة وحب الآداب والعلوم والفنون . وقدم لنا لمسات إنسانية مؤثرة لحب مور لأفراد أسرته وأصدقائه وخدمه ، وعمله على إسعاد الجميع بقدر ما يتفق ذلك مع مبادئه ومثله. فقد أثبت فى النهاية أنه قادر على التضحية براحة أسرته واستقرارها فى سبيل عدم إنكاره لعقيدته وما يرى أنه الحق .

وقد سجل لنا إرازموس وصفاً دقيقاً لبعض سمات مظهره وشخصيته فوصفه بأنه « متوسط القامة ذو وجه صبوح صاف وشعر بنى اللون ، ولحية غير كثة ، وعينان زرقاوان ، وجهه ودود كشخصيته ، بشوش ، ميال إلى المرح دون إسفاف أو مرارة يميل إلى رفع كتفه الأيمن عن كتفه الأيسر قليلا ، وخاصة أثناء السير . وتميل يداه إلى الخشونة ومظهره الشخصى إلى الإهمال العام. ويمتد هذا الإهمال إلى الطعام الذى يتناوله . فمور يأكل اللحم ، والسمك المملح والعيش الخشن مفضلا هذه المأكولات على الأصناف الرقيقة . كما يحب المأكولات المصنوعة من الألبان ، والفاكهة والبيض . ويشرب الماء أو الجعة الخفيفة ، ولايلمس الخمر إلا بشفتيه على

سبيل المجاملة »[1] ويبرز إرازموس بساطة مور وعلمه وتقشفه وحبه للمرح والدعابة وقدرته الفائقة على الصداقة . وقد تناولت الأجيال قصة قميص الشعر الذى كان مور يلبسه ملاصقاً لجلده تحت ملابسه لتعذيب جسده ، وقطعة الخشب التى كان يستخدمها بدلا من الوسادة ، والسياط التى كان يلهب بها ظهره ، كما خلدت حبه للفقراء والمظلومين وكل من كان صاحب قضية عادلة حتى شاع وصفه « بخير صديق للفقراء » .

وهكذا نرى كيف جمع فى شخصه بين بساطة العلماء وتواضعهم وزهد النساك وتقشفهم وحنان الزوج والأب ووفاء الصديق وكفاءة رجل القانون ونزاهته .

فإذا تركنا حياة توماس مور الخاصة وعدنا إلى حياته العاملة فى ميدان الأدب أولا ثم فى ميدان الحياة العامة وجدنا أنه قد عاش حياة حافلة بالعمل الجاد وأنه حقق نجاحاً كبيراً فى أكثر من ميدان .

أما فى ميدان الأدب فقد أخذ فى كتابة (*Epigrams*) أو « المقطوعات اللاذعة » حوالى عام ١٥٠٥ ، كما شغل بترجمة بعض أعمال الكاتب الإغريقى الساخر لوكيانوس بالاشتراك مع صديقه إرازموس إلى اللاتينية فأخرجا :

LUCIANI COMPLURIA OPUSCULA AB ERASMO ET THOMA MORO IN LATINORUM LINGUAM TRADUCTA

« الكثير من أعمال لوكيانوس الصغرى مترجمة إلى لغة اللاتين على يد إرازموس وتوماس مور» (١٥٠٦). ثم أخذ فى كتابة « تاريخ ريتشارد الثالث» (*Richard III*) باللاتينية وكاد يتم ترجمة إنجليزية له بقلمه حوالى ١٥١٣ — ١٥١٤ . وكان يرمى

---

(١) انظر : R.W. Chambers, *Thomas More*, op. cit., pp. 167-8.

إلى جعله تاريخاً كاملا لعصره حتى موت هنرى السابع ، ولكنه لم يتم ذلك نظراً لانشغاله بأعمال أخرى من ناحية ، وربما لما رأى فى ذلك من خطورة من ناحية أخرى . وحين توقف عن كتابة هذا العمل أخذ فى كتابة عمل آخر لعله أصبح أشهر كتبه وهو « يوتوبيا » وذلك فى الفترة الواقعة بين ١٥١٥ و١٥١٦ . ومما هو جدير بالذكر أن هذه الأعمال الثلاث : « المقطوعات اللاذعة » و « تاريخ ريتشارد الثالث » و « يوتوبيا » تدور حول محور واحد ، هو نقد الإرهاب والاستبداد والظلم وجشع الحكام ، وجميعها أشياء كان يعد الحديث عنها عملا تحف به الأخطار . ولعل ذلك هو السبب فى أن مور ترك كتابة التاريخ واتجه إلى كتابة عمل أدبى يقدم وصفاً لدولة خيالية يختلط فيه الجد بالدعابة ولا يمكن أن يعد دليلا قاطعاً على محاولته النيل من الحكام والملوك ؛ وإن كان الهدف منه — مهما كان مقنعاً — لا يمكن أن تخطئه العين . ولعل ذلك هو السبب أيضاً فى أنه طبع « يوتوبيا » فى لوفان وباريس وبال قبل أن يطبعها فى إنجلترا كما يشير إلى ذلك تشيمبرز .

ومن أعماله الأخرى : « الأشياء الأربعة الأخيرة » (*Four Last Things*)(١٥٢٢ تقريباً) و « محاورة الراحة ضد المحنة » (*Dialogue of Comfort against Tribulation*) (١٥٣٤) و « تأملات » (*Meditations*) (١٥٣٤) و « صلوات » (*Prayers*) لمور ومارجريت (١٥٣٥) .

كتب مور الكثير من أعماله باللغة اللاتينية ، وكانت لغة الكتابة بين المثقفين فى أوربا ، مما ساعد على تخطى شهرته حدود بلاده . ولكنه استخدم اللغة الإنجليزية أيضاً — وكانت قد أخذت فى ذلك الوقت فى الحلول شيئاً فشيئاً محل اللغة اللاتينية — وخاصة فى أعماله المتأخرة وكانت له محاولات ناجحة فى الشعر والتاريخ والجدل الدينى والسياسة .

أما في ميدان الحياة العامة ، فعين مور نائباً لرئيس شرطة لندن في عام ١٥١٠ . وكان هذا المنصب في ذلك الوقت منصباً قضائيًّا هامًّا . وفي ذات الوقت اتسع أيضاً نطاق أعماله كمحام ناجح مرموق ، وزاد دخله وذاع صيته .

وفي ٨ مايو ١٥١٥ اختير للذهاب في بعثة دبلوماسية إلى الأراضي المنخفضة، بصحبة كثبرت تنستول (Cuthbert Tunstall) (١٤٧٤ — ١٥٥٩) وهو أحد رجال بلده المرموقين أيضاً ، لتسوية بعض المسائل الهامة المعلقة بين البلدين . وقد أهله لهذه المهمة ما عرف عنه من قدرة على الحديث والتفاوض . وفي ذات اليوم كتب إرازموس إلى صديقه بطرس جايلز ، كاتب مدينة أنتورب ، يوصيه خيراً بهذين المبعوثين قائلا «إن رجلين هما أكثر رجال إنجلترا كلها علماً في طريقهما إليك » ويطلب إليه أن يقدم إليهما ما يستطيعه من خدمات . وقد خلد توماس مور هذه البعثة حين اتخذ منها إطاراً روائيًّا « ليوتوبيا » التي بدأ كتابتها أثناء إقامته في أنتورب مبعوثاً ملكيًّا هناك ، ثم أتمها بعد عودته إلى لندن في ١٥١٦ بعد أن ظل بعيداً عنها ستة أشهر بدلا من شهرين كما كان يتوقع . ومما لا شك فيه أن هذه البعثة قد زودت مور بكثير من المعرفة المباشرة بالسياسة الدولية والعلاقة بين أمراء أوربا وملوكها في ذلك العصر الذي سادته المطامع الشخصية وتضاربت فيه المصالح السياسية والدينية والتي استخدمها مادة للجزء الأول من كتابه[1] .

ومن المعروف أنه بالرغم من قيام مور بمهمة ملكية إلا أنه قد رفض معاشاً عرضه عليه الملك وذلك خوفاً من أن تتعارض مصالح المدينة التي يعمل في خدمتها ومصالح الملك ، الذي لم يكن قد قرر بعد الانضمام إلى خدمته .

---

(١) انظر المرجع السابق ص ١٠٩ .

أما العام التالى ، ١٥١٧ ، فقد شهد الاضطرابات التى وصفت « بيوم مايو الشرير » والتى ثار فيها بعض أهالى لندن ضد الأجانب وهددوا بإثارة فتنة عن طريق الشغب والعنف ولكن مور أفلح فى القضاء على الاضطرابات قبل أن يستفحل أمرها ، فلمع اسمه وأخذ الملك يحاول إغراءه بالانضمام إلى خدمته .

وحدث فى تلك الأثناء أن استولت السلطات الإنجليزية على سفينة تجارية تابعة للبابا فأقام ممثله فى لندن دعوى على تلك السلطات واختير مور للدفاع عن حق البابا . وحضر المرافعة الملك هنرى الثامن الذى كان يهوى الجدل وتبادل الحجج ، فأعجب بكفاءة مور وقدرته وأصر على ضمه إلى خدمته . وهكذا انضم مور أخيراً فى عام ١٥١٨ إلى بلاط الملك بعد تردد طويل يشهد به أصدقاؤه ويعكسه الكتاب الأول من « يوتوبيا » الذى يحوى حواراً رائعاً بين بطل القصة روفائيل هيثلوداى ومحدثيه : توماس مور وبطرس جايلز ، عن عمل الفلاسفة مستشارين للملوك ومدى ما يمكن أن يحققه ذلك من فائدة للدولة أو المجتمع . ومن الواضح أن مور كان يناقش فى نطاق الإطار الخيالى الذى اختاره لكتابه بعض الأمور التى كانت تهمه شخصياً والتى يرى أنها تتصل بما يعتبره واجبه نحو الصالح العام .

فى ٢٧ يوليو من هذا العام استقال مور من منصبه كنائب لرئيس شرطة لندن وأصبح عضواً فى مجلس الملك . ومع ذلك فقد ظلت العلاقات الطيبة تربط بينه وبين هيئات المدينة وشعر مواطنو لندن أن سيكون لهم فى مور سند قوى فى البلاط .

وفى ٢ مايو ١٥٢١ منحه الملك لقب فارس ، وعينه نائباً لرئيس الخزانة أو

وزيرا للمالية ، وقويت روابط الصداقة بين الملك وتوماس مور فكان يدعوه إلى قصره أو يزوره في داره ليتبادلا الحديث والمشورة .

وعاون مور الملك فى كتابة « برهان الأسرار المقدسة السبعة » (*Assertio VII Sacramentorum*) وهو الكتاب الذى كتبه هنرى الثامن ردًّا على كتاب مارتن لوثر « سجن الكنيسة البابلونى » (***Babylonish Captivity of the Church***) وأتمه فى مايو ١٥٢١ . وفى نفس الشهر حرقت كتب لوثر فى فناء كنيسة القديس بولس فى لندن . وفى أكتوبر منح البابا هنرى الثامن لقب « حامى الإيمان » (Defensor Fidei)، ففى الوقت الذى التحق توماس مور بخدمة الملك كان مارتن لوثر يعلق نقاطه الخمس والتسعين على باب كنيسة ويتنبرج ، وما لبث أن أصبح أكبر قوة فى أوربا . ولكن هذا الكتاب أصبح فيما بعد سبباً من أسباب اتهام مور بالخيانة . فعندما دب الخلاف بين الملك والبابا بشأن مسألة طلاقه من زوجته الأولى كاثرين أوف أراجون (Catherine of Aragon) ندم الملك على دفاعه عن البابوية فى ذلك الكتاب ، واتهم مور بتحريضه على كتابته . هذا علماً بأن مور ، كما يشير إلى ذلك وليم روبر ، كان قد حذر الملك من المبالغة فى الإشادة بحقوق البابا خوفاً من وقوع بعض الخلافات بينهما فى المستقبل فقد كان للبابا فى ذلك الوقت كثير من الاهتمامات والمصالح الساسية التى كثيراً ما كانت تتعارض مع مصالح غيره من أمراء وملوك أوربا .

أما من ناحية أخرى فقد كانت آراء لوثر ومعارضته للكنيسة الكاثوليكية سبباً من أسباب القضاء على السلام الذى كان يحلم به مور وإرازموس وغيرهما من دعاة الحركة الإنسانية ، ومقدمة لإشاعة الفرقة بين صفوف المسيحيين مما أدى إلى تلك الحروب الدامية التى شوهت وجه أوربا فترة من الزمن كما أدت فى

إنجلترا إلى حركة الاضطهاد الذى لاقاه بعض أتباع لوثر ممن اعتبروا منحرفين أو مرتدين . وكان مورمن بين من اتهموا بتعذيبهم بل بإرسال بعضهم إلى الموت وإن كان ذلك لم يثبت تاريخياً . فقد حاول أصدقاء توماس مور والمعجبون به من الدارسين أن يثبتوا أنه بالرغم من كرهه الشديد لأولئك المنحرفين من وجهة نظره إلا أنه لم تكن لديه السلطة القانونية فى فترة الاضطهاد هذه للحكم على أى منهم بالموت .

ومهما يكن من أمر ، فنى هذه الآونة التى كان يتمتع فيها بأكبر قدر من النجاح فى حياته ومستقبله ، كتب مور أكثر أعماله كآبة وهو « الأشياء الأربعة الأخيرة » (*Four Last Things*) (١٥٢٢). وفيه يرى الحياة سجناً والإنسان سجيناً حكم عليه بالموت ولا سبيل إلى الفرار من السجن إلا بتنفيذ هذا الحكم ، وكأنه يتنبأ بما سيحل به فى وقت غير بعيد .

فنى ١٥٢٣ عين رئيساً لمجلس العموم . وألقى أول خطبة حفظتها سجلات البرلمان الإنجليزى يطالب فيها بحرية الكلمة فى البرلمان[١] ، وفى ١٥٢٥ أصبح قاضى دوقية لانكستر .

وفى ١٥٢٧ لاحت أول بوادر الأزمة التى كانت ستقضى فى النهاية على العلاقة الودية التى تربط بين الملك وتوماس مور . فقد أخذ الملك يستشيره بشأن مسألة طلاقه من الملكة كاثرين مدعياً أن الشكوك قد أخذت تساوره فى شرعية زواجه منها . ذلك أن أخاه كان قد عقد زواجه عليها ولكنه توفى قبل أن يزف إليها ، فتزوجها هنرى . وحقيقة الأمر أن كاثرين لم تنجب له

---

(١) انظر : R.W. Chambers, *Thomas More*, op. cit., p., 193.



الابن الذى كان يحلم بأن يورثه عرشه . ذلك إلى جانب علاقة جديدة قد نشأت بينه وبين آن بولين (Anne Boleyn) التى يبدو أن الملك قد وقع فى حبها وأخذ يفكر فى الزواج منها بعد أن يتم طلاقه من زوجته الأولى . ولما كان البابا قد أصدر من قبل أمراً خاصاً يسمح لهنرى بالزواج من زوجة أخيه المتوفى ، فلم يكن من المتوقع أن يصدر أمراً آخر مخالفاً يسمح له بالطلاق الذى تحرمه الكنيسة الكاثوليكية على أى حال . وكان استطلاع رأى مور جزءاً من حملة واسعة قام بها الملك لا ستطلاع آراء العلماء فى الجامعات الإنجليزية والأوربية بشأن شرعية زواجه من كاثرين . وكان رأى توماس مور يمثل أهمية خاصة لما كان له من مكانة علمية ولما عرف عنه من تقوى ونزاهة . ومن هنا عمل الملك على استمالته إلى جانبه . ومن المعروف أن مور طلب إلى الملك أن يمهله بعض الوقت ليدرس الموضوع . ولما عاود الملك السؤال أجابه مور بأنه لا يستطيع أن يتفق معه فى الرأى . إلا أنه يبدو أن الملك لم يفقد الأمل تماماً فى الفوز بموافقته فى النهاية كما نرى من سياق الأحداث .

أصبحت « مسألة الملك الكبرى » أو موضوع طلاقه من كاترين الموضوع الشاغل للملك وللرأى العام فى إنجلترا منذ عام ١٥٢٨ وطوال العامين التاليين . وفشل وزير الملك الأول كاردينال ولزى (Cardinal Wolsey) فى إقناع البابا بالرضوخ لرغبة الملك . وعندما اتضح للملك أن سياسة وزيره ، التى كانت له من الأطماع الشخصية ما يتعارض مع مصلحة الملك والبلاد ، لا تتفق ورغباته ، لم يتردد فى عزله والتنكيل به .

ولما كان توماس مور أكثر رجال الملك كفاءة وعلماً ، فقد عرض عليه المنصب الذى خلا بعزل كاردينال ولزى . وتم تعيينه وتسلم الختم الأعظم فى

٢٥ أكتوبر ١٥٢٩ . وشهد الملك حفل التنصيب وأشاد على لسان لورد نورفوك (Lord Norfolk) ، أحد كبار رجاله ، بكفاءة لورد توماس مور وخدماته الجليلة لبلاده . ورد مور بخطاب هاجم فيه سياسة سلفه وولزى الذى زج بالبلاد فى كثير من الحروب والمعارك التى أرهقت ميزانية البلاد ولم تعد عليها بفائدة .

وهنا يتساءل كثير من الكتاب والمؤرخين : لماذا قبل مور ذلك المنصب الكبير فى الوقت الذى كانت مسألة طلاق الملك هى شغله الشاغل ، وإلى أى حد كان يعتقد أنه يمكنه الاضطلاع بواجبات منصبه بوصفه الوزير الأول وكبير القضاة (Lord Chancellor) وهو لا يشارك الملك الرأى فى أقرب الأمور إلى نفسه ؟ وهل غاب عنه ما يحف بذلك من أخطار ، لو أصر على معارضته رغبة الملك أو لم يفصح بالموافقة عليها ؟ ويرد البعض بالقول بأنه لم يكن بوسع مور أن يرفض هذا المنصب بعد أن أصبح أحد رجال الملك وقبل عدداً من المناصب قبل ذلك . ويذهب البعض الآخر إلى أن مور الذى كان يؤمن بالقيم والمثل التى يدين بها دعاة الحركة الإنسانية جميعاً والتى عمل طوال حياته على تحقيقها ، لا بد أن يكون قد تخيل أنه يمكنه مواصلة العمل فى سبيل تلك القيم والمثل . ولعله كان أيضاً يأمل فى أن يتراجع الملك عن خططه الشريرة التى لم تكن لتهدد فقط الملكة كاثرين التى كان مور يكن لها حبًّا وتقديراً كبيرين والتى ظل وفيًّا لها حتى النهاية ، بل قد تهدد أيضاً أمن البلاد وسلامتها . فقد كانت الملكة كاثرين عمة الإمبراطور تشارلز إمبراطور إسبانيا وكان يعد أقوى ملوك أوربا وذلك فى الوقت الذى كانت العلاقات بين إنجلترا وفرنسا وبينها وبين البابا تنذر بالشر .



صورة تمثل توماس مور مع الملك هنرى الثامن فى حديقة منزله

ولعل مما يلقى شيئاً من الضوء على موقف مور هنا أن الملك كان قد طلب إليه عند بداية التحاقه بخدمته أن يخدمه فى حدود ما يرضى الله وظل مور يذكر له هذا القول ويذكره به حتى النهاية . ومن هنا فلعله لم يكن يتوقع أن يجبره الملك على القيام بعمل يخالف ضميره ولا يتفق مع مبادئه وعقيدته . ومع ذلك فقد أدرك مور تدريجيًّا مدى إصرار الملك على السير فى الطريق الذى أراده والعمل على إزاحة كل عقبة من أمامه . وأدرك أنه لن يتردد فى الفتك به أو بغيره فى سبيل تحقيق رغباته ومطامعه .

ومما يرويه لنا وليم روبر أن الملك كان يزور مور فى بيته فى فترة سابقة وتطلع روبر من النافذة فرأى الملك يسير جنباً إلى جنب مع صديقه توماس مور فى حديقة الدار ويحيط بذراعه رقبة صديقه ، ففرح روبر وتهلل لما بدا من ود بينهما . فلما ذكر ذلك لمور بعد مضى الملك قال ذاك « إنى أشكر الله ، يابنى ، لأنى أجد الملك كريماً جدًّا معى بالفعل ، وأعتقد أنه يعزنى كأكثر ما يعز أحد رعايا هذه المملكة ، ومع ذلك ، فيمكننى أن أقول لك ، يا ولدى روبر ، أن ليس فى ذلك مدعاة للفخر ، إذ لو أن رأسى استطاعت أن تفوز له بقصر فى فرنسا (فقد كانت الحرب دائرة بيننا وبين فرنسا فى ذلك الوقت) فلن يبقى على رأسى شىء »[1].

ويقال أيضاً إن من أسباب قبول مور لمنصب الوزير الأول بما له من سلطات واسعة ، أنه كان يأمل فى أن يسهم فى حركة إصلاح الكنيسة التى كان يدعو إليها دعاة الحركة الإنسانية . أو أن يقتصر نشاطه إن لم يتيسر له ذلك على عمله القانونى .

(١) William Roper, *The Life of Sir Thomas More*, op.cit., p.xv.

وقد ظل مور يشغل هذا المنصب طوال سنتين ونصف ، كان خلالها أكبر رجال الملك مكانة وعضواً بارزاً فى المجلس الملكى . ويشير أحد الكتاب إلى أن مور ظل محتفظاً بمنصبه هذا طالما أحس أنه يستطيع الدفاع عن القيم التى آمن بها ، وأنه قرر الاعتزال فى النهاية بحجة ضعف صحته عندما وجد أن ذلك أصبح أمراً مستحيلا [١] . ومما هو جدير بالذكر أيضاً أن مور قد عمل على الاحتفاظ بالعلاقة الودية بينه وبين الملك أكبر فترة ممكنة . فعندما اتضح له أن الملك ماض فى سبيله ، قرر ألا يفصح عن معارضته لخطط الملك وأن يكتفى بعدم التعبير عن الموافقة إن طلب إليه ذلك . هذا علماً بأن الملك الذى عاود محاولة إقناع وزيره الأول بشتى الطرق « بخدمته فى مسألته الكبرى » لم يكن يتلقى منه سوى نفس الرد الأول وهو عدم مقدرته النظر إلى الأمر بنفس النظرة . وإن كان ذلك لم يمنعه من تأدية واجباته الرسمية بشأن هذا الموضوع . فعندما قرر الملك عرض الأمر على البرلمان ، قام توماس مور فى عام ١٥٣١ بتقديم تقرير لكل من مجلس العموم ومجلس اللوردات عن آراء العلماء الذين استشارهم الملك فى أمر شرعية زواجه من الملكة كاثرين ، دون أن يدلى هو برأى فى الموضوع ولما سئل فى ذلك أجاب أنه قد اطلع الملك ذاته على رأيه الشخصى فى ذلك أكثر من مرة .

ويواصل الملك السير فى الطريق الذى رسمه لنفسه . وعندما تفشل محاولاته لإقناع البابا بالموافقة على الطلاق ، يعلن فى عام ١٥٣١ انفصال الكنيسة الإنجليزية عن كنيسة روما ، ويتخذ لنفسه لقب الرئيس الأعلى لكنيسة إنجلترا . وهنا يصبح الأمر أكثر خطورة ، إذ يعنى ذلك إنكار سلطة البابوية وتولى الملك الذى

---

(١) G.R. Elton; "Sir Thomas More and the Opposition to Henry VIII" *Moreana,* No. 15 (Nov. 1967), pp. 285-99.

لا ينتمى إلى رجال الدين سلطة رئاسة الكنيسة وهى أمور تمس العقيدة الكاثوليكية التى يقدسها مور. ويفلح الملك فى إجبار الكنيسة الإنجليزية على الخضوع لإرادته فى ١٥ مايو ١٥٣٢ . ويسوق أولئك الذين يرفضون ذلك إلى السجن ثم التعذيب والموت . أما مور فيرى أن الوقت قد حان ليتخلى عن منصبه ويعتزله فى اليوم التالى لخضوع رجال الكنيسة أى فى ١٦ مايو ، ويأخذ فى إعداد ذاته للنهاية التى أحس أنها لابد آتية . وتبدأ سلسلة من المحاولات التى يدبرها أعوان الملك للإيقاع به ولكنها تبوء جميعها فى بادئ الأمر بالفشل لما عرف عنه من نزاهة وحرص .

وأخيراً يصدر الملك قانوناً يحدد فيه رئاسته للكنيسة وخلافة العرش بين أبنائه من زوجته الجديدة آن بولين . ويرفض مور فى ١٥٣٤ أن يقسم بأن الملك هو الرئيس الأعلى للكنيسة وإن كان لا يعارض فى أن أبناء آن بولين هم الورثة الشرعيون للملك ، لأن ذلك لا يعارض قانون الدولة . ويساق إلى سجن برج لندن ويستجوب أكثر من مرة ثم يحاكم فى أول يوليو ١٥٣٥ بتهمة إنكاره لرئاسة الملك للكنيسة ، أى بالخيانة ، ويدان ويحكم عليه بالموت ، بعد أن قضى فى السجن حوالى خمسة عشر شهراً (منذ مارس ١٥٣٤) وبعد أن حاول عبثاً عدد من أصدقائه وأفراد أسرته إقناعه بالعدول عن موقفه .

وفى صبيحة ٦ يوليو ١٥٣٥ نفذ فيه حكم الإعدام بقطع الرأس بعد أن خفف الحكم الذى كان يقضى بالشنق وشق الجسد وإخراج الأحشاء ، كما كان متبعاً مع غيره ممن رفضوا الخضوع للملك . كذلك سمح لأسرته بحضور دفن جسده ، أما رأسه فألقى به فى نهر التيمز كما كان متبعاً أيضاً .

ومما يقال إن الملك أرسل محافظ السجن ليخبر مور بالنهاية ويطلب إليه ألا يطيل الحديث قبل تنفيذ الحكم فيه ، فأجابه أنه وإن كان لديه الكثير مما يريد

قوله ، إلا أنه سيختصر . أما كلمات مور الأخيرة التى خلدها التاريخ فهى قوله : « هأنذا أموت فى سبيل الكنيسة ، خادم الملك الأمين ولكن خادم الله أولا » . ويردد الجزء الأخير منها كلمات الملك حين طلب إليه عند الالتحاق بخدمته أن يخدم الله أولا ثم الملك . ومما يقال أيضاً إنه فى اللحظة الأخيرة وقبل أن تهبط الفأس لتفصل رأس مور عن جسده ، رفع ذاك رأسه قائلا لحامل الفأس المكلف بتنفيذ الحكم : « انتظر لحظة لأبعد لحيتى ، فهى لم ترتكب خيانة » .

وهكذا قضى ظلماً وعدواناً على ذلك الرجل النقى السريرة ، والسياسى الكفء والعالم الإنسانى الذى أحب الإنسانية ودافع عن الحق والعدل . ويتفق معظم النقاد والمؤرخين على أن محاكمة مور تعد أقتم نقطة فى تاريخ القضاء الإنجليزى ، وأسوأ ما يذكر مما ارتكبه هنرى الثامن من جرائم تنكرها الإنسانية جمعاء .

وكان لإعدام مور دوى كبير فى جميع أنحاء أوربا . فعندما سمع الإمبراطور تشارلز الخامس مثلا بموته قال : « كل مانستطيع قوله هو أنه لو كان لنا خادم مثل هذا الرجل لفضلنا أن نفقد أفضل مدينة فى دولتنا عن أن نفقد مثل هذا المستشار » وقال صديقه إرازموس : « لقد أضحيت بعد أن سلب موته الأرض من النصف الأفضل من روحى مجرد شبه حى » .

ولعل موت مور لم يكن إلا بداية لحياة أطول وأشد أثراً . فقد خلد التاريخ اسمه وأخيراً كرمته الكنيسة التى استشهد فى سبيلها بمنحه لقب قديس فى عام ١٩٣٥ أى بعد مرور أربعة قرون ونصف على ذلك .

ولعل أكبر شاهد على عظمته هو أن صورته مازالت ماثلة أمام عيوننا إلى الآن وأن أعماله مازالت متداولة مقروءة ، وخاصة تلك التى عالج فيها أموراً لم

تشغل رجال إنجلترا وأوربا فى مستهل عصر النهضة فحسب ، بل مازالت تشغل العالم كله اليوم ، ربما بدرجة أكبر من ذى قبل . فقد شغلته أمور ستظل تشغل الإنسانية مادام هناك ظلم وجشع واستبداد وطغيان . لقد أحب توماس مور العدل والمساواة ونادى بالعلم والسلم وطالب بالقضاء على أسباب الظلم والحرب ، وجميعها أشياء ما أحوج الإنسانية إليها فى هذا العصر وكل عصر .

ولعل فى استقبال جماهير القراء ورواد المسرح والسينما فى جميع أنحاء العالم فى أيامنا هذه لمسرحية (ثم فيلم) روبرت بولت (Robert Bolt) « رجل لكل العصور » (*A Man for All Seasons*) اللذين يصوران جانباً من حياة توماس مور لأكبر دليل على ما لمثل هذه الشخصية الفريدة من سحر وتأثير .

ومن هنا تجئ أهمية « يوتوبيا » التى عبر فيها مور عن معظم آرائه وعكست الكثير من جوانب حياته الشخصية والحياة فى عصره بوجه عام ، فأصبحت مصدر وحى وإلهام لكثير من المفكرين والمصلحين والأدباء مهما اختلفت آراؤهم ، وتباينت فلسفاتهم .

« يوتوبيا » والحركة الإنسانية :

تعد « يوتوبيا » وثيقة من وثائق الحركة الإنسانية (Humanism) ، كما تعد كما يقول أحد النقاد مقدمة لعصر النهضة الذى شهد مولد تلك الحركة . فقد كان مور أحد أعمدة الحركة الإنسانية التى ازدهرت فى أوائل القرن السادس عشر فى أوربا ، يشاركه فى ذلك إرازموس الهولندى ، وبوديه الفرنسى ، وفيفيس الإسبانى وكوليت الإنجليزى . وكان الإنسانيون جميعاً يدينون بحب الإنسانية والسعى فى سبيل تحقيق العدل والسلام والوحدة بين الشعوب ، والعمل على نشر العلوم والآداب

الكلاسية ، ويتطلعون إلى عصر يسوده العقل والعدل والرحمة ، ويكونون حلقة تمتد فى معظم أنحاء أوربا وتوحد بين أفرادها المبادئ الإنسانية المسيحية من ناحية والاهتمام بإحياء الدراسات اليونانية والجيد من الأعمال اللاتينية من ناحية أخرى . وقد ربطت صلة الصداقة بين دعاة هذه الحركة ، وألفت المبادئ المشتركة بينهم . فتبادلوا الزيارة والرسائل ، وأصبحت كتاباتهم وثائق هامة لآمال الإنسان ومخاوفه فى فترة من أهم فترات الفكر الإنسانى .

أما فى إنجلترا فتعد هذه الفترة من أهم فترات تاريخها فقد شهدت مستهل عصر النهضة وبداية حركة الإصلاح الدينى ، والتطورات السياسية والاقتصادية وما تبعها من تطورات اجتماعية ، انتقلت بإنجلترا من العصور الوسطى إلى العصر الحديث .

وقد خيل لدعاة الحركة الإنسانية عند اعتلاء الملك هنرى الثامن عرش إنجلترا ، لما عرف عنه فى شبابه من حب للعلم وتشجيع للعلماء ، أن العصر الذهبي على الأبواب . فقد اهتم الملك الشاب فى بداية حكمه باجتذاب العلماء والدارسين إلى بلاطه وكان وزيره الأول ، كاردينال ولزى ، أيضاً يشجع العلم والعلماء ، فازدادوا ثقة فى المستقبل . كذلك سادت البلاد فترة من السلام ، علقوا عليها آمالا كباراً . فقد ظنوا « أن الوقت قد حان لانتصار العلم واندحار الجهل وإصلاح الكنيسة عن طريق العقل والدراسة »(١) .

وكان عام ١٥١٦ عاماً ذهبيًّا فى تاريخ تلك الحركة فقد ظهرت عدة أعمال يعبر فيها أصحابها كل بطريقته الخاصة عن الفلسفة الإنسانية التى توحد بينهم والتى يسعون لنشرها . ظهرت فى فبراير النسخة اليونانية للعهد الجديد التى حققها

---

(١) R. W. Chambers, *Thomas More*, p. 159.

إرازموس وأهداها للبابا ليو العاشر . وفى مارس أهدى كتابه : « تربية الأمير المسيحى » (*Institutio Principis Christiani*) إلى تشارلز أمير كاستيل والأراضى المنخفضة وفى أبريل كان قد أعد الجزء الأول من طبعته الممتازة لأعمال جيروم ، وأهداه إلى رئيس أساقفة كانتربرى . وأخيراً فى أول نوفمبر كتب بطرس جايلز رسالته التى يهدى فيها « يوتوبيا » التى ظهرت فى أواخر العام إلى جيروم بوسليدين .

ويعد العامان التاليان : ١٥١٧ — ١٥١٨ العهد الذهبى للحركة الإنسانية فقد عقد ولزى معاهدة صلح مع أعداء إنجلترا ، فحقق السلم الذى طال انتظاره ، وأخذ فى دعوة أعلم علماء أوربا إلى إنجلترا ، واعداً إياهم بمرتبات ضخمة ، كما أخذ فى جمع الكتب وتشجيع اللغات اليونانية واللاتينية والعبرية ، وقدم لجامعة أكسفورد منحة مالية كبيرة بحيث أخذ إرازموس مثلا فى التفكير جدياً فى الإقامة بصفة دائمة فى إنجلترا ، والتحق مور بخدمة الملك .

كتب إرازموس يقول : « إن العالم قد عاد إلى رشده ، وأخذ يستيقظ من سباته فقد أصبح بلاط هنرى جامعة » . وبالرغم من أسفه لترك مور حياة العلم والأدب وانضمامه إلى بلاط الملك سياسياً ، فقد شعر أن ما يعزيه هو أن مور سيعمل تحت إمرة خير الملوك ، وأنه سيشارك فى صنع العهد الذهبى [١] .

ولكن انتصار الإنسانيين لم يدم طويلا . فسرعان ما أخذت بوادر الشقاق بين صفوف المسيحيين فى الظهور ، بعد أن خرج لوثر بآرائه على أوربا . فكان ذلك بداية عهد تولى قيادة زمام الحكم فيه رجال أشد بأساً وعنفاً من دعاة الحركة الإنسانية . وما لبثت أن عملت الحروب والمطامع على انكماش آمالهم فترك

---

(١) انظر المرجع السابق ص ١٦٠ — ١٦٢ .

معظمهم ومن بينهم إرازموس إنجلترا وبقى مور وحده يحاول ما وسعه الجهد أن يحقق ولو بعض تلك الأحلام .

وهكذا يمكن القول بأن « يوتوبيا » تعد صرخة احتجاج على ما كان يسود أوربا من حرب وظلم ودعوة إلى السلام والعدالة والمساواة من ناحية ، ورد مسبق على كتاب ماكيافيللى : « الأمير » الذى يمثل الجانب القاتم لتلك الفترة ، أو الفلسفة التى تبرر الاحتكار والاستغلال والاستبداد من ناحية أخرى .

وكما تنتمى « يوتوبيا » إلى ما يسمى « الحقبة الذهبية » لعصر النهضة فهى تنتمى إلى التراث الحضارى لأوربا الغربية . فهى مهداة من مور الإنجليزى إلى جايلز وبوسليدين من رعايا تشارلز الخامس إمبراطور إسبانيا . وطبعت النسخة اللاتينية منها فى عدد من عواصم أوربا وقـــدم لبعض طبعاتها بوديه الفرنسى وإرازموس الهولندى . وترجمت إلى الألمانية والإيطالية والفرنسية قبل أن تترجم إلى الإنجليزية . ثم توالت الترجمات إلى مختلف اللغات الأوربية منذ ذلك الحين إلى الآن .

أما فى روسيا ، فقد حرم القياصرة تداول « يوتوبيا » لأسباب واضحة . فقد أدانت الحكم المطلق والاستبداد . ثم دارت الأيام دورتها ورأى فيها دعاة الثورة الاشتراكية عملا جديراً بالإعجاب والدراسة ، وظهرت لها عدة ترجمات إلى الروسية .

أرسل مور « يوتوبيا » إلى إرازموس بتاريخ ٣ سبتمبر ١٥١٦م ونشرها ثييرى مارتنز (Thierry Martens) فى لوفان فى نوفمبر أو ديسمبر — وأرفق بها رسالة بطرس جايلز إلى بوسليدين (بتاريخ أول نوفمبر ١٥١٦) إلى جانب رسالة مور الأولى إلى بطرس جايلز ، وصورة للأبجدية اليوتوبية وقصيدة من أربعة أجزاء باللغة اليوتوبية .

وصدرت الطبعة الثانية وحققها توماس لوپسيه (Thomas Lupset) عن مطبعة

جيل دى جورمون (Gilles de Gourmont)، بباريس فى أواخر ١٥١٧، وأرفق بها رسالة من بوديه (Budé) وهو عالم إنسانى فرنسى ضليع فى الآداب اليونانية واللاتينية إلى لوپسيه (Lupset) يشكره فيها على نسخة من الطبعة الأولى أهداها إليه [١]، ورسالة ثانية من مور إلى بطرس جايلز، ومقدّمة بقلم إرازموس .

وفى ١٥١٨ ظهرت الطبعة الثالثة فى مارس ثم فى نوفمبر وطبعها جون فروبين (John Froben) فى بال وقام مور بتصحيحها .

وفى ١٥١٩ صدرت طبعة أخرى فى مدينة البندقية عن مطبعة جونتين (Juntine Press) وفى ١٥٢٠ طبعت «يوتوبيا» مرة أخرى فى بال . وكانت هذه على أكبر الاحتمالات آخر طبعة ظهرت فى حياة توماس مور .

وفى ١٥٥١ ظهرت أول ترجمة إنجليزية لها بقلم رالف روبنضون (Ralph Robynson) وظلت الترجمة الإنجليزية الوحيدة حتى ١٦٨٤ حين ظهرت ترجمة جيلبرت بورنيت (Gilbert Burnet) كما ذكرنا من قبل .

مصادر « يوتوبيا » :

يمكن تقسيم مصادر «يوتوبيا» إلى قسمين : مصادر فكرية كلاسية ومعاصرة ، ومصادر أو انعكاسات حضارية وفكرية للعصر الذى كتبت فيه ، أو للقضايا التى كانت تشغل بال مؤلفها .

أما من الناحية الأولى ، فلعل أثر المصادر الكلاسية يبدو أكثر وضوحًا

---

(١) لزيادة التفصيل انظر : G. Marc'hadour, "Budé of Paris and More of London", *Moreana*, No. 19-20 (Nov. 1968). p. 160.

من المصادر المعاصرة . فهناك أولا أولئك الكتاب الذين يذكرهم مور فى كتابه والذى يبدو واضحًا أنه يكن لهم الإعجاب والتقدير مثل أفلاطون وبلوتارك وسنيكا . ثم هناك الكثير من الدلالات على معرفته الوثيقة بالكتابات السياسية لعدد من الكتاب مثل إيزوكرات (Isocrates) ، وزينيفون (Xenephon) ، وأرسطو . أما أكثر المؤثرات وضوحاً فهى « جمهورية » أفلاطون ، وأعمال بلوتارك وخاصة «حياة ليكورجوس» ، « وجرمانيا » (*Germania*) لتاسيتوس (Tacitus) . أما فى النواحى الأخلاقية والفلسفية ، فيبدو أثر ديوجينيس لايرتيس (Diogenes Laertius) وشيشرون وسنيكا واضحاً[1] . كذلك يبدو أثر لوكيانوس الساخر المرح فى أسلوب «يوتوبيا» ، وأثر أفلاطون فى استخدامه للحوار . أما أثر العصور الوسطى الذى يتمثل فى «مدينة الله » (*City of God*) للقديس أوغسطينوس فيبدو إلى حد ما فى بعض النواحى الدينية والأخلاقية « ليوتوبيا » .

إلا أن ذلك لا يعنى أن « يوتوبيا » مجرد خليط من تلك المؤثرات . فقد أفلح مور فى تقديم عمل يتسم بالأصالة والجدة ، عمل متكامل له شخصيته المتميزة ، وإن كان من الواضح أن تلك المؤثرات قد أسهمت فى تشكيل فكره ومعالجته لبعض نواحى دولته المثلى . يقول الأستاذ الأب سيرتز « بالرغم من أنه يمكن تتبع الكثير من تفاصيل «يوتوبيا» إلى مصادرها الأصلية ، إلا أنها تتميز بجدة يتفق الجميع بشأنها . ولعل ذلك يرجع لا إلى تفاصيلها كل على حدة بل إلى العمل الكامل فى كليته »[2] .

أما عن معاصريه فقد أخذ مور الكثير من الآراء ، وخاصة بعض آراء إرازموس

---

(١) انظر : Introduction to *Utopia* ed. Edward Surtz S.J., Vol. 2 of Selected Works of St. Thomas More, New Haven and London, Yale University Press, 1964, pp. 12-13.

(٢) المرجع السابق ص ١٣ .

أقرب الأصدقاء إلى نفسه ، والذى لا يذكر اسمه فى كتابه بالرغم من ذكره لأسماء غيره من الأصدقاء . فهناك تشابه واضح بين بعض آراء توماس مور فى «يوتوبيا» وآراء إرازموس فى كتابه «مدح الحماقة » (*Moriae Encomium*) الذى كتبه أثناء زيارة لصديقه وأهداه إليه ، و « تعليم الأمير المسيحى» السابق ذكره . فهناك نفس التحليل لنفس الأمراض التى كانت المجتمعات السياسية تعانيها فى ذلك الوقت ، ونفس الأسباب من جهل وحب للذات ، وجشع يتصف به الأمراء ، ونفس الاحتقار للكهنة والمحامين ، ونفس الشفقة على الفقراء ، ونفس الغضب للظلم والقسوة البالغة فى تنفيذ العدالة وهناك أيضاً السخرية من رجال البلاط ومن الصيد ولعب القمار وغيرها من الأشياء .

ويرى النقاد صعوبة تحديد أثر الكتابات الإنسانية الأخرى المعاصرة على «يوتوبيا» على وجه الدقة ، لأن مور جرياً على عادة معظم كتاب ذلك العصر لم يكن يذكر مصادره المعاصرة . هذا بالاضافة إلى وجود كثير من الآراء المشتركة بين تلك المجموعة من الأصدقاء من الكتاب والعلماء ذوى الخلفية الثقافية المشتركة والأهداف المشتركة .

أما من الناحية الشكلية فيرى النقاد تأثر مور لا « بجمهورية » أفلاطون وحدها ، بل بجمهورية فرانشيسكو باتريزى (*Francesco Patrizi De Institutione Reipublicae Libri IX*) وترجمتها « كتب تسع فى نظام الجمهورية » (١٤٧١ - ١٤٨٤) التى تكاد تكون العمل الوحيد الذى يعالج الدولة المثلى ككل قبل « يوتوبيا » . أما فيما عدا ذلك من أعمال فتتخذ النظرية السياسية شكل النصيحة للأمير أو شكل خطة نظرية للإصلاح .

أما الظروف الحضارية المحيطة بتوماس مور فكانت من أهم العوامل التى

أسهمت فى تكوين «يوتوبيا» . فقد عكس مور الكثير من سمات عصره فى كتابه . فنى عصر الاكتشافات الجغرافية والاهتمام بالعالم الجديد ، أشار مور إلى رحلات أمريكو فسبوتشى وزعم أن بطل قصته روفائيل هيثلوداى قد اشترك فى الثلاث الأخيرة منها ثم واصل الترحال بعد عودة فسبوتشى ، فتعرف على كثير من البلاد ، مناخها ونباتها وحيوانها وطرق حياة أهلها . ثم منحه الجنسية البرتغالية إشارة إلى فضل البرتغال فى هذه الاكتشافات عن طريق رحلات فاسكودى جاما وكابرال .

كذلك عكس انتصار الحركة الإنسانية ، فجعل من هيثلوداى عالما ضليعاً باللغة اليونانية ، ومعارضاً للفلسفة المدرسية ، وداعياً للعدل والسلام .

أما من النواحى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فقد عكس مور الكثير منها فى بلده وفى أوربا بوجه عام . فصور حياة المتعطلين والمتشردين ممن يقعون تحت وطأة القانون نتيجة لجشع الأغنياء وأصحاب الضياع والمزارع ممن يستغلون كدهم وكدحهم ثم يلقون بهم إلى الطريق حينما لا تصبح لديهم حاجة إليهم . وصور حياة الأعداد الطائلة من خدم الملوك والأمراء وأتباعهم ممن يعيشون عالة على المجتمع ، ومن الجند الذين يدللون ويشجعون لا لمصلحة البلاد بل للمصلحة الشخصية للملك أو الأمير ، ويستخدمون لعمليات القتل والإرهاب وبث الفتن . وقدم صوراً للحكام الذين يهملون مصالح شعوبهم سعيا وراء زيادة ممتلكاتهم ومد نفوذهم ، فيفشلون فى هذا وذاك ، ولمجالس الحكام وما تحويه من نفاق ومداهنة وانتفاء للصراحة والصدق .

وعرض مور لكثير من المسائل التى كانت تشغل الأذهان فى ذلك الوقت مثل تحويل المزارع إلى مراع واحتكار صناعة الصوف وارتفاع أثمان المواد الغذائية، وزيادة البطالة ، ثم فرض عقوبة الإعدام على السرقات الصغيرة من الناحية الاقتصادية .

ومثل عدم احترام المعاهدات الدولية واستخدام المرتزقة من الجند وجر الشعوب إلى حروب لا طائل تحتها من الناحية السياسية . وعكس مور عيوب الحكم المطلق والحكومات الفاسدة والطرق غير المشروعة لكسب المال مثل تعطيل بعض القوانين وإحياء البعض الآخر ، وذلك لتحصيل الغرامة ممن يخالفونها ، والتلاعب بالنقد واستغلال النفوذ إلى ما هنالك من صور للظلم والقهر التى تلازم أنواع الحكم المستبد فى ذلك العصر وكل عصر .

وقد عمد مور فى سبيل إضفاء جو من الواقعية على عالمه الجديد إلى المزج بين الخيال والواقع ، فأشار إلى بعض الأحداث والشخصيات التاريخية ، مثل حركة تمرد أهل كورنوول فى إنجلترا ، والعلاقات المتوترة بين إنجلترا والأراضى المنخفضة أو بين انجلترا وفرنسا . ثم ذكر ملوك فرنسا كمثل لطموح الملوك واستخدام المرتزقة من الجند السويسريين ، والدخول فى حروب لمجرد الاحتفاظ باللياقة العسكرية للجيوش ، وخرق المعاهدات والأحلاف وتدبير المؤامرات ، وجميعها أشياء كانت مألوفة ولها أمثلة تاريخية يذكرها المعلقون على «يوتوبيا» . كما أشار إلى ضعف قوة الكنيسة وما يتمتع به كهنتها من امتيازات ، فهم مثلا لا يخضعون للقضاء العادى ولا يحاكمون أمامه إن خالفوا القانون .

أما عن مدى كشف « يوتوبيا » عن شخصية صاحبها واهتماماته ، فيبدو ذلك واضحاً لا فى أوجه الشبه الكثيرة بين شخصية مور ذاته وشخصية بطله هيثلوداى وبين آرائهما التى تعكس بعض المسائل القريبة إلى قلب مور من ناحية ، والتى كان يحاول الوصول إلى رأى قاطع بشأنها مثل مسألة العمل فى خدمة الملوك من ناحية أخرى ، بل فى الكثير من وجوه حياة مور وصداقاته وتجاربه الشخصية والسياسية .

أما من الناحية الأولى فكلاهما ، مور وهيثلوداى ، يمثل العالم الإنسانى ، وهما متشابهان فى غزارة العلم وشدة الاهتمام باليونانية وتفضيل شيشرون وسنيكا على غيرهما من الرومان ، وكلاهما يعملان فى سبيل السلم ، وتشغل كليهما مسألة العمل كمستشارين للملوك . أما موقف هيثلوداى من ذلك فهو الرفض التام لأنه يعلم كما يؤكد ذلك ألا جدوى من محاولة تقديم المشورة النافعة للملوك . أما مور الذى كان قد قبل بالفعل القيام بمهمة ملكية ، فيدافع عن واجب الفيلسوف وقدرته على تقديم النصح والمشورة للملوك وإمكانه التأثير ولو بقدر ضئيل . فبينما يرفض هيثلوداى جميع أنواع التنازلات والحل الوسط ، نرى مور ، كما يشير إلى ذلك الأستاذ سيرتز ، يدرك نتيجة لتجربته السياسية الشخصية كعضو بمجلس العموم ثم كنائب لرئيس شرطة لندن « أن خير الأمور قد يكون عدواً للخير » وأن الرجل الحكيم «كثيراً ما يضطر لاختيار أقل الشرين شراً »[١]، ومن هنا فهو الذى يحبذ سياسة الحل الوسط .

أما من الناحية الثانية فيشير مور إلى صداقاته العديدة، ويبدى وفاء وإخلاصاً نادرين لأصدقائه مثل تنستول وجايلز وجون مورتون . ويعكس اهتماماته المتنوعة وكثيراً من أنواع النشاط العلمى والسياسى التى مارسها . يشير فى الجزء الأول من «يوتوبيا» مثلا إلى الفترة التى قضاها فى منزل كاردينال مورتون ، ويتخذ من البعثة إلى فلاندرز إطاراً لقصته عن يوتوبيا ، ويعتمد فى ذكره لكثير من أمثلة المؤامرات والفتن السياسية الأوربية على ما كسبه أثناء تلك البعثة من خبرة مباشرة بالحياة السياسية والعلاقات الدولية .

---

(١) "Sources, Parallels, and Influences : Supplementary to the Yale *Utopia*", *Moreana*, No. 8 (Feb. 1566), p. 8.

فعندما كتب مور « يوتوبيا» كان قد جاوز السابعة والثلاثين من عمره وبلغ درجة من النضج الفكرى نتيجة دراسته لكتابات القدماء من ناحية وتجربته العملية من ناحية أخرى ، تمكنه ، جرياً على عادة الفلاسفة الذين يقدمون النصح للملوك عن طريق الكتابة ، أن يقوم بدوره فى هذا المضمار ، فيقدم صرخة احتجاج على ماهو قائم ومثلا مجسما لما يجب أن يكون .

ولما كان الكثير من المسائل العامة التى تناولها فى كتابه ليست وقفاً على عصر النهضة أو أوائل القرن السادس عشر فحسب ولكنها مسائل تظهر بشكل أو بآخر فى كثير من العصور والأزمنة فقد جاءت « يوتوبيا » تحوى بين جنباتها أسباب حيويتها وقدرتها على مخاطبة القراء فى عصر بعد الآخر وأثبت توماس مور أنه حقًّا « رجل لكل العصور » .

الإطار الفنى « ليوتوبيا » :

لقد كان لاتخاذ مور من الشكل القصصى السردى إطاراً لعالمه المثالى عدة مزايا ، لعل أهمها إثارة انتباه القارئ وتشويقه ثم العمل على إقناعه بأن ذلك العالم الجديد ليس مجرد حلم عابر بل حقيقة واقعة . ويشبه النقاد هذا الإطار الفنى بالطبقة السكرية التى تحيط بحبة الدواء . وتتكون الطبقة السكرية عادة من وصف رحلة إلى بلاد غريبة ، لا تخلو من المغامرات والأخطار وتستغل حب القارئ لوصف الرحلات والاستماع إلى قصة مثيرة . أما حبة الدواء فهى المضمون الفكرى الذى يسعى الكاتب لنقله إلى القارئ بطريق غير مباشر عن طريق الوصف أو الحوار . وحتى لا يتسم هذا المضمون الفكرى بالجفاف الذى قد يبعث على الملل ينحو الكاتب عادة إلى استخدام شىء من الفكاهة للتخفيف من وطأة الأفكار المجردة ،

فيمزج بين الجد والدعابة من ناحية وتبادل وجهات النظر بين شخصيات القصة من ناحية أخرى .

وقد وفق مور فى الربط بين رحلات بطله الخيالى روفائيل هيثلوداى ورحلات أمريكو فسبوتشى المعروفة والمقروءة فى جميع أنحاء العالم كما يقول هذا البطل . وأتقن « فن الكذب » أو الإيهام بالحقيقة . فلم يأل جهداً فى العمل على إضفاء جو من الواقعية على جزيرته الخيالية فاستخدم كما أشرنا أسماء بعض الشخصيات والأماكن الحقيقية وأشار إلى كثير من الأحداث التى وقعت بالفعل فمزج بين الخيال والواقع بمهارة فائقة . ثم دأب على اختيار التفاصيل الدقيقة وسياق الإشارات والتعليلات مما يساعد على تثبيت الخيال إلى عالم الواقع وإيهام القارئ بصدق الصورة المقدمة إليه . أضف إلى ذلك استخدامه لشاهد عيان ليقوم بمهمة الراوى، فبالرغم من اعتماده على الحوار إلى حد كبير إلا أن وجهة النظر المركزية هى وجهة نظر الراوى الأساسى روفائيل هيثلوداى صاحب القصة الذى يروى أحداثاً ويصف أشياء شهدها بنفسه ، يعجب لبعضها ويزعم أنه ما كان ليصدقها لو لم يرها بعينيه ، ويحاور محدثيه ويفند اعتراضاتهم بشأن ما يسمعون ويخرج فى النهاية منتصراً .

ولعل فى نجاحه أيضاً فى تصوير شخصية الراوى، وجعلها مثيرة مقنعة أثراً بالغاً فى نجاحه فى تصوير جزيرة يوتوبيا وإقناع القارئ بأنها حقيقة واقعة .

ومع ذلك فإن مور يوحى بأن تلك الجزيرة المثالية ليست سوى جزيرة خيالية ، حين يطلق عليها لفظ « يوتوبيا »، وهى كلمة تتكون أصلا — كما أشرنا من قبل — من كلمتين يونانيتين هما : ou بمعنى لا ، و Topos بمعنى مكان ، بحيث تعنى الكلمتان معاً : « اللامكان » أو المكان الخيالى . ويذهب البعض إلى أنه من المحتمل أن مور كان يرمى إلى التلاعب باللفظين où ومعناها لا و Eu ومعناها

يوتوبيا

« الطيب » أى أن يوتوبيا قد تعنى اللامكان أو المكان الطيب أو المثالى[١] ويذهب البعض الآخر إلى أن المعنى الثانى متضمن فى المعنى الأول فالمكان المثالى مكان خيالى لا وجود له فى عالم الواقع . ومن هنا يمكن اعتبار كلمة يوتوبيا تضم المعنيين .

هذا علماً بأن مور ذاته قد أطلق على جزيرته فى بداية الأمر اللفظ اللاتينى (Nusquama) ومعناه «اللامكان» ، وكأنه يريد أن يحمل اسم جزيرته معنى النفى . ويصنع نفس الشىء فى اختياره لأسماء عاصمة جزيرته : أموروت أو المدينة الشبحية ، ونهرها : أنايدر أو النهر اللامائى ، وبعض الشعوب المجاورة لها مثل الأنيموليين أو شعب الريح ، والبليلوريت : أو الكثيرى الكلام الفارغ مثلا ، وجميعها أسماء توحى بالنفى أيضاً . ولعل ما يرمى إليه مور هو أن مثل ذلك العالم المثالى مهما كان مرغوباً إلا أنه يخشى كما يقول فى نهاية كتابه أنه متعذر التنفيذ .

ولما كان مور يرمى أساساً إلى وضع عدد من القضايا الأساسية أمام قارئيه عن طريق وضع مرآة أمام عالمه المعاصر ، تعكس عيوبه ونقائصه من ناحية ، وتقدم مثلا مجسما لعالم أفضل من ناحية أخرى فقد عمل فى سبيل استمالة القارئ إلى جانب الحق ، على حثه على التفكير والاختيار بتقديم عدد من وجهات النظر من ناحية والتعليق على بعضها من ناحية أخرى ، فاستخدم السخرية أحياناً والدعابة أحياناً أخرى واعتمد على المفارقة واستخدام التقابل والتضاد لإبراز كثير من الحقائق وتأكيدها .

ومن الجدير بالملاحظة أن فى استخدام الحوار كوسيلة لعرض آراء روفائيل جنباً إلى جنب مع آراء معارضيه عاملاً من عوامل قوة الكتاب الأول من « يوتوبيا »

---

(١) انظر الأبيات الشعرية الملحقة «بيوتوبيا» ص ٢٣٨ فيما يلى :

« ومن هنا فلست يوتوبيا : أرض الأحلام
بل بالأكثر اسمى هوآوتوبيا : أرض السعادة.. »



وحيويته بوجه خاص . يعمل توماس مور وبطرس جايلز على استدراج هيثلوداى إلى شرح آرائه وتأييدها بالحجج والأمثلة وذلك بالسؤال أحياناً وبالتعبير عن رأى معارض أحياناً أخرى . وإن كان من الواضح أن هذه الأسئلة والآراء المعارضة لاتقضى على حجج هيثولوداى أو تضعف من قوتها ومن هنا يمكن اعتبارها وسيلة من وسائل الإقناع التى اعتمد عليها مور .

ولما كان الحوار هو أداة التوصيل فى الجزء الأكبر من الكتاب — إذ حتى فى الكتاب الثانى من « يوتوبيا » حين يتحدث هيثلوداى وحده مقدماً صورة مفصلة ليوتوبيا فإنه لا يزال يوجه الحديث إلى رفاقه — فقد استخدم مور أسلوباً أقرب إلى أسلوب الحديث منه إلى أسلوب الكتابة التقليدية . واعتمد فى سبيل تجسيم الأفكار على الصورة والرمز فجعل حججه أكثر قدرة على التأثير والإقناع كما سنرى .

« يوتوبيا »

وتتكون « يوتوبيا » من جزءين أو كتابين . كتب مور الثانى منهما أولا فى أنتورب فى عام ١٥١٥ . ثم كتب الأول بعد عودته إلى لندن فى عام ١٥١٦ .

الكتاب الأول :

ويعد مقدمة لوصف جزيرة يوتوبيا أو الحكومة المثلى للدولة أو النظام المثالى للمجتمع . وفيه يحدثنا توماس مور الذى يقوم بدور الشخصية الثانية فى القصة عن الرحلة التى يقوم بها مع صديقه كثبرت تنستول إلى أنتورب مبعوثين رسميين من قبل ملك إنجلترا لتسوية بعض الأمور الهامة مع حكومة فلاندرز ، ويخبرنا عن بطرس جايلز الذى كان أحب الزوار إلى نفسه . ثم يصف لنا كيف التقى صباح يوم أحد بعد خروجه من الكنيسة ببطرس هذا

الذى يقدم له شخصاً غريباً عن البلد كان مور قد لمحه يتحدث إليه وظنه بحاراً . أما بطرس جايلز فيخبره أن اسمه روفائيل هيثلوداى وأنه رحالة جاب أقطاراً كثيرة وعرف كثيراً من البلاد والشعوب وطرق حياتها وأنه كان على وشك إحضاره لزيارة مور لما يعلم من اهتمامه بهذه الأشياء : « إذ لا يوجد هناك شخص آخر يستطيع أن يحدثك عن كل هذا العدد من البلاد والشعوب غير المعروفة مثلما يستطيع هذا الرجل » . وسرعان ما نجد أنفسنا فى حديقة منزل توماس مور وقد جلس الصديقان وضيفهما على مقعد تكسوه الحشائش الخضراء فى حين أخذ روفائيل هيثلوداى يحدثهم عن أسفاره وتجاربه .

ويشغل هذا الجزء من « يوتوبيا » حديث الصباح حتى موعد طعام الغداء .

ويتخذ الحديث هنا شكل الحوار بين روفائيل هيثلوداى من ناحية وبين توماس مور وبطرس جايلز من ناحية أخرى .

ويبدأ هيثلوداى حديثه بأن يخبر سامعيه كيف رافق أمريكو فسبوتشى فى الثلاث الأخيرة من رحلاته الاستكشافية الأربع إلى العالم الجديد وكيف طلب إليه فى الرحلة الأخيرة أن يسمح له بالبقاء وكيف لاحقه بالرجاء تارة وبالإلحاح تارة أخرى حتى تركه فى النهاية ضمن الحامية التى تركها فى أبعد نقطة وصلها على شاطئ البرازيل ، ومن هناك واصل روفائيل وبعض رفاقه رحالهم ، فطافوا بكثير من بلاد ذلك العالم الجديد وعرفوا عادات أهلها وقوانينهم وأخيراً حلوا بأرض جزيرة تدعى يوتوبيا .

وتتكشف لنا تدريجيًّا معالم شخصية هيثلوداى ، فنعرف أنه قد ترك ميراثه لإخوته وشد الرحال رغبة فى العلم والمعرفة ، وأنه فيلسوف وعالم ضليع باللغة اليونانية وأن له فلسفته الخاصة فى نظام الحكم وإقامة العدالة . فهو يؤمن

بالسلام والعدل واشتراكية الحياة ويحتقر الحرب والظلم والجشع والسعى وراء المال ويؤكد وجوب التخطيط لحياة سعيدة وإمكان تحقيق ذلك ، ويقدم الدليل فى النهاية بتقديم وصف كامل لتلك البلاد التى زارها والتى يتمتع أهلها بحكم عادل ويحيا أهلها حياة طيبة ، يضعه فى مقابل ما هو سائد فى أوربا ، من بؤس وفقر نتيجة لانعدام الحكم العادل وقيام الحياة الاجتماعية على الملكية الخاصة .

وكما يتمتع روفائيل بقدرة فائقة على تذكر عادات وتقاليد البلاد التى ينزل بها وكأنه قضى فيها طوال عمره ، فإنه يتمتع بنظرة فاحصة مدققة وقدرة على النقد والحكم على الأشياء . يحدثنا مور قائلا : « فكما لفت أنظارنا إلى وجود كثير من العادات والقوانين الحمقاء بين تلك الشعوب المكتشفة حديثاً ، فقد تحدث عن قوانين ونظم صالحة ، يمكن أن تتخذ منها مدننا وشعوبنا وممالكنا مثالا يحتذى لإصلاح أخطائنا وعيوبنا »(١)

وعندما يدرك سامعاه مدى معرفته ورجاحة عقله وثاقب فكره ، يتساءل بطرس جايلز متعجباً لم لا يلتحق ببلاط أحد الملوك ويعمل مستشاراً له ، مضيفاً أنه من المستحيل أن يجد ملك مستشاراً أكثر منه علماً أو أرجح مشورة . ولكن هيثلوداى يحتج قائلا إنه يرفض خدمة الملوك التى يعتبرها عبودية . فهو لا يزهد الثروة أو السلطان فحسب ، بل يرى أن تغيير سياسة الملوك ضرب من المستحيل . فهم يفضلون الاهتمام بأمور الحرب عن الاهتمام بأمور السلم ، كما يسعون لإضافة ممالك جديدة إلى ممالكهم أكثر مما يسعون لحكم الممالك التى يملكونها بالفعل وبالعدل . هذا فضلا عن أن مستشارى الملوك يظنون أنفسهم على درجة من الحكمة لايحتاجون معها إلى مشورة أى شخص آخر ، إلا إذا نافق وداهن وأبدى استعداداً للموافقة على

---

(١) انظر « يوتوبيا » فيما يلى ص ٩٥ - ٩٦ .

أكثر الآراء سخفاً وحماقة . فمشورة الرجل الحكيم غير مرغوب فيها فى بلاط الملوك الذين لا تعنيهم سعادة شعوبهم بقدر ما يعنيهم كنز المال والاستيلاء على ما للغير ، وشن الحروب فى سبيل المصلحة الذاتية .

وهكذا يتضح أن الموضوع الرئيسى للحديث هو كيف تتحقق العدالة للشعوب وكيف يصان السلم ، وكيف يمكن أن يكون الملك راعياً لشعبه وليس سيفاً مسلطاً على رقابهم ، أو هو باختصار ، مقومات الدولة المثلى أو النظام المثالى للمجتمع وإلى أى مدى تفتقر بلاد أوربا إلى مثل هذا النظام . ومن هنا نرى صلة الموضوعات المختلفة التى يتناولها الحوار بهذا الموضوع الرئيسى . ومن أهم تلك الموضوعات مسئوليات الفلاسفة نحو تحقيق نظام عادل للحكم ، عن طريق تقديم المشورة للحكام . أما ما يتطرق إليه الحديث من مواضيع أخرى مثل عقوبة السرقة أو انتشار البطالة أو تحويل المزارع إلى مراع فجميعها تفاصيل تكمل صورة من صور الحكم الفاسد وتؤكد ضرورة العمل على تحقيق حكم أفضل .

يدلل روفائيل مثلا على انعدام العدالة بالإشارة إلى العقوبة الصارمة التى تفرض على السرقة . ذلك فى الوقت الذى لا تعمل فيه الدولة على توفير العمل الشريف لأبناء الشعب ، فبينما تعيش حفنة من الناس فى ثراء ورفاهية ، إذا بأعداد كبيرة تدفعها الحاجة والفقر إلى السرقة . فمن عائدين من الحروب مشوهين وغير قادرين على كسب عيشهم ، إلى خدم وأتباع يستغنى عنهم ساداتهم إما لمرضهم وعجزهم وإما رغبة فى التوفير والاقتصاد ، إلى مزارعين طردوا من حقولهم وبيوتهم لأن رجلا جشعاً يريد أن يضم عدداً من المزارع الصغيرة ويحيطها بسور ليستخدمها مراعى لأغنام تدر عليه ربحاً كبيراً ، وفى سبيل ذلك تشرد أسر بأكملها تبيع ما تملكه بأبخس الأثمان وبعد أن تنفق هذا القليل وهى تنتقل من مكان إلى آخر

بحثاً عن عمل أو مأوى تضطر كارهة إلى التشرد ثم السرقة أو الموت جوعاً . فإذا أمسكوا بتهمة السرقة نفذت فيهم العقوبة وهى الموت شنقاً — فيشنق العشرون منهم على مشنقة واحدة ، كما يشير أحد السامعين وهكذا تبرز هذه الصورة رمزاً للظلم والحكم الفاسد .

أما السبيل إلى تحقيق العدالة فهو اشتراكية الحياة . فالملكية الخاصة والعمل فى سبيل تحقيق أكبر قدر من الربح الشخصى هما أساس الظلم والحرب . لذا « فالطريق الوحيد الذى لا يوجد سواه لتحقيق الرفاهية للجميع هو تحقيق المساواة فى جميع الأمور » كما قال الفيلسوف الحكيم أفلاطون . وذلك لا يتحقق إلا بإلغاء الملكية الخاصة . يقول هيثلوداى :

« فطالما بقيت (الملكية الخاصة) سيظل الجزء الأكبر بكثير ، والأفضل بكثير من الجنس البشرى مثقلاً دائماً بعبء ثقيل لا مفر منه من الفقر . أعترف أنه من الممكن تخفيف هذا العبء بعض الشىء ، ولكنى أنكر أنه من الممكن التخلص منه تماماً . فقد يصدر قانون يقضى بألا يملك شخص أكثر من قدر معين من الأرض ، وألا يكون لأى رجل دخل من المال يزيد عما يحدده القانون وقد تصدر تشريعات خاصة تحول بين الملك وزيادة سيطرته ، والأغنياء وزيادة جشعهم ، وتقضى أيضاً بألا يكون الحصول على الوظائف العامة بالهدايا والوساطة ، وألا تباع وتشترى ، وألا تحمّل شاغليها تكاليف شخصية باهظة (وإلا فسيكون الإغراء قوياً لأن يسترد الشخص هذه التكاليف عن طريق الخداع والسرقة وأن يعين بالضرورة لهذه الوظائف الأغنياء من الرجال بدل أن يشغلها الحكماء منهم » .

« أقول إنه بهذا النوع من القوانين تخفف هذه الشرور وتقل حدتها ، كما يبقى على الأجسام المعتلة التى لا رجاء فى شفائها بأنواع مختلفة من العلاج . أما

أن تشفى تماماً وتعود إليها الصحة الكاملة فهذا ما لا أمل فيه ، ما دام كل فرد سيداً لملكه الخاص . نعم ، فبينما تحاول إصلاح جزء ما ، تزيد من وطأة المرض على جزء آخر ، بحيث يؤدى شفاء عضو واحد بالتبعية إلى إصابة عضو آخر ، مادام لا يمكن إضافة شيء للواحد دون أن يؤخذ من الآخر »[١] .

ذلك هو تشخيص روفائيل للموقف ، فإذا اعترض مور على اشتراكية الحياة وأبدى بعض الشك فى إمكان تحقيقها لحياة طيبة سعيدة ، أجابه هيثلوداى قائلا إن السبب فى ذلك هو أن ليس لديه تصور كامل للموقف « أما إذا كنت قد عشت فى يوتوبيا ورأيت بنفسك طرق سلوكهم وعاداتهم كما رأيتها . . . لاعترفت دون تردد بأنك لم تر أبداً شعباً بهذا التنظيم فى أى مكان آخر فى العالم » .

وكأن فى وجود يوتوبيا كحقيقة واقعة الرد القاطع على كل اعتراض .

وهكذا نرى أن اعتماد مور على المفارقة والتقابل بين جزيرته المثلى وبين عالم الواقع هو الأسلوب الأساسى الذى يستخدمه للإقناع ، كما أنه وسيلة الربط بين الكتاب الأول الذى يقدم صورة نقدية لبعض سمات الحكم الفاسد وبين الكتاب الثانى الذى يقدم مثلا عملياً للحكم العادل . فهو يختار الأمثلة الملموسة لما هو حادث بالفعل فى بعض بلاد أوربا ليضعها جنباً إلى جنب مع مايقابلها فى يوتوبيا أو ما يجاورها من بلاد أحياناً أو يتصور أمثلة مماثلة أو افتراضية أحياناً أخرى .

فى حديثه عن زيارته لبلاد الإنجليز مثلا يذكر هيثلوداى النقاش الذى دار فى منزل الكاردينال مورتون حول عقوبة السرقة ، ويقارن بين قسوة العقوبة وعدم جدواها هناك وبينها لدى الرومان قديماً ثم لدى الفرس أو لدى الشعب البوليليريتى (وهو شعب خيالى مثل الشعب اليوتوبى) حيث يحكم على اللصوص

---

(١) انظر « يوتوبيا » ص ١٣٥ فيما يلى .

برد ما يسرقون ثم يعاقبون بالعمل فى خدمة الدولة ، فإن تابوا واستقام سلوكهم رد إليهم اعتبارهم . أما فى إنجلترا – كما هو الحال فى الكثير من البلاد – « فنحن أشبه ما يكون بالمعلمين الأشرار ، الذين هم أكثر استعداداً لضرب تلاميذهم عنهم لتعليمهم » [١] .

وحين يتحدث عن انتشار البطالة نتيجة لتحويل المزارع إلى مراع يقول : « يا سيدى ، إن أغنامكم التى اعتادت أن تكون أليفة معتدلة الطعام ، كما نمى إلى سمعى ، قد أصبحت شرهة مفترسة ، تلتهم الرجال أنفسهم ، وتدمر الحقول والمنازل والمدن بأكملها وتلتهم سكانها »[٢] . ومرة أخرى يستخدم مور رمزاً مخيفاً للجشع والوحشية ، رمزاً يحمل بين طياته تقابلا بين صورتين من صور الحياة .

فإذا ما انتقل إلى الحديث عن دور الفيلسوف فى بلاط الملوك ، أشار هيثلوداى إلى التجربة الفاشلة التى قام بها أفلاطون فى بلاط الملك ديونيسيوس ثم ساق مثلا افتراضيًّا قائلا إنه إذا تصور نفسه فى بلاط ملك فرنسا مثلا وقد جمع الملك مستشاريه لتبادل الرأى معهم فى أمر هام وقدم هو مشورة صالحة فى حين يقدم الآخرون مشورات فاسدة ، أيظن أحد أن نصيحته ستجد آذانًا صاغية ؟ فإذا كان موضوع التشاور مثلا هو كيف يتمكن الملك من الاحتفاظ بميلانو فى قبضة يده ، وإعادة نابولى الشريدة إلى حكمه ، ثم كيف يستطيع الانتصار على أهل البندقية ، وإخضاع إيطاليا بأكملها لسلطانه ، ثم كيف يستولى على أقاليم فلاندرز ، وبرابانت ، وأخيراً بورجنديا كلها ، إلى جانب غيرها من الشعوب التى سبق

---

(١) « يوتوبيا » ص ١٠١ .
(٢) « يوتوبيا » ص ١٠٥ .

أن راودته فكرة اغتصابها ، وجرت نصائح مستشاريه على الوجه الذى يمثل السياسة الدولية فى ذلك الوقت :

« فيشير واحد بإبرام معاهدة صلح مع أهل البندقية، تستمر طالما يجدها الملك تتفق وأغراضه ، بحيث يكشف لهم عن أهدافه ، بل ويمنحهم جزءاً من الغنيمة التى يظفر بها ، ثم يعود فيستردها ، عندما يتم له كل ما يريد . ويوصى آخر باستئجار المشاة من الألمان ويرى آخر استمالة السويسريين بالمال . وينصح آخر باسترضاء جلالة الإمبراطور [١] بالذهب وبهدية مقبولة ، فى حين يرى آخر التوصل إلى تسوية مع ملك أراجوان وإعادة مملكة نافار إليه ، ضماناً للسلام . ويأتى آخر باقتراح هزيل عديم القيمة ، فينصح باصطياد أمير كاستيل بالتلويح له بعلاقة نسب ، واستمالة بعض نبلاء قصره إلى جانب الفرنسيين بمنحهم معاشاً ثابتاً . أما إنجلترا .. فهم جميعاً يتفقون على إجراء مفاوضات للصلح معها ، وتدعيم تلك العلاقة الواهية فى أحسن الظروف بأقوى الدعامات ، على أن يدعى الإنجليز أصدقاء فى العلن ، فى حين ينظر إليهم سراً كأعداء . ولذا يجب أن يظل الأسكتلنديون على أهبة الاستعداد ،حتى إذا دعت الحاجة ، أطلقوا على الإنجليز عند أول بادرة تصدر منهم » [٢].

فإذا ما تقدم هيثلوداى واقترح أن يتركوا إيطاليا وشأنها وأن يكتفوا بفرنسا لأنها وحدها تكاد تكون أكبر من أن يحكمها رجل واحد ، ولذا يجدر بالملك ألا يحلم بإضافة أقاليم أخرى إلى مملكته ثم وضع أمامهم قرارات الأكوريين (وهم شعب خيالى آخر) وقد وجدوا أنفسهم فى ظروف مشابهة لظروف الفرنسيين . فقد أرهق

---

(١) الإشارة إلى ماكسمليان إمبراطور النمسا .
(٢) انظر « يوتوبيا » فيما يلى ص ١٢٢ - ١٢٣ .

ملكهم شعبه بحروب طاحنة ، للمطالبة بعرش مملكة أخرى كان يظن أنه الوريث الشرعي لها ، ثم أرهق ذاته بحكم المملكتين عندما تحقق له ذلك ، فلم يستطع الاضطلاع بمسئولياته نحو أى منهما كما ينبغى . فطلبوا إليه بكل احترام أن يختار لنفسه واحدة من المملكتين إذا لم يكن بوسعه الاحتفاظ بهما معاً « فقد كانتا أكبر بكثير من أن يحكمهما نصف ملك، تماماً كما لا يوجد شخص يرضى بأن يشاركه شخص آخر ولو فى رجل يرعى بغاله » . إذا ما تحدث إليهم هيثلوداى بهذا الأسلوب ، فكيف يجد سامعوه هذا الحديث ؟

ويسوق مثلا ثالثاً قائلا : هب ملكاً ومستشاريه يعملون للتوصل إلى وسيلة لجمع المال للملك ويشير الواحد بأن يدّعى الملك بأنه على وشك شن حرب على أعداء البلاد ليتيسر له فرض ما يشاء من الضرائب ثم ينتهز فرصة ليعلن أنه تجنب الحرب خوفاً على شعبه من ويلاتها . ويشير آخر بفرض الغرامة على كل من يخالف بعض القوانين القديمة ، التى نسيت من فرط قدمها وعدم تنفيذها ، أو يمنع تداول بعض السلع ثم يمنح تراخيص تداولها لمن يدفع رسما معيناً . وكلما ارتفع هذا الرسم بدا أن الملك يعمل لمصلحة شعبه . ويقترح ثالث أن يخفض الملك قيمة العملة عندما يكون عليه أن يدفع لغيره مالا ويرفعها عندما يكون على الغير أن يدفع له مالا . ويقنعه آخر بأن يستميل القضاة إلى جانبه فيستطيع بذلك أن يفعل ما يشاء .

ويتساءل روفائيل ماذا يكون موقفه لو قام ليقول إن جميع هذه النصائح والاقتراحات ليست مخزية فحسب بل خطرة أيضاً على سلامة الملك ، الذى تقوم سلامته ، بل كرامته ، لا على أمواله الخاصة ، بل على أموال الشعب ثم بين لهم أن أفراد الشعب يختارون الملك ليرعى مصالحهم وليس مصالحه الخاصة

أى ليوفر لهم بعمله وحده حياة طيبة آمنة من الظلم والقهر . مثله مثل الراعى الذى يرى واجبه ، مادام راعياً ، فى أن يطعم خرافه قبل أن يطعم نفسه . ووضع أمامهم ما يفعله الشعب المكارى (وهو شعب خيالى آخر) حين يقسم الملك عند توليه مقاليد الحكم ألا يحتفظ فى خزائنه بأكثر من قدر معين من المال هو ما يكفى حاجة البلاد . يتساءل قائلا « أفلا يعيروننى آذاناً صماء ؟ » .

فإذا ما حاول توماس مور إغراء هيثلوداى بالعمل على التوفيق بين آرائه وآراء غيره من المستشارين رفض ذلك مدللاً على صحة قوله بذكر أحد التشبيهات الرائعة التى استخدمها أفلاطون لتوضيح موقف الفلاسفة الذين يحسنون صنعاً بالامتناع عن إدارة شئون الدولة حين صورهم وكأنهم يرون الناس يتدفقون إلى الطرقات ويبتلون تماماً بالمطر الذى لا ينقطع ، ولكنهم لايستطيعون إقناعهم بالبقاء فى منازلهم والوقاية من المطر . فهم يعلمون أنهم إن خرجوا إليهم ، فلن يحققوا بذلك شيئاً سوى أن يبتلّوا هم أيضاً معهم . وهكذا يلزمون منازلهم قانعين بأنهم ، وإن لم يتمكنوا من مداواة حماقة الآخرين ، سيكونون هم على الأقل بمأمن من المطر .

وتتضح فى النهاية مقدرة هيثلوداى على إقناع سامعيه عن طريق المفارقة واستخدام الصورة والرمز بأن العدالة لن تتحقق إلا حيث تتحقق اشتراكية الحياة كما هو الحال فى يوتوبيا حين يصرخ مور قائلا : « إذا كان الأمر كذلك فإنى أرجوك وأتوسل إليك أن تصف لنا هذه الجزيرة . ولا توجز ، بل تحدث بالتفصيل عن الأرض والأنهار ، والمدن ، والسكان ، والتقاليد ، والعادات ، والقوانين . وباختصار عن كل ما ترى أنه جدير بنا أن نعرفه » .

وبهذا ينتهى حديث الصباح . وينفض عقد المجلس لتناول الطعام . ثم يعود

مرة أخرى للانعقاد بعد الظهر حين يواصل روفائيل حديثه الذى يشغل الكتاب الثانى .

الكتاب الثانى :

وهكذا يحوى الكتاب الثانى من « يوتوبيا » وصفاً مفصلا لمعظم نواحى الحياة فى الجزيرة . ويمكن تقسيمه إلى عدة أقسام ، يعالج الأول منها جغرافية الجزيرة وتخطيط المدن وحياة السكان . ويتناول الثانى نظام الحكم واختيار الرؤساء ونظام العمل والحياة الاجتماعية . أما الثالث فيعالج الأساس الفلسفى للحياة فى الجزيرة والأخلاقيات ونظام الزواج والقوانين العامة . يلى ذلك الجزء الرابع ويتناول علاقة يوتوبيا بجيرانها والحرب . ثم يتناول الفصل الأخير الأديان فى يوتوبيا .

وينتهى الكتاب بخاتمة موجزة يلخص فيها هيثلوداى النقاط التى سبق تناولها ويؤكد فلسفته الأساسية ومدى تطبيقها فى يوتوبيا ، يلى ذلك تعليق مور النهائى على ما سمع .

ويختلف النقاد بشأن المصدر الذى يحتمل أن مور قد استقى منه بعض ملامح جزيرته، وإن كان هناك شبه اتفاق على أنه قد اعتمد على بعض المعلومات التى حصل عليها من «رحلات أمريكوفسبوتشى الأربع» (*Quattor Americi Vesputtii Navigationes*) التى نشرت فى عام ١٥٠٧ . وقد زودنا مور ذاته بالدليل على ذلك بما يذكره روفائيل هيثلوداى عن كونه أحد الأربعة عشر رجلا الذين تركهم فسبوتشى (فى كيب فريو) فى نهاية رحلته الرابعة إلى البرازيل . وبالرغم من أن مور يخفى موقع يوتوبيا بالتحديد مدعياً فى رسالته إلى بطرس جايلز

أنه قد فاته سماع تفصيل ذلك من هيثلوداى ، نظراً لأن أحد الحاضرين قد سعل فى تلك اللحظة فلم يتمكن من سماع ما قاله هيثلوداى فى هذا الشأن ، إلا أنه يمكن استنتاج أن يوتوبيا قد اكتشفت فى مكان ما بين البرازيل والهند .

أما ريتشاردز (G.C. Richards) فيذهب فى مقدمة ترجمته لـ « يوتوبيا » (١٩٢٣) إلى أن مور قد التقى فى أنتورب ببحار قدم له وصفاً لجزر اليابان ويشير إلى أوجه الشبه بين يوتوبيا واليابان من حيث الموقع وشكل الجزيرة ومظهر اليوتوبيين واليابانيين .

ويقدم بعض النقاد نظرية أخرى قوامها أنه من المحتمل أن يكون مور قد سمع عن حضارة الإنكا فى بيرو عن طريق سكان أمريكا الوسطى واتخذ منها مثالا لدولته . فمن المعروف أن فاسكو دى بالبوا (Vasco de Balboa) قد عاد إلى إسبانيا فى عام ١٥١٤ ليقدم وصفاً لبعض اكتشافاته إلى ملك إسبانيا . ومن المحتمل أن يكون مور قد التقى بأحد بحارة بالبوا فى أنتورب [١] .

وتشبه جزيرة يوتوبيا بلاد الإنجليز فى بعض نواحيها وتعكس ما كان توماس مور يرجوه لها فى بعض النواحى الأخرى . فعاصمتها أموروت مثلا كبيرة الشبه

---

(١) قدم هذا التفسير Prof. Stanley Jevons فى مقالين فى
Times Literary Supplement, 2 Nov. 1935; *Tribune*, 13 Feb. 1948.

وقدم Arthur E. Morgan تفسيراً مماثلا فى كتابه :
Nowhere was Somewhere, Chapel Hill, 1946.

ويضيف Prof. H.W. Donner فى كتابه : *Introduction to Utopia*, London, 1945
أنه من المؤكد أن مور كان يعرف كتاباً آخر هو : « الأيام العشرة فى العالم الجديد » : (*Decades de Orbo Novo*) (١٥١١) لمؤلفه Pietro Martire d'Anghiera الذى يقدم فيه وصفاً براقاً لجزر الهند الغربية وجزيرة كوبا .

بمدينة لندن ، ونهر الأنايدر كبير الشبه بنهر التيمز ، ولكن مدن يوتوبيا جميلة صحية ، حسنة التخطيط ، متسعة الطرق ، مبانيها متينة ، يعمل سكانها على صيانتها ، وتحيط بها حدائق يتبارى أصحابها على تنسيقها والعناية بها .

وبالجزيرة أربع وخمسون مدينة كبيرة تتكلم جميعها نفس اللغة ، ولها نفس التقاليد والعادات وتسودها ذات القوانين والنظم . وهى متشابهة حتى فى مظهرها بقدر ما تسمح به طبيعة الأرض . وتحيط بالمدن الأراضى الزراعية موزعة بالتساوى بين المدن المختلفة . وتوجد فى جميع أنحاء المناطق الزراعية منازل ريفية مزودة بجميع الأدوات الزراعية ، ويقيم بها المواطنون الذين يعملون فى فلاحة الأرض بالتناوب .

ولا يقل عدد أفراد الأسرة فى الريف عن أربعين فرداً من الرجال والنساء . والجميع تحت رعاية رب الأسرة وربتها وكلاهما شيخ وقور . ولكل مجموعة من ثلاثين أسرة رئيس يدعى فيلارك . ويعود من كل أسرة إلى المدينة سنوياً عشرون من أفرادها بعد أن يقضوا سنتين فى الريف ويرسل بدلا منهم عشرون غيرهم من المدينة . وهكذا يستمر تدريب المواطنين بحيث تتوفر للبلاد دائماً الخبرة اللازمة لزراعة الأرض والأعمال المتصلة بها من قطع الأخشاب وتربية الدواجن وتدريب الخيول .

وكما يصدر الريف المنتجات الزراعية إلى المدن ، تأتيه من هناك المنتجات التى تصنع بها وذلك دون مقابل أو تبادل . وعند الحصاد يأتى بعض سكان المدن لمعاونة أهل الريف ، بحيث يتم جمع المحصول فى يسر وفى وقت قصير . ذلك أن المشاركة والتعاون هما الأساس الأول للحياة فى يوتوبيا .

أما نظام الحكم فنظام نيابى يعتمد على الانتخاب من أول السلم إلى آخره .

تختار كل ثلاثين أسرة سنوياً ممثلا لها يدعى الفيلارك كما ذكرنا . ويختار كل عشرة من الفيلارك رئيساً لهم يدعى بروتوفيلارك أو الرئيس الأول . وتنتخب الهيئة المؤلفة من الرؤساء أو الفيلارك ويبلغ عددها مائتى شخص ، الحاكم ، وذلك عن طريق الاقتراع السرى ، وبعد أن تقسم على اختيار الرجل الذى تراه أفضل المرشحين ، وعددهم أربعة يرشحهم الشعب بحيث يختار كل حى من أحياء المدينة الأربعة مرشحا واحداً يمثله فى المجلس . ويشغل الحاكم منصبه طوال الحياة . أما الرؤساء الأول فيجدد انتخابهم سنوياً إلا إذا أبدى أحدهم ميلاً إلى الاستبداد . أما غيرهم من الرؤساء فلا يشغلون مناصبهم إلا لعام واحد .

والزراعة هى العمل الوحيد الذى يمارسه الجميع رجالا ونساء . ويختار كل مواطن إلى جانب ذلك حرفة أخرى يتعلمها وهذه عادة لاتخرج عن صناعة النسيج أو البناء أو صناعة المعادن أو النجارة . وللمواطن الحق فى تغيير حرفته واتخاذ أخرى إذا أراد ذلك .

ويوفر الرؤساء العمل للجميع . وإذ كان الزى موحداً وكان المواطنون شديدى الحرص على صيانة المبانى ، ولما كان الجميع يعملون ، كانت كمية العمل المطلوبة قليلة وساعات العمل محددة لا تزيد عن ست ساعات يومياً وقد تقل . أما وقت الفراغ فيقضى فى الأعمال الذهنية والترويح عن النفس بسماع المحاضرات أو الموسيقى .

وهناك عدد من المواطنين يتفرغون للدراسة والعلم ، إن أرادوا ذلك وأظهروا استعداداً خاصاً . وذلك بعد موافقة الرؤساء .

أما العلاقات الاجتماعية أو العلاقات بين الأفراد فأساسها أن المدينة تتكون من عدد من الأسر ، ويحكم كلاً من هذه الأسر أكبر أفرادها سناً . وتنقسم كل مدينة

إلى أربع مناطق متساوية تتوسطها سوق تجلب إليها كل أسرة منتجاتها ويأخذ منها رب كل أسرة ما تحتاج إليه أسرته دون دفع مال أو تقديم بديل . ولما كانت جميع السلع متوفرة فلا يخشى شخص الحاجة أو الجوع ومن هنا اختفى الميل إلى التخزين . أما الكبرياء التى تجد مجداً شخصياً فى التفوق على الغير باستعراض الممتلكات أو السلع التى لا نفع منها فهى رذيلة لا وجود لها فى حياة اليوتوبيين .

ويتناول اليوتوبيون الطعام فى قاعات عامة ولا يمنع من يشاء من أن يتناول الطعام فى داره ، لأنهم يعرفون أنه لا يوجد شخص يفعل ذلك راضياً ، إذ لا يعد هذا السلوك سوياً ، ولأنه من الحماقة أن يتجشم المرء مشقة إعداد وجبة رديئة فى حين أن هناك وجبة شهية ممتازة معدة جاهزة فى القاعة القريبة منه .

ويقوم العبيد بالأعمال الدنيا ، فى حين تقوم النساء بإعداد الطعام والمربيات بالعناية بالأطفال أثناء تناول الأمهات للطعام . ويجلس أفراد المدينة أو الأسرة كبار السن جنباً إلى جنب مع الشباب . وتبدأ كل وجبة بقراءة هادفة متصلة بالأخلاق وحسن السلوك ، ويشجع الشيوخ الشباب على الحديث ولا تخلو وجبة من الأطايب والحلوى ، ولا يمر عشاء دون موسيقى . وهم يحرقون البخور وينثرون العطور ولا يتركون شيئاً يمكن أن يدخل السرور إلى قلوب الجماعة إلا ويعملونه . فهم شديدو الميل بشكل مفرط بعض الشيء إلى هذا الاعتقاد : وهو ألا يمنع نوع من أنواع المتعة ، لا ينجم عنه ضرر ، كما يقول هيثلوداى .

وهكذا نرى أن الحياة العامة مع المحافظة على الأسرة هى أساس الحياة فى المدينة أما فى الريف فنظراً لبعد المسافات وتفرق المواطنين ، فإنهم يتناولون الطعام فى بيوتهم . ويعد إبقاء توماس مور على الأسرة أحد السمات التى تميز بين "يوتوبيا" وجمهورية أفلاطون .

ولما كان الجميع يعملون حتى أولئك الذين يسافرون من مدينة إلى أخرى بقصد الزيارة أو السياحة ، لذا كانت هناك وفرة من السلع . فإذا ما وفر اليوتوبيون لأنفسهم ما يكفى عامين ، صدروا الفائض إلى البلاد المجاورة . أما سُبع تلك الصادرات فيوزع على فقراء تلك البلاد دون مقابل . أما الباقى فلا يحصلون ثمنه إلا إذا احتاجوا هم لذلك ، وخاصة فى حالة الحرب وذلك لاستئجار المرتزقة من البلاد الأخرى . أما فى معظم الأحوال فيتركونه للدولة ، تستخدمه لمصلحة الشعب .

وهم يحتفظون بكميات طائلة من المال لا بقصد كنز المال أو الثروة بل لمواجهة الطوارئ ، ولذا فهم يستخدمون الذهب والفضة لصنع الآنية الوضيعة وسلاسل العبيد وليس للحلى أو آنية الطعام الفاخرة ، وذلك حتى يتسنى جمع هذه الأشياء عند الحاجة للمال . أما الأحجار الكريمة واللآلىء فيستخدمها الأطفال فقط يتحلون بها ويزينون بها أنفسهم ولكنهم ما إن يشبوا عن الطوق حتى يخلعوها ويلقوا بها كما يلقى أطفالنا اللعب والدمى .

ويقدم لنا هيثلوداى مثلا حيًّا لنظرتهم المختلفة عن نظرة غيرهم من الشعوب إلى هذه الأشياء مثل الملابس الفاخرة المطرزة بالذهب والفضة ، والحلى والأحجار الكريمة فى وصفه للزيارة التى يقوم بها سفراء الأنيموليين إلى يوتوبيا . وكيف يأتون محملين بهذه الأشياء فيظنهم أهل يوتوبيا عبيداً لما يطوقون به أعناقهم من سلاسل ذهبية وما يتدلى من ملابسهم من حلى ، فى حين يظنون أبسط الأتباع هم السفراء .

ويتلقى اليوتوبيون العلم بلغتهم الأصلية ويهتمون بالموسيقى والحساب والهندسة والفلك والفلسفة وخاصة ما يتصل منها بالأخلاق .

ولعل أبرز معالم فلسفتهم وأكثرها إثارة للجدل هو القول بأن اللذة هى الهدف

الذى يحدد إما السعادة الإنسانية كلها أو الجزء الرئيسى منها ، والربط بين ذلك وبين دينهم . فهم يربطون بين الدين والفلسفة ولا يعتمدون على العقل وحده كما يؤيدون ذلك الدين بالحجج العقلية . فهم يؤمنون بأن الروح خالدة ، وأن الله قد خلقها للسعادة ، وأننا سنلقى فى الحياة الأخرى الجزاء على فضائلنا والصالح من أعمالنا ، والعقاب على جرائمنا وأخطائنا . فإذا ما كان هدف الحياة هو الحصول على اللذة ، والحرص على ألا تعوق لذة أصغر لذة أكبر وعدم السعى وراء لذة تجلب فى أعقابها ألماً ، فإنهم يجدون السعادة فى السعى وراء اللذة الحقيقية وليس اللذة الكاذبة . أما اللذة الحقيقية فيجدونها فى الصحة والملذات العقلية وفى ذكرى حياة طيبة والأمل فى الحياة الأخرى . أما من ناحية أخرى فلا يرون مبرراً لتعذيب الجسد وحرمانه من ملذات الحياة إلا إن كان ذلك لسبب دينى أو روحى . فاللذة تتحقق نتيجة للاستجابة إلى نداء الطبيعة ، ونداء الطبيعة لا شر فيه .

ويهتم أهل يوتوبيا بالعلم والمعرفة . وخير دليل على ذلك اهتمامهم بتعلم اللغة اليونانية ، من روفائيل هيثلوداى وزملائه ، وتعلمهم فن الطباعة وصناعة الورق منهم أيضاً .

من سمات يوتوبيا التى أثارت كثيراً من الجدل أيضاً وجود العبيد ، والعبيد فى يوتوبيا هم إما أسرى الحرب فى المعارك التى يخوضها اليوتوبيون أنفسهم ، وأولئك الذين يحكم عليهم بأن يصبحوا عبيداً فى بلادهم عقاباً على ما ارتكبوه من جرائم منكرة وإما أولئك المحكوم عليهم فى مكان آخر عقاباً على خطأ ما . وهؤلاء إما أن يشتروهم أو يأخذوهم دون مقابل . ويوثق العبيد بالأغلال ويحكم عليهم بالأشغال الشاقة . ولكنهم يصبحون أحراراً إن أظهروا توبة وصلاحاً . وأبناء العبيد ليسوا عبيداً .

من الأشياء المسموح بها فى يوتوبيا أيضاً أن يتخلص المريض الميتوس من شفائه من حياته إما بيده أو بيد غيره ، هذا علماً بأنهم يولون المرضى عناية فائقة ويوفرون لهم جميع وسائل الراحة والعلاج . ولكنهم لا يرون مبرراً لأن يستمر شخص معذباً فى الحياة التى لا يجد فيها لذة أو سعادة .

ومن تقاليد يوتوبيا التى طالما تساءل القراء والنقاد عن جديتها أيضاً تلك العادة المتبعة فى عرض العروس على عريسها والعريس على عروسه مجردين من الثياب قبل الزواج فى حضرة امرأة مسنة وقور أو شيخ وقور ، وذلك حتى لا يفاجأ أحد الزوجين بعد الزواج بعيب جسمانى ينفره من شريك حياته وينغص عليه سعادته . أما إذا أصيب أحد الزوجين بشىء من ذلك فيما بعد فعلى الطرف الآخر تقبل الأمر برضى وبدون شكوى . والطلاق مسموح به فى حالة الخيانة الزوجية أو عدم توافق الزوجين بشرط موافقة الطرفين وموافقة المجلس على الطلاق . أما فى الحالة الأولى فيسمح للطرف المضار بالزواج ثانية . أما الطرف الآخر فيقضى بقية العمر بدون زواج .

وليست فى يوتوبيا عقوبات ثابتة . بل يفرض المجلس العقوبة تبعاً للجريمة . والقوانين هناك قليلة لا لبس فيها حتى يستطيع المواطن فهمها وتذكرها . وعند نظر قضية يدافع المتهم عن نفسه ولا يحتاج إلى محام يدافع عنه أو يضع الكلمات فى فمه .

وهم لا يبرمون المعاهدات مع غيرهم من الشعوب بل يفضلون الاعتماد على الثقة وحسن النية . ولا يدخلون الحرب إلا للدفاع عن بلادهم أو بلاد أصدقائهم . ويحاولون تجنبها ما أمكن ذلك ، ولا يعتبرون المجد الذى يحصلون عليه عن طريق القتال مجداً يفاخر به . ولذا فهم يعتمدون على الحيلة أكثر مما يعتمدون على القوة .

وعلى المرتزقة أكثر مما يعتمدون على رجالهم ويسعون إلى النصر عن طريق قتل القادة أو أسرهم أكثر منه عن طريق قتل أفراد الشعب وتخريب مدنهم .

وفى يوتوبيا أنواع مختلفة من الأديان . أما الغالبية العظمى من اليوتوبيين فيؤمنون بكائن واحد معين ، يطلقون عليه لفظ الأب . وإليه ينسبون بدايات الأشياء جميعاً ولا يقدمون العبادة لسواه . وفضلا عن ذلك ، فإن جميع من يدينون بأديان أخرى يتفقون مع هؤلاء فى هذا الشأن ، وهو الإيمان بوجود كائن أعلى واحد ، خالق الكون كله ، ومدبره بحكمته ، ويدعونه « مثيراً ». ويكفل القانون لكل فرد حرية اختيار الدين الذى يريد اعتناقه ويسمح له بالدعوة إليه بشرط ألا يسىء لغيره من الأديان ، ولا يستخدم العنف أو يؤدى إلى الفتنة . أما أولئك الذين لا يؤمنون بخلود الروح ، فلا يحسبونهم من عداد بنى البشر ، بل لا يعتبرون فى عداد المواطنين شخصاً ، لولا الخوف ، لما احترم قوانين البلاد وعاداتها .

والكهنة فى يوتوبيا بالغو القداسة ، ولذا فعددهم قليل . ولا يحرم الإناث من الانخراط فى سلك الكهنوت وإن كان ذلك مقصوراً عادة على الأرامل المتقدمات فى السن . والطقوس الدينية عامة يمارسها الجميع فى المعابد . أما الطقوس الخاصة بدين بالذات فيمارسها أصحابه فى منازلهم .

وفى نهاية هذا الوصف المفصل للحياة فى يوتوبيا أو للدولة المثلى يعلق مور قائلا : « وعندما أتم روفائيل قصته بدت لى أشياء كثيرة فى عادات هذا الشعب وقوانينه التى وضحها لنا ، وكأنها تقوم على أساس مضحك ، لا فى أساليب الحرب التى يستخدمونها وفى طقوسهم ودينهم وغيرها من النظم ، بل بالأكثر فى تلك الناحية التى تشكل الأساس الرئيسى للبناء كله — وأعنى بذلك اشتراكية الحياة والمعيشة عندهم ، وانعدام تبادل النقود فهذا وحده يقضى تماماً على النبل ،

والعظمة ، والفخامة ، والجلال ، وهى صفات تعد فى تقدير عامة الشعب الأمجاد والمفاخر الحقيقية للدولة » .

وقد أثارت كلمات مور هذه كثيراً من التساؤلات : فإلى أى حد كان يؤيد تلك الاشتراكية التى يدعو إليها هيثلوداى مثلا ؟ وإلى أى حد كان يندد بالثراء وجمع المال ؟ وأخيراً إلى أى حد يمكن تقبل كلماته الأخيرة التى تلى الفقرة السابقة على أنها تمثل رأيه الشخصى فى هذه الدولة المثالية ؟

من الواضح أن نغمة الجزء الأخير من هذه الفقرة تنم عن شىء من السخرية أو على الأقل عن عدم الجدية التامة . فمن العسير أن نعتقد أن مور يشارك عامة الشعب فى الاعتقاد بأن انعدام تبادل النقود يقضى على النبل والعظمة والفخامة والجلال .

كذلك تدل كلماته الأخيرة على أنه وإن كان لا يتفق مع هيثلوداى بشأن ما قاله « إلا أن هناك الكثير من ملامح الدولة اليوتوبية يتمنى أن تتحقق فى بلاده ، وإن كان لا يأمل أن يراها وقد تحققت » .

وهكذا يترك الباب مفتوحاً للجدل والنقاش .

ولكن من يتتبع الحديث من بدايته لا بد وأن يدرك أن مور إنما كان يقدم ما يراه نافعاً من الحلول لمشاكل عصره المزمنة من جشع وظلم وحرب . وذلك عن طريق القضاء على أصل الداء بإلغاء الفروق وإتاحة المساواة والحياة الطيبة للجميع وذلك بتغيير الظروف والنظم التى يعيشون فى ظلها ، وذلك بالقضاء على أسباب التناحر والتطاحن وأهمها المال والسلطة ، فى ظل نظام اقتصادى اجتماعى يتساوى فيه الجميع فى الحقوق والواجبات وفى مجتمع يقوم على أسس أخلاقية .



فبالرغم من أن لفظ يوتوبيا أصبح يعنى للبعض الشىء الخيالى غير القابل للتنفيذ أو التحقيق إلا أن كثيراً من الملامح التى قدمها مور قد تحققت بالفعل فى حين ظل البعض الآخر مصدر وحى وإلهام . ولعل من أهم سمات يوتوبيا التى تجعل تحقيقها أمراً غير مستحيل أن مور لم يتجاهل وجود الشر فى عالمه المثالى تماماً . فهناك مجرمون ومخطئون يعاقبهم القانون . كما أنه لم يعتمد كلية على تغيير الظروف المادية لتحقيق ذلك العالم المثالى ، بل أكد أهمية المبادئ الخلقية والدينية والقيم السامية بوجه عام .

فإذا ألقينا نظرة سريعة على بعض آراء النقاد وجدنا أن الأجزاء التى تتناول الفلسفة والدين من أكثر الأجزاء إثارة للجدل والنقاش بين دارسى « يوتوبيا » ونقادها . فبينما يذهب الأستاذ هكستر (J.H. Hexter) مثلا فى مقدمة طبعة ييل إلى أن هذين الجزءين (اللذين يزعم أن مور كتبهما مع الكتاب الأول من « يوتوبيا » فى لندن وليس مع بقية الكتاب الثانى فى الأرض المنخفضة) لا يمثلان الأجزاء التى اهتم مور بتأكيدها بدليل أنه لم يشر إليهما لا فى الكتاب الأول ولا فى خاتمة « يوتوبيا » فى نهاية الكتاب الثانى ، وهما فى رأيه اللذان يحويان أهم آراء مور وأقربها إلى قلبه ، يذهب زميله فى تحقيق هذه الطبعة ، الأستاذ الأب إدوارد سيرتز (Edward Surtz) إلى أن مناقشة الدين فى « يوتوبيا » يعد خاتمة وذروة وصف هيثلوداى للجزيرة [١] . يقول « إن الأهمية التى يعلقها مور على موضوع الدين يمكن تقديرها بالمكان الذى يناقش فيه فى نهاية الكتاب وبالمساحة التى يخصصها له ، والتى تكاد تبلغ $\frac{١}{٦}$ المساحة المخصصة لوصف يوتوبيا » .

---

(١) See Introduction to *Utopia*, ed. Edward Surtz and J. H. Hexter op. cit., pp. cxxii-iii.

ويعلق الأستاذ دوجلاس بوش (Douglas Bush) أستاذ الأدب بجامعة هارفارد وأحد كبار الدارسين لهذه الفترة على ذلك بقوله إن الاختلاف بين وجهتى النظر ليس كبيراً إلى الحد الذى يبدو به ، إذا أخذنا فى الاعتبار نظرة الأستاذ هكستر إلى « يوتوبيا » بوجه عام . فهو يرى أن الكتاب كله يدين المجتمع الغربى ويقدم وصفاً واضحا للمذهب الإنسانى المسيحى الذى يتطلع إلى مثل عليا خلقية ودينية لعالم جديد « سلمى إنسانى [١] » ، كما يبدو أن هناك اتفاقاً جامعاً على أن الفكرة التى تقوم عليها « يوتوبيا » كما يعبر عنها تشيمبرز فى كتابه عن « توماس مور » هى أنه بالرغم من أن اليوتوبيين لم يكن لهم من مرشد سوى العقل ، فذلك هو ما يصنعونه ، بينما نحن الإنجليز المسيحيون ، نحن الأوربيون المسيحيون . . » ومضمون القول أن هذا هو ما نصنعه . أى أن فضائل اليوتوبيين الوثنيين (غير المسيحيين) تبدو واضحة إذا قورنت برذائل المسيحيين فى أوربا ، كما تبدو رذائل الأوربيين واضحة إذا قورنت بفضائل اليوتوبيين .

ولعل الاختلاف بشأن فلسفة اليوتوبيين ودينهم إنما يمثل بدرجة أكبر من الحدة اختلاف وجهات النظر بشأن « يوتوبيا » ككل . فبينما يذهب البعض إلى أنه من المستحيل أن نأخذ جميع ما ورد بها من آراء مأخذ الجد أو أن نتصور أن مور — بما عرف عنه من ميل إلى الخلط بين الجد والفكاهة فى حياته اليومية وفى كتاباته بحيث كثيراً ما كان يستحيل على أهل بيته معرفة ما إذا كان جاداً أو هازلا فيما يقول — كان يدعو إلى جميع قوانين يوتوبيا وعادات أهلها ، يرى البعض الآخر أن مور قد ضمن كتابه فلسفته الأساسية وأنه كان دون شك يدعو القارئ إلى تأمل

---

(١) نفس المرجع : p. cxxxii

(٢) *Moreana*, No. 7 (Aug. 1965), p. 87.

أسلوب الحياة فى يوتوبيا والإفادة منه ، ويرى فى الكتاب صرخة ضد الظلم والقهر والاستبداد ودعوة إلى نظم أفضل .

يقول لويس : (C. S. Lewis) مؤلف الجزء الخاص بالقرن السادس عشر من تاريخ أكسفورد للأدب الإنجليزى : « نخطئ إذا اعتبرنا « يوتوبيا » كتاباً فلسفياً » أو « إذا أخذنا جميع اقتراحات مور عن الدولة المثلى مأخذ الجد » ويذكر على سبيل المثال أنه من المشكوك فيه أن مور كان يؤيد قتل المرضى ممن يقاسون من أمراض مستعصية أو اغتيال الأمراء من الأعداء كجزء من قانون الطبيعة ، كما أنه من الغريب جداً أن يجعل فلسفة اللذة فلسفة اليوتوبيين . ويشير لويس إلى أن استخدام مور للحوار يجعل من المستحيل أن نقطع برأى عن موقفه من بعض الآراء التى يقدمها هيثلوداى ويناقشها معه مور وبطرس جايلز . ويخلص من ذلك إلى أننا إذا نظرنا إلى « يوتوبيا » من هذه الزاوية فستبدو كتاباً مضطرباً ، ولكنها فى الواقع أبعد ما تكون عن ذلك . ويرى لويس أنه يتعين علينا أن ننظر إليها على حقيقتها وهى أنها « تدفق تلقائى من المرح والفكاهة والجدل والتناقض والكوميديا ، ومن الخيال قبل كل شىء » ويضيف أن الجانب الخيالى أو « الشعر » بالمعنى العام ، لا يقل أهمية عن مزايا الدولة السياسية التى يقدمها مور وأن الأجزاء المختلفة لهذه السياسة تتسم بدرجات مختلفة جداً من الجدية[١] . أما الجزء النقدى فجزء جاد جداً وأكثر أجزاء « يوتوبيا » جدية من الناحية السياسية بحق ، وينطبق هذا بوجه خاص على الخاتمة الرائعة[٢] .

(١) انظر : C.S. Lewis, *English Literature in the Sixteenth Century, excluding drama, London,* 1959, pp. 168 - 9.

(٢) نفس المرجع ص ١٧٠ .

وتشير الناقدة مارى لويز برنيرى فى كتابها « رحلة عبر يوتوبيا » (*Journey Through Utopia*) إلى الكثير من تفاصيل الحياة فى يوتوبيا التى ترى من العسير تقبلها مثل أسلوب الحرب واستعمار أهل يوتوبيا لبعض البلاد المجاورة ، والتنظيم الدقيق لحياتهم ، وقلة ما يتمتعون به من الحرية الشخصية ، ووجود الرق واختفاء الفن ، وتتساءل إلى أى حد يمكن القول بأن مور يؤيد وسائل الحرب المتبعة فى يوتوبيا وإلى أى حد يمكن القول بأن جميع وجوه الحياة هناك تمثل مثلا يحتذى وليس نقداً لما هو حادث بالفعل فى العالم الواقعى ؟[1]

تنظر هذه الناقدة إلى « يوتوبيا » فى إطار العصر الذى كتبت فيه وهو عصر النهضة ، فتشير إلى أن جميع يوتوبيات تلك الفترة — لا فرق فى ذلك بين يوتوبيا مور وأندريياى ، وكامبانيللا ، وبيكون ، ورابليه [2] — قد عملت ، كرد فعل

---

(١) انظر : Marie Louise Berneri, *Journey Through Utopia*, London, 1950, pp. 56-8.

(٢) كتب يوهان فالنتين أندريياى (١٥٨٦ — ١٦٥٤) « المدنية المسيحية » :

Johann Valentine Andreae : *Reipublica Christianopolitanae Descriptio*, Strussburg, 1919.

وتومازو كامبانيللا (١٥٦٥٨ — ١٦٣٩) « مدينة الشمس »

Tommaso Campanella; *Civitas Solis Poetica: Idea Reipublicae*, Philosophicae; Frankfurt· 1623.

وفرنسيس بيكون (١٥٦١ — ١٦٢٦) « اتلانتيس الجديدة » :

Francis Bacon, *New Atlantis*, a worke unfinished. . . Added to sylva sylvarum : or a Naturall Historie, 1626.

وفرانسوا رابليه (١٤٨٣ — ١٥٣٠) « جارجانتوا وبنتاجرول » :

Françis Rabelais, "Abbaye de Thélème", *Garagntua* Lyon, 1532

انظر لمعرفة المزيد من هذه الأعمال :

Angele B.Samaan, "Utopias and Utopian Novels : 1516— 1949 .
A Preliminary Bibliography", *Moreana*, No. 31-32 (Nov· 1971) p. 285.

للفردية المتطرفة والحكم المطلق من ناحية وعمليات الاحتكار الواسعة النطاق فى المجال الاقتصادى وما يتبعها من استغلال للطبقة العاملة وفقر الغالبية العظمى من طبقات الشعب وللفرقة بين الشعوب نتيجة للخلافات العقائدية من ناحية أخرى ، عملت على بث الروح الجماعية ، والوحدة بين الشعوب ، والعدل والمساواة بين طبقات الشعب ، ولذا ضحى أصحابها فيما عدا رابليه بأغلى إنجازات عصر النهضة وهى الحرية ، ونادوا بتوحيد المسكن والزى (١) .

أما مورتون الذى يمثل اليسار الشيوعى فيرى فى « يوتوبيا » التى يطلق عليها « جزيرة للقديسيين » عملا فريداً جديراً بالتقدير وفى مور رجلا امتاز بالذكاء وبعد النظر وحب الإنسانية . ويلخص وصفه للعالم الذى نشأ فيه مور ونضج بقوله إنه كان عالم يأس وأمل ، عالم صراع وتضاد ، ثراء متزايد ، وفقر متزايد ، مثالية وفساد ، واندحار للمجتمعات المحلية والدولية أمام الدولة القومية التى قدر لها أن تهيئ الإطار الذى يمكن للدولة البرجوازية أن تنمو فيه » (٢) ويذهب إلى أن مور يمثل الصراع بين القديم والجديد ، بين العالم الإنسانى وتقشف العصور الوسطى . أما الحركة الإنسانية فكانت جزءاً من حركة التاريخ وذلك فى تفاؤلها وتطلعها إلى المستقبل ، وأنها بين يدى رجال مثل توماس مور كانت « تنظر إلى ما وراء المستقبل القريب والمصالح الطبقية للبرجوازية ، إلى سعادة الإنسان بوجه عام » (٣) .

ويقارن مورتون بين « جمهورية » أفلاطون و« يوتوبيا » مور موضحاً كيف أفاد

---

(١) *Journey Through Utopia,* op. cit., *p*.56.

(٢) A.L. Morton, *The English Utopia,* London, 1952, p. 37.

(٣) نفس المرجع ص ٤٠ .

مور من أفلاطون وكيف تفوق عليه فى تصوره للدولة المثلى . فقدم نوعاً من الاشتراكية يختلف عن اشتراكية أفلاطون، إذ حافظ على الأسرة، وعلى قدر من حرية الاختيار مع تأكيد الحياة الاجتماعية وضرورة عمل الفرد لتوفير الحياة الجماعية . كما قضى على الطبقية . ويعلق مورتون على ذلك بقوله : « إن خبرة مور بالحياة كانت أكبر من أن تجعله يعتقد أن أية طبقة ، مهما كانت حسنة النوايا ، ومهما بلغت درجة الحرص فى تعليمها ، يمكنها أن تملك سلطة الدولة دون أن تقهر وتستغل الأغلبية التى لا تملك شيئاً » . ويضيف أنه طوال الكتاب يعالج مور مسائل الدولة، والطبقات والملكية بطريقة عصرية تدعو إلى الإعجاب . « فمعالجة مور لهذه المسائل الأساسية هى التى يجب أن يوجه إليها أى تحليل اشتراكى جاد « ليوتوبيا » ، وذلك أن معالجته لها هى التى تجعل من كتابه علامة على الطريق نحو الاشتراكية العملية . فهى حلقة الاتصال بين النظرية الاجتماعية ، للعالم القديم والنظرية الاجتماعية الحديثة »(١)

أما مايفتقده مورتون فى « يوتوبيا » فهو الوسيلة التى كان من المحتم أن تأتى الاشتراكية عن طريقها وهى تطور الطبقة العاملة ، وإن كان يرى أنه من المستحيل أن نتوقع أن يدرك مور ذلك فى عصره وفى الظروف التى كان يمر بها عالمه . أما وصف مور للدولة وللأغنياء واستغلالهم للفقراء فيرى مورتون فيه وصفاً يتفق مع آراء ماركس وإنجلز ولينين الذين عاشوا بعده بعدة قرون . وفى ذلك أكبر دليل على عصرية أفكاره وسبقه لزمنه .

ولعل خير ما يثبت ذلك أن بعض تلك الملامح اليوتوبية التى أثارت الجدل فى عصر مور وفى العصور التالية قد أصبحت جزءاً من حياتنا المعاصرة كما يشير

(١) نفس المرجع ص ٤٢ .

الأستاذ بوش (Bush). فقد أصبحت الشيوعية التى طالما اشتد الجدل عن مدى إمكان تحقيقها وعن مدى جدية توماس مور فى الدعوة إليها — جزءاً من العالم الحديث وطبقت بأشكال مختلفة فى كثير من أجزاء العالم . يقول : « فى الحقبات الأخيرة ، ولأول مرة فى التاريخ ، أصبحت الشيوعية النظام السياسى والاجتماعى والاقتصادى لأجزاء كبيرة من البشر »[١] كذلك أصبح موضوع التزام الكاتب أو الأديب الذى يشغل الجزء الأكبر من الكتاب الأول من «يوتوبيا» من قضايا العصر. من الواضح أن الكاتب أو الأديب أو الفليسوف لا تتلخص مشكلته الآن فى هل يخدم الملوك أو يبتعد عن بلاطهم ، ولكن القضية الأساسية واحدة وهى كما يصفها الأستاذ بوش : « إلى أى مدى يمكن للكاتب ، والمثقف ، أن يظل متفرجاً أو أن يبقى منعزلاً عن عالمه الذى يقاسى من المتاعب والذى يتخبط بدرجة أو بأخرى ؟ هل يمكن أن يظل مشاهداً بريئاً ، أو هل تعد مثل هذه البراءة ذنباً ؟ »[٢]

وهكذا نرى أنه مهما اختلف القراء أو النقاد فى مختلف العصور بشأن بعض تفاصيل « يوتوبيا » أو مدى جدية صاحبها فى معالجة بعض نواحيها فلابد أن يتفقوا على أن مور كان يرى أموراً يجب تغييرها وأنه كان يقدم تصوراً لهذا التغيير وأن المبادئ التى يقوم عليها هذا التصور : مبادئ حب الإنسانية والعدل والمساواة ، هى التى جعلت من كتابه عملا خالداً يجد فيه المفكرون والمصلحون مهما اختلفت معتقداتهم ونزعاتهم — وحياً وإلهاما . ويجد فيه القارئ ذلك الإيمان بالإنسانية وتلك الثقة بقدراتها على إعادة تشكيل حياتها وتوجيهها نحو حياة أفضل ، مما

(١) انظر : *Moreana*, No. 7 (Aug. 1965), p, 89.

(٢) نفس المرجع ص ٩٠ .

يبعث الأمل فى النفس وخاصة فى أشد الفترات تأزماً وإنذاراً بالشر — أو تبسيراً بالخير — كما كان الحال فى عصر النهضة ، وكما هو الحال فى كل عصر تنشط فيه عوامل التغير وما يصاحبها من إمكانيات التحول إلى ماهو أفضل أو أسوأ .
وهل فى مثل هذا عصر كعصرنا ؟

الحكومة المثلى للدّولة
وجزيرة يوتوبيا الجديدة

كتاب من الإبريز

يجمع بين الفائدة والتّرفيه

بقلم الكاتب المبرز والمؤلف البليغ

توماس مــور

مواطن ورئيس أمن المدينة الشهيرة

لندن

رسالة توماس مور إلى بطرس جايلز

أكاد أشعر بالخجل أيها العزيز بطرس ، إذ أرسل إليك هذا الكتاب الصغير عن دولة يوتوبيا بعد سنة تقريباً ، بينما أنا واثق من أنك كنت تنتظره فى ظرف شهر ونصف . وما من عجب فقد كنت تعرف جيداً أننى قد انتهيت بالفعل من العمل المتصل بجمع المادة لهذا الكتاب ولم يكن يحتاج أمر تنظيمها منى إلى كبير عناء . فلم يكن علىّ سوى أن أعيد ذلك الذى سمعته برفقتك من روفائيل . ومن هنا لم يكن هناك داعٍ لأن أعمل على تحسين الأسلوب الذى روى به لنا ذلك ، إذ أن اللغة التى استخدمها لم تكن تحتاج إلى تهذيب أو صقل . فقد كانت تلقائية غير مدروسة من ناحية ، وصادرة عن رجل ، أنت تعلم أنه ليس عالماً باللغة اللاتينية بالقدر الذى يجيد به اللغة اليونانية من ناحية أخرى . وهكذا فكلما كان أسلوبى أقرب إلى بساطة أسلوبه غير المتكلفة ، كان أقرب إلى الصدق ، وهو الصفة الوحيدة التى أشعر أننى ملزم بها فى هذه الظروف والتى أحرص عليها بالفعل .

وأعترف ياعزيزى بطرس ، أن جميع هذه الاستعدادات قد أعفتنى من كثير من الجهد بحيث لم يتبق لى شىء أفعله تقريباً . فلولم يكن الأمر كذلك ، لتتطلب جمع المادة وتنظيمها قدراً كبيراً من الوقت والجهد ، حتى من صاحب عقلية ، ليست أحط العقليات أو أكثرها جهلا . فإذا ما كان الأمر يتطلب أن يدون الحديث لا بدقة فحسب ، بل ببلاغة أيضاً ، فما كنت لأستطيع إنجاز هذا

الكتاب بأى قدر من العمل والجهد . أما والأمر كذلك ، فقد أعفيت من كل تلك الهموم التى كانت ستتطلب منى كثيراً من الجهد والعرق . ولما لم يتبق لى سوى أن أكتب ما سمعت ببساطة ، فلم تكن هناك أية صعوبة فى الأمر .

ومع ذلك ، فمشاغلى الأخرى لم تترك لى مطلقاً شيئاً من الفراغ ، لإنجاز هذا العمل اليسير ، فأنا مشغول دائماً بالمسائل القانونية ، إما بالمرافعة ، وإما بالاستماع ، إما بمنح المكافأة كحكم ، وإما بإصدار الحكم فى قضية كقاض . كذلك أقوم بزيارة شخص ما مجاملة ، وزيارة شخص آخر لقضاء عمل . وأخصص نهارى كله تقريباً فى الخارج لأعمال الغير من الناس ، والجزء الباقى لأعمالى الخاصة . ولا أترك لنفسى ، أى للعلم ، شيئاً مطلقاً .

أما عندما أعود إلى بيتى ، فيتحتم على أن أتجاذب أطراف الحديث مع زوجتى وأثرثر مع أبنائى ، وأتحدث مع خدمى . وكل هذه الأشياء أعدها عملا مادامت واجبة على — وهى واجبة إذا لم ترد أن تصبح غريباً فى بيتك وبين أهلك. وفضلا عن ذلك فيجب على المرء أن يحرص على أن يكون لطيفاً ما أمكنه ذلك مع أولئك الذين منحتهم إياه الطبيعة أو الذين ألقت بهم الصدفة فى طريقه ، أو اختارهم هو ، رفاقاً له فى حياته بشرط ألا يفسدهم بلطفه ، ولا يجعل بتساهله المفرط ، سادة من خدمه . وبين هذه المشاغل يمر سريعاً اليوم ، والشهر ، والعام . متى أجد وقتاً للكتابة إذن ؟ هذا علماً بأنى لم أذكر كلمة واحدة عن النوم ، ولا حتى عن الطعام الذى يستغرق عند كثير من الناس وقتاً يساوى الوقت الذى يستغرقه النوم ، أما النوم فيستغرق نصف حياة المرء تقريباً . وهكذا لا أجد لنفسى من الوقت إلا ذلك الذى أسترقه من النوم والطعام . ولما كان ذلك الوقت قليلا جداً ، ولكنه وقت على أى حال ، فقد انتهيت أخيراً وببطء من يوتوبيا ، وأرسلتها إليك ،

ياعزيزى بطرس ، لتقرأها ، وتذكرنى بأى شىء فاتنى .

فنى هذا الشأن ، لا أشك كثيراً فى قدرتى (كل ما هنالك أنى أرجو لو كنت أتمتع بنفس القدر من الذكاء والعلم الذى أتمتع به من الذاكرة التى لا أفتقر إليها تماماً) . ومع ذلك فإنى لست من الثقة بذاكرتى بالقدر الذى يجعلنى أعتقد أنى لم أنس شيئاً . فكما تعلم ، كان جون كليمنت ، تلميذى وخادمى ، حاضراً ، أثناء ذلك الحديث . والحقيقة أنى لا أسمح له بالتغيب عن أى حديث يمكن أن يكون له فيه بعض الفائدة . فمن هذا النبت الصغير ، الذى أخذ بالفعل فى تكوين أوراق خضراء فى الأدب الإغريقى واللاتينى أتوقع ثماراً لا بأس بهـــا يوماً ما . هذا الشاب قد أدخل كثيراً من الشك إلى نفسى بخصوص نقطة واحدة.فما لم تخنى ذاكرتى ،فقد قال هيثلوداى إن الجسر الذى يعبر نهر الأنايدر عند أموروت يبلغ طوله ٥٠٠ خطوة . إلا أن جون يقول إنه يجب حذف مائتى خطوة،لأن النهر هناك لا يزيد عرضه على ٣٠٠ خطوة.لذا أرجوك أن تسترجع هذا الأمر. فإذا كنت تتفق معه ، فسآخذ بهذا الرأى وأعتبر نفسى مخطئاً.فإذا لم تذكره ، فسأدون ، كما دونت بالفعل ، ذلك الذى أتذكره على ما يبدو . فكما أحرص على ألا يكون هناك شىء غير صحيح فى الكتاب ، كذلك ، إن كان هناك شك فيما يتعلق بشىء ، فإنى أفضل أن أكذب كذبة موضوعية على أن أكذب كذبة متعمدة ، لأنى أفضل أن أكون أميناً على أن أكون حكيماً [١] .

---

(١) يشير ادوارد سيرتز إلى قول شبيه لأولوس جيليوس : «إن من يكذب ليس هو نفسه مخدوعاً ، ولكنه يحاول خداع غيره ، أما من يقرر أمراً غير صحيح فهو ذاته المخدوع . والرجل الطيب يجب أن يحرص على ألا يكذب ، والرجل الحكيم يجب عليه ألا يقرر ما هو باطل أو غير صحيح» .

أنظر : Edward Surtz; ed. *Utopia*; op. cit.; p. 5.

وعلى أى حال ، فسيكون من السهل أن تصلح هذا الأمر إذا سألت روفائيل إما شخصياً وإما بالكتابة إليه . وهذا ما ستضطر للقيام به بشأن أمر آخر يساورنى الشك بشأنه ، وإن كنت لا أعلم إن كان ذلك نتيجة لخطأ صدر عنى أو عن روفائيل . فقد نسينا أن نسأل ، ونسى هو أن يذكر ، فى أى جزء من العالم الجديد تقع يوتوبيا . وإنى آسف لحذف هذه النقطة ، وكم أود لو استطعت دفع مبلغ كبير من المال لشراء هذه المعلومة ، ذلك أنه من ناحية أشعر بشىء من الخجل لجهلى بأى بحر تقع الجزيرة التى أروى عنها كل هذه الأشياء ، ومن ناحية أخرى ، لأن هناك كثيرين بيننا ، وخاصة شخص بعينه ، رجل تقى وعالم من علماء اللاهوت ، يتحرقون شوقاً لزيارة يوتوبيا . أما هو فلا يرغب فى ذلك نتيجة فضول باطل لرؤية أماكن جديدة ، بل يهدف إلى خدمة وتعزيز ديننا ، الذى بدأ هناك بالفعل من حسن الطالع .

وحتى يستطيع تنفيذ خطته كما يجب ، فقد عقد العزم على محاولة إقناع البابا بإرساله إلى هناك ، ورسمه فضلا عن ذلك ، أسقفاً لليوتوبيين . هذا ولا يساوره شك فى أن من واجبه أن يسعى للحصول على تلك الأسقفية ، فهو يعتبر هذا الطلب النابع لا عن رغبة فى مجد أو ربح بل عن التقوى طلباً مقدساً .

لذا ، أتوسل إليك يا عزيزى بطرس ، أن تتصل بهيثلوداى إما بالتحدث إليه شخصياً ، إن كان ذلك ممكناً ، وإما بأن تبعث إليه برسالة إن كان قد سافر وتستوثق من أن كتابى لا يحوى شيئاً باطلا ، أو أنى قد حذفت منه شيئاً صحيحاً ويبدو لى أنه قد يكون من الأفضل أن تريه الكتاب ذاته ، فما أحسب شخصاً آخر أقدر منه على تصحيح أى خطأ به ، وما أحسبه قادراً إطلاقاً على إسداء

هذا المعروف إن لم يقرأ كل ما كتبت . وعلاوة على ذلك ، فسنعرف بهذه الطريقة إن كان سيتقبل بسرور تأليفى لهذا الكتاب أم سيتحمله على مضض. فإذا ما كان قد قرر أن يكتب هو قصة مغامراته ، فقد لا يريدنى أن أفعل ذلك . أما أنا فسأكره بالتأكيد ، أن أسبقه بكشفى عن دولة يوتوبيا ، وأسلب قصته من زهرة الجدة ونضارتها . ومع ذلك فالحق أنى لم أقرر بعد إذا ما كنت سأنشر كتابى هذا على الإطلاق . فأذواق الناس مختلفة بهذا القدر ، وأخلاق البعض متقلبة إلى هذا الحد ، وطبائعهم جحودة ، وأحكامهم فاسـدة لدرجة أن أولئك الذين يشبعون ميولهم بسرور ومرح يبدون أفضل بكثير من أولئك الذين يعذبون أنفسهم قلقاً فى سبيل نشر شىء قد يأتى بالفائدة أو السرور للآخرين الذين يستقبلونه بالرغم من ذلك باحتقار وجحود .

فكثيرون جداً يفتقرون إلى العلم ، وكثيرون يحتقرونه . والهمجيون يرفضون كل ما ليس همجياً تماماً بحجة أنه فظ . أما أولئك الذين لم يصيبوا من العلم إلا أقله فيحتقرون كل ما ليس محشواً بالتعبيرات البائدة التى عفا عليها الدهر بحجة أنه مبتذل . وبعض الأشخاص لا يتقبلون إلا ما كان قديماً ، والكثيرون لا يعجبون إلا بأعمالهم . فهذا الشخص يبلغ به التزمت حداً يجعله يرفض سماع دعابة ، وذاك الشخص من التفاهة بحيث لا يطيق سرعة البديهة. والبعض تبلغ بهم بلادة الذهن حداً يجعلهم يخشون أى نوع من السخرية بقدر ما يخشى الماء رجل عضه كلب مسعور . وآخرون يبلغ بهم التقلب حداً يجعلهم يمتدحون شيئاً وهم جلوس وشيئاً آخر وهم وقوف .

ويجلس هؤلاء الأشخاص فى الحانات ، وبينما يجرعون كؤوس الشراب ينقدون قدرات المؤلفين ، وبسلطان كبير ، يدينون ، كما يحلو لهم ، كتابات

كل كاتب ، وكأنهم يسحبون كلاً منهم من شعر رأسه ، بينما يظلون هم ، كما يجرى المثل ، بمأمن بعيداً عن طلقات الرصاص . فهم ملس الوجوه حليقو الرءوس ، لا توجد بهم شعرة واحدة من شعر الرجل الأمين يمكن أن يمسكوا منها . وفضلا عن ذلك ، هنالك آخرون يبلغ جحودهم درجة تجعلهم بالرغم من سرورهم الشديد بالكتاب، لا يحبون المؤلف أكثر مما لو لم يسرهم هذا العمل وهكذا لا يختلفون كثيراً عن أولئك الضيوف الذين يفتقرون إلى التهذيب ، والذين بعد أن يستمتعوا بمائدة دسمة، يذهبون إلى بيوتهم فى النهاية وقد امتلأت بطونهم ، بدون أن يشكروا صاحب الوليمة الذى دعاهم إلى مائدته . فلتذهب الآن ، وتقم وليمة على نفقتك الخاصة لرجال ذوى أذواق رقيقة ، وميول متعددة ، وطبائع غير ناسية وشكورة إلى هذا الحد .

ولكن على كل حال ، ياعزيزى بطرس، دبر الأمر الذى ذكرته مع هيثلوداى . وبعد ذلك، سيكون لى مطلق الحرية لأفكر فى الأمر من جديد. ومهما يكن الأمر ، فما دمت قد تحملت مشقة كتابة هذا الكتاب ، فقد فات الوقت الذى كنت أستطيع أن أفكر فى الأمر بحكمة ، لذلك وبشرط أن يكون ذلك بموافقة هيثلوداى ، فسأتبع بشأن ما تبقى من أمره أى بشأن نشره ، مشورة أصدقائى ، وخاصة مشورتك أولا وقبل كل شىء . والآن إلى الملتقى ، يا أرق الأصدقاء ، أنت وزوجتك الممتازة . ولتحبنى ، كما أحببتنى دائماً ، لأنى أحبك الآن أكثر مما أحببتك فى أى وقت مضى .

السّياسَة المثلىٰ للدّولة *
ووصف يوتوبيَا

حـديث

رُوفائيل هيثلوداى

كـمايـرويـه

توماس مُـور

مواطن ورئيس أمن

المدينة الشهيرة لندن

الكتاب الأول

* يستخدم توماس مور تعبير : The best state of a common wealth ويعنى به الحكومة المثلى للدولة أو أفضل نظام للحكم أو بلغة العصر الحديث خير نظام للمجتمع، كما يشير إدوار سيرتز فى طبعته « ليوتوبيا » ، ص ٩ .

نشأ خلاف أخيراً بين الملك الذى لا يقهر قط ، ملك إنجلترا ، هنرى الثامن[1] الذى يتميز بجميع صفات الملك المثالى ، وبين سمو أمير كاستيل ، تشارلز[2] ، الجبار السامى ، وذلك حول بعض الأمور ذات الأهمية والوزن وبهدف مناقشة هذه الأمور والوصول إلى رأى بشأنها ، أرسلنى جلالة الملك مبعوثاً إلى هولندا ، زميلا ورفيقاً لكثبرت تنستول[3] ، رجل لايبارى ، دون شك ، اختاره الملك أميناً للوثائق ، فعمت الفرحة الجميع .

ولكنى لن أفيض فى مدح هذا الرجل لا لأنى أخشى ألا يقام وزن للمديح الصادر عن صديق ، بل لأن فضائله وعلمه أعظم وأروع من أن أفيها ما تستحقه من ثناء ، وأيضاً لأنها معروفة للجميع ، ولست بحاجة لأن أثنى عليها ، إلا إذا أردت أن أبدو كمن يضىء مصباحاً فى الظهيرة ، كما يقول المثل .

قابلنا فى بروجس[4] (كما تم الاتفاق من قبل) أولئك الذين كان الأمير قد كلفهم بهذا الأمر ، وجميعهم رجال ممتازون حقاً . أما رئيسهم وكبيرهم فكان عمدة بروجس أو مارجريف[5] (كما يسمونه فى

---

(١) هنرى الثامن : ملك إنجلترا (١٥٠٩ - ١٥٤٧) حصل على هذا اللقب لانتصاره فى عدة معارك حربية .

(٢) تشارلز : الخامس فيما بعد (١٥١٩) ، كان فى هذا الوقت (١٥١٥) فى الخامسة عشرة من عمره .

(٣) كثبرت تنستول (١٤٧٤ - ١٥٥٩) درس بأكسفورد وكبريدج وتولى عدة مناصب دينية ثم عين سفيراً فى بروكسل فى ١٥١٥ .

(٤) بروجس (Bruges or Brugge) أكبر المدن التجارية فى بلجيكا طوال قرون كثيرة .

(٥) مارجريف : لقب كان يطلق على عمدة مدينة بروجس .

بروجس) رجل نبيل حقاً . أما المتحدث الأول والمرشد فكان جورج تمسيك عمدة مدينة كاستيل[١] ، رجل لا ذو دراية بالبلاغة فحسب بل خطيب بالفطرة وعالم فقيه بالقانون ، أما فى مسائل الجدل والإقناع بالحجة والمنطق ، فمن المؤكد أن لم يكن له ، نظراً لما يتمتع به من ذكاء فطرى وخبرة واسعة ، من الأنداد إلا القليل . ثم تقابلنا فيما بعد ، مرة أو مرتين ، إلا أننا لم نستطع أن نتوصل إلى اتفاق تام بشأن بعض النقاط ، فتركونا فترة من الزمن ورحلوا إلى بروكسل لاستطلاع الرأى الرسمى لأميرهم .

أما أنا فذهبت مباشرة فى هذه الأثناء إلى أنتورب حيث كانت مهمتى . وإبان إقامتى هناك ، كان يزورنى فى كثير من الأوقات عدد من الزوار ، بينهم شخص كنت أرحب به أكثر من غيره ، هو بطرس جايلز[٢] ، وهو مواطن من أنتوب ورجل يتمتع بسمعة طيبة فى بلده ، يختار للمناصب العليا ، ويستحق بحق أرفعها . وأجد من العسير أن أقرر هنا إذا كان هذا الشاب أكثر تميزاً بعلمه أم بأمانته . فهو يتسم بالفضائل الرائعة ، كما يتسم بالعلم الغزير ، بالإضافة إلى أنه لطيف غاية اللطف مع مختلف الناس ، أما مع أصدقائه فهو واسع الصدر ، محب أمين ، مخلص ، لدرجة يصعب معها أن نجد صنواً له فى أى مكان ، فى كل مايتسم به الصديق من صفات . إذ لا يمكن أن نجد رجلا أكثر تواضعاً منه ، أو أبعد عن التظاهر أو الادعاء عنه ، ولا رجلا يتسم بقدر أكبر من بساطة الحكماء . وإلى جانب ذلك فهو عذب الحديث ، خفيف الظل دون أن يؤذى شعور أحد ، لدرجة أن حفاوته البالغة ، وحديثه الحلو ،

---

(١) كاسيل : مدينة تقع الآن فى منطقة شمال فرنسا .

(٢) بطرس جايلز : أحد أصدقاء توماس مور ، وإليه أهدى كتابه « يوتوبيا » .



قد قللا بدرجة كبيرة من شوقى إلى بلدى وإحساسى بالبعد عن زوجتى وأطفالى الذين كنت أتوق شوقاً لرؤيتهم ، إذ كنت قد فارقتهم منذ أكثر من أربعة أشهر.

وذات يوم بعد أن حضرت صلاة القداس فى كنيسة السيدة العذراء — وهى أروع كنيسة فى المدينة كلها ، وأكثرها ازدحاماً بالمصلين — وبينما كنت أهم بالعودة إلى منزلى عند انتهاء الصلاة — إذ وقع نظرى صدفة على بطرس هذا السابق ذكره ، يتحدث مع شخص غريب عن المدينة ، رجل عركته السنون ، ذى وجه أسمر لفحته الشمس ، ولحية طويلة ورداء ملقى بإهمال على كتفيه ، وقد بدا لى من مظهره وملبسه أنه ربان سفينة . وعندما رآنى بطرس تقدم نحوى وألقى على التحية . ولما هممت بالرد عليه ، انتحى بى جانباً ، وأشار إلى الرجل الذى رأيته يتحدث إليه من قبل ، وقال : أترى هذا الرجل ؟ كنت أفكر فى إحضاره إلى منزلك على التو.

قلت : لئن فعلت لكان موضع كل ترحاب من أجل خاطرك .

أجاب : لا بل من أجل خاطره هو ، إذا ماعرفته . فلا يوجد هناك شخص آخر يستطيع أن يحدثك اليوم عن كل هذا العدد الكبير من الشعوب والبلاد المجهولة مثلما يستطيع هذا الرجل . وأنا أعرف تمام المعرفة أنك شديد الرغبة دائماً فى سماع مثل هذه الأشياء .

قلت : إذن لم يخطئنى التوفيق كثيراً فيما حدست . فقد حسبته ربان سفينة من النظرة الأولى .

قال : لا ، بل أخطأت خطأ كبيراً . لقد جاب البحار حقًّا ، ولكن لا كما فعل

بالينوروس [١] بل كما فعل الأمير يوليسيس [٢] ، أوبالأحرى الفيلسوف أفلاطون .
فروفائيل هذا ، فذلك هو اسمه ، أما لقبه فهيثلوداى [٣] ، عالم لا بأس به باللغة اللاتينية ، ولكنه عالم ضليع باللغة اليونانية التى منحها قدراً كبيراً من الدراسة ، إذ كرس نفسه كلية لدراسة الفلسفة ووجد أنه لا يوجد فى اللاتينية فى هذا الموضوع ما هو جدير بالاهتمام سوى بعض رسائل سنيكا [٤] وشيشرون [٥] . أما ماكان يستحقه من ميراث بحكم مولده فتركه لإخوته (فهو برتغالى المولد) ورغبة منه فى رؤية بلاد العالم البعيدة والتعرف عليها ، رافق أمريكو فسبوتشى ، وظل معه طوال الرحلات الثلاث الأخيرة من تلك الرحلات الأربع المطبوعة والمقروءة فى جميع أنحاء العالم ، أما فى الرحلة الأخيرة فلم يعد معه ثانية إلى الوطن . بل حاول بكل الوسائل والطرق الممكنة ، عن طريق الرجاء تارة والإلحاح تارة أخرى ، أن ينتزع من أمريكو فسبوتشى الإذن بأن يكون أحد الأربعة والعشرين شخصاً الذين تركهم فى القلعة عند أبعد نقطة بلغها فى رحلته الأخيرة . وهكذا تركوه وراءهم بناء على رغبته ، فقد كان شخصاً أكثر رغبة فى الترحال منه خوفاً من القبر . وكان من عادته أن

---

(١) بالينوروس : ربان إينياس ، سفينة فرجيل .

(٢) يوليسيس : صاحب المغامرات الشهيرة التى أعقبت سقوط طروادة فى ملحمة هوميروس « الأوديسا » .

(٣) هيثلوداى : ومعناها « الضليع فى التفاهات » أو « العالم بلغو الكلام » . أما روفائيل فمعناها « شفاء الله » .

(٤) سنيكا : الفيلسوف الرومانى ومعلم نيرون الذى اشتهر فى القرن الأول للميلاد ، وتعد أعماله الفلسفية من خير ماكتب الرومان .

(٥) شيشرون : الخطيب الرومانى المعروف (١٠٦ – ٤٣ ق .م) والإشارة إلى أعماله الفلسفية الضخمة .

يردد هذين القولين : إن من لا قبر له تغطيه السماء ، وإن الطريق إلى السماء أينما كان فهو بنفس الطول والمسافة . (ولولا عناية الله به) لدفع ثمن تلك الأفكار الغريبة غالياً . فبعد رحيل فسبوتشى ، وبعد أن كان قد جال بأنحاء بلاد كثيرة مع خمسة من الرفاق الذين كانوا معه فى القلعة ، وصل صدفة فى النهاية إلى تابروبين [١] ، ومن هناك ذهب إلى كاليكوت [٢] حيث وجد لحسن حظه ، سفينة تابعة لبلده ، عاد عليها مرة أخرى إلى وطنه ، وهو آخر ما كان يتوقعه أحد .

عندما أخبرنى بطرس بكل هذا ، شكرت له كرمه ، لتحمله تلك المشقة ليدبر لى حديثاً مع هذا الرجل الذى كان يأمل أن أجد فى الحديث معه متعة وسروراً ، ثم استدرت نحو روفائيل ، وبعد أن حيا كل منا الآخر وتبادلنا عبارات الترحيب المألوفة عند اللقاء الأول بين أشخاص لا تربطهم معرفة سابقة . ذهبنا من هناك إلى منزلى . وهناك فى الحديقة ، على مقعد تكسوه الحشائش الخضراء ، جلسنا نتجاذب أطراف الحديث . وهنا أخبرنى روفائيل كيف أنه ، بعد رحيل فسبوتشى ، أخذ هو وزملاؤه اللذين بقوا معه فى القلعة ، عن طريق اللقاءات وتبادل المجاملات ، فى اكتساب ود أهل تلك البلاد وحبهم ، شيئاً فشيئاً ، بحيث تمكنوا بعد فترة وجيزة ، لا أن يأمنوا شرهم فحسب ، بل أن يصبحوا على درجة كبيرة من الألفة معهم . أخبرنا أيضاً أنهم كانوا يتمتعون بسمعة طيبة وحظوة كبيرة لدى رجل عظيم (لا أذكر اسمه أو بلده الآن) تكفل بجميع

---

(١) تابروبين : الاسم اليونانى المشوه لسيلان. (سرى لانكا الآن – الناشر).

(٢) كاليكوت : أول ميناء فى الهند وصله فاسكو دا جاما فى مايو ١٤٩٨ .

نفقاته هو ورفاقه الخمس ، وأمدهم إلى جانب ذلك بمرشد موثوق به ، يرشدهم فى رحلتهم (بالسفن بحراً والعربات براً) ويأتى بهم إلى غيره من الأمراء بتوصية بالغة الود .

وهكذا بعد رحلات طالت أياماً عديدة ، وجدوا كما قال مدناً وبلاداً ودولا آهلة بالسكان ، وتخضع لقوانين ممتازة عادلة . فما لا شك فيه أنه تحت خط الاستواء وعلى كل من جانبيه ، بقدر ما تمتد الشمس فى مدارها ، توجد ، كما يقول ، صحار قاحلة ، ظمأى ، محرقة ، جافة بفعل الحرارة المستمرة ، وكل شىء هناك قبيح ، مخيف ، لا يسر العين . فالمنطقة قاتمة كئيبة ، خلو من الزراعة والجمال ، تسكنها الحيوانات المتوحشة والحيات ، أو أناس لا يقلون وحشية وضراوة بالفعل عن الوحوش ، ولكن ماتلبث الأحوال أن تأخذ فى التحسن شيئاً فشيئاً ، فتقل ضراوة المناخ الذى يصبح معتدلا ، وتغطى الحشائش الخضراء الرقيقة الأرض ، وتصبح الحيوانات أقل وحشية . وأخيراً تصل إلى أناس ومدن وبلاد ، لا ينقطع بينها التبادل ، لا بين السكان وجيرانهم فحسب ، بل أيضاً بينهم وبين تجار من أقطار بعيدة يأتون عن طريق البر والبحر . وهناك ، كما قال ، أتيحت لهم الفرصة لزيارة بلاد عديدة فى جميع الجهات . فما من سفينة على أهبة الاستعداد للقيام برحلة إلا ورحبت به وبرفاقه ركاباً عليها . أما السفن التى وجدوها فى بادئ الأمر فكانت مسطحة القاع ولها أشرعة مصنوعة من البردى أو الخوص ، أو من الجلد فى بعض الأحيان . ثم وجدوا سفناً ذات قاع مدبب ، وأشرعة من قماش القلاع ، وفى الواقع مثل سفننا من جميع الوجوه .

أما بحارة السفينة فكانوا على درجة عالية من القدرة على التكيف مع حالة البحر والطقس على حد سواء . قال إنه قوبل بينهم بحظوة بالغة لأنه قام بتعليمهم

كيف يستخدمون حجر المغناطيس ، الذى لم يكن معروفاً لهم من قبل ، ولذلك فقد كانوا يخافون البحر ويخشونه ولا يخاطرون بركوبه إلا صيفاً . أما الآن فقد بلغت ثقتهم بهذا الحجر حداً جعلهم لا يهابون الأخطار ، وبالغوا فى ذلك بحيث أصبح من الممكن أن يؤدى بهم ذلك الشىء الذى كان من المفروض أن يكون لهم فيه فائدة عظمى إلى كوارث فادحة .

وسيطول بنا الحديث ، إذا روينا ما أخبرنا به من الأشياء التى رآها فى جميع البلاد التى ذهب إليها ، مما لا يتسع له الوقت هنا . ولكن قد أتحدث عن ذلك فى مكان آخر ، وخاصة عن تلك الأشياء التى سيكون فى معرفتها فائدة ومتعة ، وخاصة تلك القوانين واللوائح التى لاحظ أنها وضعت وطبقت بحكمة بين أولئك الناس الذين يعيشون بطريقة متحضرة . فعن مثل هذه الأشياء سألناه بشغف وأجابنا هو بقبول لا يقل عن شغفنا فى السؤال . أما عن الوحوش الغريبة ، فلعدم كونها أشياء جديدة ، لم نوجه إليه أسئلة بشأنها ، فما أسهل العثور على سيلاس النابحة [١] ، وسيلينوس الجوعى [٢] ، وليستريجونيس [٣] ملتهمة البشر ، وغيرها من الوحوش المخيفة ، أما المواطنون الذين يحيون حياة متحضرة فى ظل قوانين صالحة ، عادلة ، فشىء نادر الوجود حقاً . ومما لا شك فيه أنه كما لفت أنظارنا إلى وجود كثير من العادات والقوانين الحمقاء بين تلك الشعوب المكتشفة حديثاً ، فقد تحدث أيضاً عن قوانين ونظم مختلفة يمكن أن تتخذ منها مدننا

---

(١) سيلاس النابحة : أحد الوحوش التى يصورها هوميروس فى «الأوديسا» وتسكن إحدى الصخرتين بين إيطاليا وصقلية . انظر « الأوديسا » الفصل الثانى عشر .

(٢) سيلينوس الجوعى : إحدى المخلوقات الغريبة التى يذكرها فرجيل فى « الإينياد ».

(٣) ليستريجونيس : قبيلة متوحشة دمرت إحدى عشرة سفينة من سفن يوليسيس ببحارتها .

وشعوبنا وأجناسنا وممالكنا مثلا يحتذى لإصلاح أخطائنا وعيوبنا . وسأتناولها كما قلت فى مكان آخر .

أما الآن فإنى أنوى أن أعيد على أسماعكم ما أخبرنا به عن عادات وتقاليد اليوتوبيين [١] فقط . ولكنى سأروى أولا حديثه السابق الذى ساقه وأدى به إلى ذكر دولة يوتوبيا . فعندما تناول روفائيل بكثير من الحكمة عديداً من الأخطاء ، بعضها فى هذا النصف من الكرة الأرضية ، وبعضها فى النصف الآخر ويوجد منها عدد كبير جداً فى الجانبين ، وقارن بين الإجراءات الحكيمة المعمول بها هنا عندنا أو هناك عندهم ، فقد كان يذكر عادات وتقاليد كل بلد من البلاد وكأنه قضى عمره فى كل بلد لم يزد عن أن نزل به ضيفاً ، أبدى بطرس دهشة بالغة لهذا الرجل قائلا إنى أعجب حقاً ياعزيزى روفائيل لما لا تلتحق ببلاط ملك من الملوك . فإنى واثق من أنه ما من أمير على وجه الأرض ، لا يرحب برجل مثلك لا يستطيع أن يدخل السرور إلى قلبه بعلمه الغزير ومعرفته بهذه البلاد والشعوب فحسب ، بل يستطيع أيضاً أن يزوده بالأمثلة ويساعده بالنصيحة . وبهذه الطريقة لن تخدم فقط مصلحتك بشكل ممتاز بل ستسهم كثيراً فى تقدم جميع أهلك وصحبك .

فقال : أما أهلى وصحبى فلا يقلقنى كثيراً أمرهم . لأنى أعتقد أننى قمت بالفعل بواجبى نحوهم بما فيه الكفاية . فقد قسمت بينهم تلك الأشياء التى لا يتنازل عنها الناس عادة حتى تدركهم الشيخوخة أو المرض ، بل وحتى عندئذ فهم يكرهون تركها ، وهم لا يستطيعون الاحتفاظ بها . أما أنا فلم

---

(١) اليوتوبيون : أهل يوتوبيا . ويوتوبيا كلمة مشتقة من الكلمة اليونانية بمعنى اللامكان أو المكان اللاموجود بمعنى الخيالى أو المثالى .

أقسمها بينهم . وما زلت قوياً معافى فحسب . بل وأنا في زهرة العمر أيضاً . ولذا أظن أنهم راضون بكرمى هذا ، ولا يطلبون أو يتوقعون أن أسلم نفسى ، فضلا عن ذلك ، إلى عبودية الملوك من أجلهم .

فأردف بطرس قائلا : لم أعن أن تدخل عبودية الملوك بل خدمتهم ، إن شئت .

قال : إن هذه الكلمة لا تقل عن الأخرى سوى مقطع واحد[١] . فأضاف بطرس قائلا : مهما كان اللفظ الذى تطلقه على هذا الأسلوب من الحياة . فأعتقد أنه الطريق الأمثل الذى تستطيع عن طريقه لا أن تخدم الناس أفراداً ومجتمعاً فحسب ، بل أن تصبح أنت أكثر نجاحاً ورفاهية .

فقال روفائيل : وهل أصبح أكثر نجاحاً ورفاهية بطريقة تبغضها نفسى . إنى أعيش الآن كما يحلو لى ، وهو ما يخيل إلى أنه لا يتوفر بالتأكيد إلا نادراً جداً لرجال البلاط المرفهين الذين تتحدث عنهم . وفضلا عن ذلك فهنالك الكثيرون من الأشخاص الذين يستجدون صداقة العظماء ، فلا حاجة بك لأن تظن أنهم سيمنون بخسارة كبيرة إذا لم يحظوا بشخص أو بثلاثة أو أربعة من أمثالى .

قلت : أرى من الواضح ياصديقى روفائيل أنك لا ترغب فى الثروة أو السلطان . والحق أنى لا أكن من الاحترام والتقدير لرجل بمثل تفكيرك أقل مما أكنه لآخر من أولئك الذين يتمتعون بقدر أكبر من الجاه والقوة . ولكن يبدو لى أنك ستفعل ما هو جدير بهذه الروح الكريمة الفلسفية التى تتسم بها ، إذا دبرت حياتك بحيث تضع مقدرتك وجهدك فى خدمة الصالح العام ، حتى ولو

---

(١) الإشارة إلى كلمتى (inservias) بمعنى الرق أو الاستعباد وكلمة (servias) بمعنى الخدمة فى الأصل اللاتينى .

كان فى ذلك ما يضيرك شخصياً بعض الشيء ، وهذا مالا يمكن أن تحققه بهذا القدر من الفائدة العظمى ، إلا إذا كنت مستشاراً لملك عظيم ، وجعلته يسلك (ولا إخالك إلا فاعل) مسلكاً مستقيماً شريفاً . فمن الملك ، كالينبوع الذى لا ينضب ، يأتى فيض كل ما فيه الخير أو الشر للشعب كله . فأنت على درجة من العلم الكامل تمكنك — حتى لو كنت تفتقر إلى التجربة الواسعة — أن تكون مستشاراً لأى ملك ، كما أن تجربتك من الثراء بحيث تمكنك — دون علم — أن تقوم بذلك .

فأجاب قائلا : إنك ياعزيزى مور مخطئ بشأن أمرين ، مخطئ أولا بشأنى ، وثانياً بشأن الموضوع ذاته . أما أنا فلست أملك تلك المقدرة التى تنسبها إلىّ ، وحتى إذا كنت أملكها بدرجة كبيرة ، فإننى بالقضاء على سكينتى لن أخدم الصالح العام . ففى المكان الأول يفضل معظم الملوك تقريباً أن يشغلوا أنفسهم بأعمال الحرب والفروسية (وهذه أمور لا تتوفر لى معرفتها ولا أرغب فيها) أكثر مما ينشغلون بأعمال السلم الشريفة ، ويهتمون بدرجة أكبر بكثير بالتوصل ، بطريقة أو أخرى ، إلى الفوز بممالك جديدة سواء كان ذلك بالحق أو بالباطل ، عمّا يهتمون بأن يحكموا بالعدل تلك الممالك التى يملكونها بالفعل . أما فى المكان الثانى ، فإن كلاً من أولئك الذين يعملون مستشارين للملوك ، إما أنه على درجة من الحكمة بالفعل بحيث لا يحتاج إلى الإفادة من مشورة شخص آخر ، وإما أنه يحسب نفسه حكيماً فلا يتنازل بطلب الفائدة من مشورة غيره ، اللهم إلا إذا أبدى الآخر موافقته بطريقة مخجلة تتسم بالملق لأكثر الأقوال سخفاً مما يتفوه به أقرب المقربين للملك ، ممن يبتغى الناس رضاهم ، لما يتمتعون به من نفوذ لدى الملك ، ويسعون للحصول عليه بالمداهنة والملق . والحق أنه من الطبيعى أن

يقدر الناس أفكارهم أكثر من أفكار غيرهم . فهكذا يظن كل من الغراب والقرد أن صغاره أجمل الصغار . فإذا ما جاء رجل إلى مثل هذه الجماعة من الناس الذين يحتقرون أفكار الغير ويفضلون أعمالهم على خير الأعمال ، وعرض عليهم شيئاً قرأ أنه كان يصنع فى الأزمنة السالفة ، أو رآه يصنع فى أماكن أخرى ، فإن السامعين سيسلكون ، وكأن خطراً يتهدد كل ما يعرف عنهم من حكمة ، وكأنهم سيستحقون أن ينظر إليهم من ذلك الحين فصاعداً كمجرد أغبياء ، مالم يستطيعوا أن يجدوا شيئاً ينقدونه فى أفكار هذا الرجل . فإذا أعيتهم جميع السبل فذلك هو ملاذهم الأخير . يقولون ، كانت هذه الأشياء تعجب أجدادنا وأسلافنا ، فليعطنا الله الحكمة لنكون مثلهم . وكأن فى هذا القول خاتمة لامعة للموضوع كله . وعندئذ يعودون إلى مقاعدهم وقد أغلقوا كل فم ، بما ضمنوه إجابتهم من أنه من الخطر أن يكون المرء أكثر حكمة من أجداده فى أى أمر من الأمور . ومع ذلك فهما بلغت روعة آراء أجدادنا ، فإننا نغفلها بكل ارتياح ، أما إذا أخفقوا فى موقف من المواقف فى اتباع الطريق السوى ، فإننا نتمسك بذلك الخطأ ونتشبث به ولا نتركه قط . فكثيراً ما صادفت مثل هذه الأحكام السخيفة الغبية فى أماكن أخرى كما صادفتها مرة فى إنجلترا .

قلت : معذرة سيدى ، فهل ذهبت إلى بلدنا ؟

قال : نعم ، لقد ذهبت بالفعل . ومكثت هناك أربعة أو خمسة أشهر ، وذلك بعد فترة وجيزة من النهاية الأليمة لحركة التمرد التى قام بها الإنجليز الغربيون ضد ملكهم (١) .

---

(١) حركة تمرد قام بها أهل كورنوول ودخلوا لندن ولكنهم هزموا فى بلاك هيث فى ٢٢ يونية ١٤٩٧ .

وقد كنت مديناً بالشكر والعرفان . فى تلك الفترة . للأب المبجل . جون مورتون [١] . رئيس أساقفة وكاردينال كانتربرى ، وأيضاً كبير أمناء ملك إنجلترا فى ذات الوقت . رجل ياعزيزى بطرس (فتوماس مور يعرفه وليس بحاجة لأن أزيده علماً به) جدير بالاحترام لحكمته وفضيلته بقدر ماهو جدير بالاحترام لنفوذه ومركزه ، متوسط القامة ، مرفوع الهامة ، بالرغم من تقدمه فى السن . يثير وجهه فى النفس شعوراً بالهيبة أكثر منـــه بالرهبة ، لطيف الحديث ، ولكنه جاد وقور . كثيراً ماكان يجد متعة كبيرة فى أن يثبت لمقدمى الالتماسات له بلهجة حادة ، ولكن دون أن يؤذى شعور أحد ، مدى ما يتسم به كل رجل من الذكاء اللماح والروح الشجاعة ، فما دام هذا السلوك لا يصل إلى درجة القحة ، فقد كان يسره لأنه يتفق وميله الخاص ، ويثير إعجابه لأنه يناسب أولئك الذين يشغلون مناصب عامة . كان حلو الحديث بليغه . ذا علم غزير بالقانون ، ولا يدانيه أحد فى سرعة بديهته ، يتمتع بذاكرة خارقة ، فقد تعهد قدراته الفطرية الخارقة بالدراسة والتدريب فبلغ بها حد الكمال . وكان الملك يثق ثقة كبيرة فى مشورته ، كما بدا لى أن الدولة تعتمد عليه كثيراً عندما كنت هناك . وكما هو متوقع ، فقد أخذ منذ شبابه المبكر من المدرسة إلى البلاط مباشرة تقريباً ، وهناك قضى طوال حياته فى تدبير الشئون العامة الهامة ، وتحمل كثيراً من العناء وتقلبات الحياة المختلفة ، وهكذا اكتسب عن طريق مامر به من مخاطر عديدة حكمة رجل السياسة ، التى إذا تعلمها

---

(١) جون مورتون (١٤٢٠ ـ ١٥٠٠) خدم هنرى السادس وإدوارد الرابع ، ثم ألقى به ريتشارد الثالث فى السجن ، ولكنه هرب إلى أوربا وانضم إلى إيرل ريتشموند (هنرى السابع فيما بعد) وعين رئيس أساقفة كانتربرى فى ١٤٨٧ ثم كاردينالا فى ١٤٩٣ .

المرء بهذه الطريقة فمن العسير أن ينساها .

حدث ذات يوم ، عندما كنت أجلس إلى مائدته ، أن كان هناك أيضاً رجل خبير بقوانين المملكة من غير رجال الدين . ولا أدرى المناسبة التى أدت إلى ذلك ، ولكنه أخذ يمتدح بإصرار وحماس تلك العدالة الصارمة التى كان يؤخذ بها اللصوص فى ذلك الوقت ، ممن كانوا ، كما قال ، يشنقون عشرين منهم على مشنقة واحدة فى وقت واحد ، وعجب بالأكثر من أنه بالرغم من أنه لم ينج من العقوبة سوى عدد قليل جداً ، فقد كان اللصوص، بالرغم من ذلك بتلك الدرجة من الانتشار والكثرة .

ولما كنت أجرؤ على الإفصاح برأيى بشجاعة على مائدة الكاردينال قلت له : لا تعجب لهذا الأمر ياسيدى . فإن هذه العقوبة التى تفرض على اللصوص تتعدى حدود العدالة ، كما أنها ضارة بالصالح العام . فهى عقوبة بالغة القسوة للسرقة ، ومع ذلك فليست رادعاً كافياً . فالسرقة وحدها[1] ليست جرماً كبيراً يعاقب عليه بالموت . كما أنه ليست هناك عقوبة يمكن التفكير فيها ، كفيلة بأن تمنع من السرقة أولئك الذين يفتقرون إلى حرفة أخرى يكسبون منها عيشهم . وليس هذا هو الحال فى بلدى وحدها بل فى جزء كبير من العالم أيضاً ، فنحن أشبه مانكون بالمعلمين الأشرار الذين هم أكثر استعداداً لضرب تلاميذهم عنهم لتعليمهم . فقد فرضت العقوبات الصارمة الرهيبة على اللصوص ، فى حين كان من الأفضل كثيراً تدبير بعض الوسائل ليكسبوا بها عيشهم ، بحيث لا تدفع الضرورة القصوى بالإنسان لأن يسرق ، ثم يموت نتيجة لذلك .

---

(١) السرقة التى لايصحبها عنف أو قتل .

قال : نعم لقد دبر هذا الأمر بما فيه الكفاية بالفعل. فهناك الحرف اليدوية وهناك الزراعة ، ليكسبوا منها عيشهم ، إذا لم يفضلوا بمحض إرادتهم أن يكونوا أوغاداً .

قلت : لا ، لن تتخلص بهذه السهولة ، فلن أتحدث عن أولئك الذين يعودون من الحروب التى تستعر فى الخارج أو فى الداخل مشوهين ومقعدين ، كما حدث من وقت ليس ببعيد عند عودتهم من ميدان بلاك هيث [١] ، وقبل ذلك بوقت قصير من حروب فرنسا ، أقول إن مثل هؤلاء الذين يفقدون أطرافهم فى خدمة الدولة أو الملك ، يمنعهم عجزهم من مزاولة حرفهم ، كما يعوقهم تقدمهم فى السن عن تعلم حرف جديدة ، لن أقول شيئاً عن هؤلاء ، فالحروب لا تحدث إلا من وقت لآخر . ولكن لنلق نظرة على تلك الأشياء التى تحدث يوماً بعد يوم .

هناك أولا ذلك العدد الكبير من النبلاء الذين لا يكتفون بأن يعيشوا عاطلين مثل ذكور النحل ، على عمل الغير وكدهم ، وأقصد أولئك الذين يؤجرون أراضيهم ، والذين يسلبونهم كل صغيرة وكبيرة عن طريق رفع الإيجار ، علما بأن هذه هى الناحية الوحيدة التى يمارسون فيها التقشف ، أما فيما عدا ذلك فهم مسرفون لدرجة أن إسرافهم المفرط قد يؤدى بهم إلى التسول ، هؤلاء النبلاء لا يكتفون بأن يعيشوا هم أنفسهم فقط فى تعطل ، ولكنهم يجرون وراءهم قطيعاً ضخماً من الخدم العاطلين ، ممن لم يتعلموا قط حرفة يكسبون منها عيشهم . هؤلاء الرجال ، ما أن يتوفى سيدهم ، أو يحل بهم المرض ، حتى يطردوا شر طردة .

---

(١) بلاك هيث : المعركة التى وقعت بين الإنجليز وسكان مقاطعة كورنول كما سبق ذكره .

فهؤلاء النبلاء يفضلون الاحتفاظ بالمتعطلين من الأشخاص عن المرضى من الرجال ، وفى كثير من الأحيان لا يستطيع وريث الرجل المتوفى أن يحتفظ بمظاهر العظمة التى كان عليها البيت من قبل ، ولا أن يبقى على كل هذا العدد من الخدم الذى كان يحتفظ به والده فى بادئ الأمر على الأقل . وهكذا فى هذه المواسم العجاف يكرس هؤلاء الأشخاص جهودهم للتضور جوعاً ، إن لم يكرسوها للسرقة . فما عساهم يستطيعون أن يفعلوا غير ذلك ؟ فبعد أن يكونوا قد تجولوا فى الطرقات فترة من الزمن بحيث بليت ملابسهم واعتلت صحتهم ، ونتيجة لشحوب وجوههم وتمزق ملابسهم ، لن يتنازل النبلاء باستئجارهم لخدمتهم ، ولا يجرؤ المزارعون على تكليفهم بالعمل لديهم . ذلك أن هؤلاء يعرفون تماماً أنه لا يصلح للعمل الجاد المخلص بالمنجل والفأس ، فى خدمة رجل فقير ، ومقابل أجر ضئيل ، ذلك الشخص ، الذى كان يتقلب فى أحضان النعيم بين البطالة واللذة ، ويختال فى الطرقات ، حاملا سيفه فى غمده ، وعلى وجهه نظرة التباهى والكبرياء ، ظناً منه ألا مثيل له بين الناس .

قال المحامى : لا ياسيدى ، ليس الأمر كذلك . فهذا النوع بالذات من الرجال هو النوع الجدير أكثر من غيره بتشجيعنا ، فعليهم . لكونهم ذوى نفوس أكثر سمواً ونبلا من أصحاب الحرف والزراع ، تتوقف قوة جيشنا ، عندما نضطر إلى إعلان الحرب .

قلت : عجباً يا سيدى ، فكأنك تريد أن تقول إنه من أجل الحرب يجب علينا أن نهتم اهتماماً خاصاً باللصوص . فمن المؤكد أنه طالما كان لديك هؤلاء الرجال فلن تفتقر إلى اللصوص . فليس اللصوص أقل الجند نشاطاً ، ولا الجند أقل اللصوص حماساً . فما أكثر ما يتفق هذان النوعان من النشاط . ولكن هذا الخطأ

مهما كان شائعاً بينكم ، إلا أنه ليس مقصوراً عليكم فحسب ، بل يكاد يكون منتشراً بين جميع الشعوب تقريباً .

أما فرنسا ، على وجه التحديد . فتقاسي من بلاء آخر ، أعظم خطراً . فحتى فى وقت السلم ، إن جاز تسميته سلماً ، تزدحم البلاد وتعانى من المرتزقة الذين يؤجرهم الفرنسيون بنفس الحجة التى حدت بكم إلى الاحتفاظ بهؤلاء الخدام العاطلين . فأولئك الحكماء المجانين يحسبون أن أمن البلاد كلها متوقف على وجود فصيلة قوية يعتمد عليها فى حالة تأهب دائم ، ومكونة بوجه خاص من قدامى الجند المدربين ، فهم لا يثقون إطلاقاً فى غير المدربين من الرجال . ولذا فهم مضطرون للسعى وراء الحرب حتى لا يفتقرون إلى الجند المدربين . وهكذا يقتل الناس دون سبب ، لئلا (كما يعبر سالوست[1] عن ذلك بجمال) تتبلد أيديهم وأذهانهم ، نتيجة للبطالة ، وعدم التمرين . ولكن الفرنسيين قد عرفوا مما حل بهم من أضرار مدى خطورة تربية هذه الوحوش الضارية ، وكما توضح ذلك بجلاء حالات روما وقرطاجنة وسوريا وغيرها من البلاد الكثيرة . إذ لم تدمر السلطة العليا لتلك البلاد فحسب ، بل دمرت أراضيها وقوتها ومدنها أكثر من مرة ، بواسطة تلك الجيوش التى أعدت من قبل . أما إلى أى حد يعد هذا الأمر غير ضرورى ، فهذا ما يمكن إثباته بهذا الشكل . ذلك أنه ولا حتى الجند الفرنسيين ، الذين تدربوا وتمرسوا على أعمال السلاح ، منذ نعومة أظفارهم ، يمكنهم أن يفاخروا بأنهم كثيراً ما انتصروا على جنودكم غير المدربين . ولكن لن أطيل بشأن هذا الموضوع لئلا أبدو وكأنى أتملقكم بشكل مخجل ، لا ، ليس من المفروض أن يخشى هؤلاء الرجال أنفسهم من أصحاب الحرف

---

(١) سالوست : جايوس سالوستيوس كريسبوس : مؤرخ رومانى (٨٦–٣٥ ق. م.) .

اليدوية فى مدنكم ، ولا حتى المزارعين الأفظاظ غير المدربين فى الريف هؤلاء الخدم المتعطلين للنبلاء ، إلا فى حالة أولئك الذين لا تتفق بنيتهم مع قوتهم وشجاعتهم ، أو أولئك الذين تخور قلوبهم الشجاعة نتيجة قلقهم على عائلاتهم التى تفتقر إلى المعونة .

وهكذا يمكنكم أن تروا أن ليس هناك من خطر يتهدد أولئك الخدم ذوى الأجسام ، التى كانت قوية صلبة فى وقت من الأوقات (فالسادة النبلاء لا يتنازلون إلا بإفساد المختارين من الرجال) ولكنها قد ضعفت ، نتيجة للبطالة أو وهنت ولانت نتيجة للأعمال شبه النسوية ، ليس هناك من خطر يتهدد رجولتهم لو دربوا على كسب عيشهم بالأعمال الشريفة وتدربوا على العمل الرجولى . ومهما يكن الأمر ، فالحقيقة أنى أظن أنكم لا تخدمون المصلحة العامة فى شيء باحتفاظكم فى سبيل الحرب ، التى لا تحدث إلا عندما تريدونها أنتم أنفسكم بقطيع لا حصر له من ذلك النوع من الرجال الذين يسببون المتاعب والاضطرابات فى وقت السلم ، الذى يجب أن تهتموا به أكثر من اهتمامكم بالحرب بكثير . إلا أن ذلك ليس بالضرورة هو السبب الوحيد للسرقة . فهناك سبب آخر ، سبب أرى أنه مقصور عليكم أنتم أيها الإنجليز .

قال الكاردينال : وما هو هذا السبب ؟

قلت : الحق ياسيدى ، إن أغنامكم التى اعتادت أن تكون أليفة معتدلة الطعام كما نمى إلى سمعى ، أصبحت شرهة مفترسة ، تلتهم الرجال أنفسهم وتدمر حقولا ومنازل ومدناً بأكملها وتلتهم سكانها . فى جميع تلك الأجزاء من المملكة التى تنتج أرفع أنواع الصوف ، وأغلاها بالتالى ، لا يكتفى نبلاؤكم بالدخول والأرباح السنوية ، التى كانت تدرها عليهم أراضى آبائهم وأجدادهم ،

ولا يقنعون بأن يعيشوا فى بطالة وترف لا يفيدون الدولة فى شىء ، بل يجلبون عليها الضرر الأكيد ، فلا يتركون أرضاً للزراعة ، ويقيمون الأسوار حول كل شبر من الأرض ويحولونها إلى مراع ، يهدمون المنازل ، ويدمرون المدن ، ولا يتركون مكاناً قائماً سوى الكنيسة التى يحولونها إلى حظيرة للأغنام. وكأنكم لم تفقدوا قدراً ليس بالقليل من الأرض التى تحولت إلى غابات ، وساحات صيد، فيأتى هؤلاء الرجال الطيبون ويحولون جميع الأماكن السكنية والأراضى الزراعية إلى برارى وقفار . وهكذا لكى يوصل رجل شره لا يعرف الشبع – ووباء على بلاده – بين حقل وآخر ويحيطهما بسور واحد ، إما أن يُطرد المستأجرون والزراع من الأرض ، فيبعدوا عنها إما بالغش والاحتيال، وإما بالعنف والقهر، وتنزع منهم حتى ممتلكاتهم ، وإما أن يصيبهم السأم والوهن من كثرة الظلم والأذى، فيضطرون إلى بيع كل شىء . وهكذا بوسيلة أو بأخرى ، لا مفر من أن يرحل هؤلاء البؤساء المساكين ، تاركين بيوتهم ، الرجال والنساء ، الأزواج والزوجات ، الأيتام والأرامل ، الآباء بأطفالهم الصغار ، أسر بأكملها ، كثيرة الأنفس ، قليلة العتاد . فما أكثر ما تحتاجه الزراعة من أيد . وهكذا يسيرون بخطى ثقيلة من البيوت الوحيدة التى عرفوها واعتادوها ، لا يجدون لهم مأوى آخر يذهبون إليه ويضطرون إلى بيع جميع ماتحويه بيوتهم ، مما لا قيمة كبيرة له ، حتى لو بيع فى أحسن الأوقات ، بأبخس الأثمان، عندما يطردون فجأة من بيوتهم . وهذا القليل سرعان ما ينفقونه وهم يتنقلون من مكان إلى آخر ، فماذا يفعلون ، بالله عليك ، سوى أن يسرقوا ، ثم تنفذ فيهم العدالة كما تقول فيشنقون ، أو يتحولون إلى التسول . وحتى عندئذ فسيلقى بهم فى السجن بتهمة التشرد ، لأنهم يتنقلون من مكان إلى آخر بدون عمل . وبالرغم من أنهم يرغبون أشد الرغبة فى العمل ، فليس هناك

من يكلفهم به . فلم يبق هناك شيء من الأعمال الزراعية ، التي تدربوا عليها إذ لم تبق أرض للزراعة . وراع واحد كفيل برعاية القطعان التي تتغذى على تلك الأراضي التي تحتاج زراعتها إلى كثير من الأيدى . وكان من نتائج ذلك أن ارتفع سعر الطعام ارتفاعاً شديداً في كثير من الأماكن . كذلك ارتفع سعر الصوف الخام ، لدرجة أن فقراء الإنجليز ، الذين اعتادوا غزله ونسجه ، لا يستطيعون الآن شراء شيء منه . وهكذا اضطرت أعداد كثيرة من الناس إلى التحول إلى البطالة ، ذلك أنه بعد أن تحولت كل هذه الأراضي إلى مراع مات عدد كبير من الأغنام بالطاعون ، وكأن الله قد أراد أن يعاقب هؤلاء الناس على جشعهم فأرسل بين خرافهم ذلك الداء العضال ، الذى كان يجب أن ينزل بحق على رؤوس أصحابها . وبالرغم من أن عدد الأغنام يزيد بسرعة كبيرة ، فسعر الصوف لا ينخفض قيد أنملة . ومع أنك لا تستطيع إطلاق لفظ الاحتكار على عمليات البيع التي يقوم بها أكثر من شخص واحد ، إلا أنها عمليات احتكار بالفعل، فقد تجمعت الأغنام في أيدى قلة من الأغنياء ، الذين لا تضطرهم الحاجة إلى البيع قبل أن يرغبوا في ذلك ، وهم لا يرغبون في ذلك حتى يتسنى لهم البيع بالأسعار التي يطلبونها .

ويؤدى نفس السبب إلى ارتفاع مشابه في أسعار جميع أنواع الماشية الأخرى ، خاصة وأنه بعد أن دمرت المزارع وقلت الزراعة ، لا يوجد من يهتم بتربية الماشية ، لأن هؤلاء الأغنياء لا يربون صغار الماشية كما يربون الحملان ، بل يشترونها نحيلة بأسعار زهيدة من الخارج ، وبعد تسمينها ، يبيعونها ثانية بأثمان باهظة . وفي رأيي أن النتائج الضارة لهذا النظام لم تظهر كلها بعد . ذلك أنه حتى الآن ، يرفع التجار الأسعار في الأماكن التي يبيعون فيها فقط . ولكن عندما

يرسلونها بعيداً عن الأماكن التى تربى فيها بأسرع مما يمكن تربيتها هناك ، سيقل عندئذ المعروض منها فى الأسواق التى تشترى فيها وهنا لا بد أن يشعروا بقلة الموجود لديهم . وهكذا فإن الجشع الذى لا يعرف الحدود لقلة من الناس يقضى على ذلك الشىء ذاته الذى كانت تعد من أجله جزيرتكم فى وقت من الأوقات سعيدة الحظ إلى أقصى حد . فهذا الارتفاع الكبير فى سعر الطعام يدفع الجميع إلى الاقتصاد فى بيوتهم ، وبالتالى إلى الاستغناء عن أكبر عدد من الخدم . وهنا أسألكم ، ما الذى يمكن أن يفعله هؤلاء سوى أن يتحولوا إلى التسول ، أو السرقة – وهو الطريق الذى يسلكه الشجعان منهم ؟

وفضلا عن ذلك ، فجنباً إلى جنب مع هذه الفاقة الملحة والفقر المدقع ستجد الترف المفرط والإسراف العابث . فليس خدام النبلاء وحدهم هم الذين يرتدون الملابس الفاخرة اللافتة للأنظار ، ويفرطون ، إفراطاً زائداً فى الطعام ، بل يشاركهم فى ذلك أصحاب الحرف أيضاً ، بل وعمال الزراعة أنفسهم ، وجميع الطبقات على حد سواء فى الواقع . ثم هناك تلك المواخير وبيوت الفسق ، وتلك الأماكن التى لا تقل شراً عنها ، ألا وهى الحانات والمشارب – ألا تبتلع هذه الأماكن وجميع تلك الأنواع من ألعاب الحظ الملتوية ، وألعاب النرد ، والورق ، والطاولة ، والرماية ، نقود مرتاديها وتؤدى بهم إلى السرقة ؟ تخلصوا من هذه الأوبئة المخربة . سنوا قانوناً بأن كل من يهدم مزرعة أو قرية من القرى الزراعية ، يعيد إقامتها أو يسلمها لمن يعيد إقامتها ، ويرغب فى بنائها . حدوا من حق الأغنياء فى شراء كل شىء ، ومن ذلك الامتياز الذى يخول لهم ممارسة نوع من الاحتكار لمصلحتهم . لا تسمحوا لهذا العدد الكبير أن ينشأ عاطلا ، أعيدوا الزراعة إلى سابق عهدها ، وأحيوا صناعة النسيج مرة أخرى ، حتى يكون

هناك عمل شريف يستوعب بشكل مفيد هذا الجمع المتعطل ، سواء أولئك الذين دفعهم الفقر لأن يصبحوا لصوصاً ، أو أولئك الذين أصبحوا متشردين أو خداماً كسالى ، ومن المحتمل فى كلتا الحالتين أن يتحولوا إلى لصوص .

فمما لا شك فيه أنكم إن لم تعالجوا هذه الشرور ، فمن العبث أن تفاخروا بالعدالة التى تقضون بها عقاباً للسرقة . فمثل هذه العدالة تتسم بالمظهرية أكثر مما تتسم بالعدل أو الفائدة . فعندما تسمحون لشبابكم أن ينشأ نشأة سيئة ، ولخلقهم أن يفسد ، منذ سنيهم الأولى ، شيئاً فشيئاً ، ثم تعاقبونهم بالطبع ، عندما يقترفون وهم رجال راشدون ، تلك الجرائم ذاتها التى دلت الدلائل منذ أن كانوا صبية على أنهم سيقترفونها ، فإنى أسألكم ما الذى تفعلونه سوى أن تخلقوا اللصوص أولا ثم تقيموا أنفسكم قضاة لعقابهم فيما بعد ؟

وبينما كنت ألقى هذا الخطاب كان المحامى مشغولا يستعد للرد علىّ وقد أصر على الأسلوب المتبع لدى المتحاجين ممن هم أكثر حرصاً على ترديد ما قيل عن الرد عليه ، فما أعظم مايقدرون قوة ذاكرتهم .

قال : حقًّا ، لقد أحسنت القول يا سيدى ، علماً بأنك لست سوى شخص غريب عن البلاد ، يسمع شيئاً عن هذه الأمور أكثر مما يعرفها عن قرب وهو ما سأوضحه فى كلمات قليلة . وسأردد أولا ما ذكرته بنفس النظام ، ثم أبين مواضع الخطأ الذى أدى بك إليها جهلك بأحوالنا ، وفى النهاية سأدحض جميع حججك بحيث لا تقوم لها قائمة . وهكذا سأبدأ أولا من حيث وعدت . يبدو لى أن أربعة أشياء قد . . .

وهنا قاطعه الكاردينال قائلا : لتلزم الصمت ، إذ لا يبدو لى من المحتمل أنك سترد ردًّا موجزاً بعد مثل هذه المقدمة . ولذا فسنعفيك من مشقة الرد الآن ،

على أن نحتفظ بحقنا فى ذلك فى لقائنا التالى ، الذى أرجو أن يكون فى الغد ما لم يكن هناك شاغل يشغلك أو يشغل روفائيل . أما الآن ، ياعزيزى روفائيل فإنى شغوف لأن أسمع منك لماذا ترى أن السرقة لاتستحق عقوبة الإعدام ، وأية عقوبة أخرى ترى فرضها بحيث تكون أكثر فائدة للصالح العام . فأنى واثق من أنه ولا حتّى أنت تعتقد أن السرقة يجب أن تترك دون عقاب . فإذا ما كانت عقوبة الإعدام لا توقف أولئك المجرمين الآن عن السرقة، فأى عنف أو خوف سيردعهم عن السرقة ، إذا ما أمنوا على حياتهم ؟

قلت : أؤكد لك — أيها الأب المبجل الكريم ، أنى لا أحسبه من العدل فى شىء أن يفقد الإنسان حياته لأن شخصاً منى بضياع بعض ماله . فرأيى الشخصى هو أن جميع متاع الدنيا لايمكن أن يساوى حياة الإنسان . أما إذا قالوا إن العقوبة تفرض على نقض العدالة وكسر القوانين، وليس على سرقة المال ، فيمكن أن يقال إن هذا العدل المتطرف خطأ بالغ . إذ يجب علينا ألا نوافق على هذه القوانين المانليانية[1] الصارمة التى تسمح باستلال السيوف ، إذا ما اقترف خطأ بسيط ، ولا تلك الأحكام الرواقية التى تساوى بين الأخطاء جميعاً بحيث لافرق بين قتل رجل وسرقة قطعة من النقود منه ، بينما ، ، إذا كان للعدالة معنى ، فلا يوجد بين الحالتين أى وجه شبه أو ارتباط .

يأمرنا الله ألا نقتل ، فهل نقتل إنساناً بهذه السهولة لأنه أخذ قطعة من النقود ؟ فإذا قيل إن النهى الإلهى عن القتل لا يطبق حين يجيز القانون البشرى القتل ، فما الذى يمنع ، قياساً على ذلك ، من أن يتفق الناس فيما بينهم على الحد الذى

(١) المانليانية نسبة إلى الدكتاتور لوسيوس مانليوس (٣٦٣ ق.م) الذى لقب بالمستبد نظراً لصرامته وقسوته .



يسمح فيه بهتك العرض والزنا والتزوير ؟ لقد حرم الله على الإنسان لا قتل الغير فحسب بل قتل الذات أيضاً . ولكن يتفق الناس ، بإجماع الآراء ، على حالات بعينها يجيزون فيها أن يقتل رجل آخر . ولكن إذا كان لهذا الاتفاق بين بنى البشر مثل هذه القوة التى تعفى الاتباع النفعيين من الالتزام بالوصية الإلهية ، بالرغم من أن الله لم يسمح بأى استثناء ، فيقتلون أولئك الذين قضى عليهم القانون البشرى بالإعدام ، ألا يكون الحكم الإلهى إذن سارى المفعول فقط فى حدود ما يسمح به قانون البشر ؟ فإذا ما كان الأمر كذلك فستكون النتيجة جرياً على ذلك أن يقرر بنو البشر فى جميع الأمور الحد الذى يناسبهم أن تطاع عنده وصايا الله . وأخيراً ، فإن شريعة موسى ، بالرغم من صرامتها وشدتها ، وهى شريعة فرضت على العبيد ، من جنس عنيد صلب الرقاب ، كانت تعاقب السرقة بالغرامة وليس بالموت . ولا يتبادر إلى الأذهان أن الله قد منحنا فى قانون الرحمة الجديد[1] ، الذى يصدر فيه الأوامر كأب لأبنائه ، قدراً أكبر من الحرية ليقسو الواحد منا على الآخر .

تلك هى الأسباب التى تدعونى إلى الاعتقاد بأن هذه العقوبة غير مشروعة . وفضلا عن ذلك ، فمن المؤكد أنه ما من شخص لا يعرف كم من المضحك والضار بالدولة أن تفرض نفس العقوبة على اللص والقاتل . إذ يرى اللص أنه لا يقل تعرضه للخطر إن حكم عليه بأنه لص عما إذا حكم عليه بأنه قاتل ، فهذه الفكرة وحدها كفيلة بأن تدفعه إلى قتل الرجل الذى كان سيكتنى بسرقته . وفضلا عن أنه لن يتعرض لخطر أكبر إذا أمسك به ، فإنه سيكون أكثر أمناً ، بالتخلص من الرجل وأقوى أملا فى تغطية جريمته إذا لم يترك وراءه من يروى أحداثها .

(١) قانون العهد الجديد القائم على الحب والرحمة بخلاف العهد القديم القائم على العقوبة .

وهكذا ، بينما نحاول إرهاب اللصوص بالقسوة المتطرفة ، فإننا نغريهم على الفتك بالمواطنين الصالحين .

أما بخصوص السؤال المتكرر عن نوع العقوبة التي تعد أكثر ملاءمة ، فمن الأسهل ، في رأيي أن نجد عقوبة أفضل عن أن نجد عقوبة أسوأ . فلماذا نشك في أن الطريقة السوية لعقوبة الجرائم هي تلك التي كانت أثيرة من قديم الزمان لدى الرومان ، أعظم الناس خبرة بشئون الدولة . فعندما كان يدان الرجال بجرائم بشعة ، كان يحكم عليهم بالعمل طوال حياتهم في المحاجر وبالبحث عن المعادن في المناجم ، وبأن يظلوا دائماً موثقين بالأغلال . ولكني في هذا الصدد لا أفضل قوانين أي بلد من البلاد عن تلك القوانين التي لاحظتها ، أثناء ترحالي في العالم ، في بلاد الفرس بين أولئك القوم الذين يعرفون بالبوليليريت[١] وهم شعب عظيم ذو حكم سديد ، وفيما عدا التزامهم بدفع جزية سنوية لشاه فارس العظيم ، هم أحرار مستقلون ، تحكمهم قوانينهم الخاصة بهم . ولكن لبعدهم عن البحر ، ولأن الجبال تحيط بهم وتكاد تحاصرهم من كل جانب ، فهم يكتفون تماماً بثمار أرضهم الخصبة ، ولذلك فقلما يقومون بزيارة البلاد الأخرى أو يستقبلون أحداً من الخارج في بلادهم . وطبقاً لسياستهم القوية القديمة ، لا يحاولون توسيع رقعة بلادهم ، ويدافعون بسهولة عن أرضهم ضد أي اعتداء بواسطة جبالهم ، والجزية التي يدفعونها لرئيسهم . ونتيجة لتحررهم الكامل من الأعمال الحربية ، يحيون حياة تتسم بقدر أكبر من الراحة عنها

---

(١) البوليليريت (Polylerites) : شعب خيالي مثل اليوتوبيين : والاسم بمعنى . « الكثيري الكلام الفارغ » .

بالفخامة ، ومن السعادة عنها بالشهرة أو ذيوع الصيت . فلا أظن أنهم معروفون ولو اسما ، إلا لأقرب جيرانهم .

والمتبع فى بلادهم ، أن يرد أولئك الذين تثبت عليهم تهمة السرقة ما سرقوه إلى أصحابه ، وليس للأمير كما هو متبع فى البلاد الأخرى ، لأنهم يعتبرون أن حقه فى الشيء المسروق لا يزيد على حق اللص ذاته أما إذا كان الشيء المسروق قد فقد أو بدد ، فتحصل قيمته من ممتلكات اللصوص ، ويدفع الباقى كاملا لزوجاتهم وأهلهم . أما اللصوص أنفسهم فيحكم عليهم بالأشغال الشاقة . وما لم تكن السرقة فادحة ، فلا يحكم عليهم بالسجن ، ولا يوثقون بالأغلال ، ولكنهم يتركون أحراراً دون قيود ليعملوا فى الأشغال العامة. أما أولئك الذين يرفضون العمل أو يتكاسلون ، فلا يوثقون بالأغلال ، بل يجبرون على العمل بالسياط ، فإذا ما عملوا بهمة ونشاط ، فلا خشية عليهم من لوم أو أذى . وكل ما يخضعون له من قيود هو أنه فى كل ليلة ، بعد أن تتلى أسماؤهم ، تغلق عليهم حجرات نومهم . وفيما عدا العمل المستمر ، فحياتهم خالية من المشقات فلأنهم يخدمون الدولة ، يطعمون طعاماً جيداً على نفقة الشعب ، وإن اختلفت الطريقة من مكان إلى آخر . فى بعض الأماكن يجمع ما ينفق عليهم من التبرعات . وبالرغم من أن هذه الطريقة غير مضمونة ،إلا أن الشعب البوليليريتى شعب طيب القلب لدرجة أنه لا توجد طريقة أخرى تسد هذه الحاجة بطريقة أكثر سخاء . وفى أماكن أخرى يخصص بعض الدخل العام لتغطية هذه التكاليف . أما فى غير هذه الأماكن فيدفع الجميع ضريبة شخصية لهذه الأغراض .

وفى بعض أجزاء هذه البلاد أيضاً ، لا يقوم هؤلاء المحكوم عليهم (فهذا هو الاسم الذى يطلق على هؤلاء الأشقياء) بالأعمال العامة . ولكن كلما احتاج

فرد عادى إلى عامل أجير ، يذهب إلى السوق وهناك يستأجر واحداً منهم مقابل أجر يومى محدد ، أقل قليلا مما كان سيدفعه للعامل الحر . وفضلا عن ذلك فمن المسموح به لصاحب العمل أن يعاقب الأجير بالسياط إذا تكاسل فى عمله . ونتيجة لذلك فهم لا يتوقفون قط عن العمل . وإلى جانب أنهم يكسبون عيشهم ، يأتى كل منهم يومياً بشىء من المال إلى الخزانة العامة . ويرتدى الجميع على حد سواء ملابس من نفس اللون . أما شعر رءوسهم فلا يحلق تماماً ، بل يقص بشكل مستدير فوق الأذنين ويقطع طرف أذن منهما . ويمكن لأهلهم أن يقدموا لهم الطعام والشراب والملابس ذات اللون المطلوب . أما تقديم المال لهم فعقوبته الموت لعاطيه وآخذه كليهما . ولا يقل الأمر خطورة إذا أخذ الرجل الحر مالا لأى سبب من الأسباب من شخص محكوم عليه ، أو إذا لمس العبد (فذلك هو الاسم الذى يحمله المحكوم عليه) سلاحاً . وعبيد كل منطقة يحملون شارة مميزة ، يعد نزعها جريمة عقوبتها الموت ، كما يعد كذلك أيضاً الظهور خارج حدود المنطقة التابعين لها أو التحدث مع عبيد من منطقة أخرى . وفضلا عن ذلك فتفكير أحدهم فى الهرب لا يقل خطورة عن هربه بالفعل . نعم ، وعقوبة التستر على مثل هذه الخطة هى الموت للعبد والرق للرجل الحر . وعلى العكس من ذلك ، ترصد المكافآت لمن يكشفون أمرها : مبالغ من المال للرجل الحر ، والحرية للعبد ، ولهما معاً العفو والغفران عما كان بصدد الاشتراك فيه . والغرض من ذلك ألا تكون مواصلة الخطة الشريرة أكثر أمناً من الرجوع عنها .

ذلك هو القانون والنظام المتبع بخصوص هذا الأمر كما بينته لكم . وبوسعكم أن تروا بسهولة مدى إنسانيته وتميزه عن غيره . فالهدف من توقيع العقوبة هو القضاء

على الرذائل وإنقاذ الرجال ، عن طريق معاملتهم معاملة تجعلهم يصبحون بالضرورة صالحين ويعملون طوال ما بقى من حياتهم على إصلاح ما سببوه من أضرار من قبل ، وفضلا عن ذلك ، فإنه لا يكاد يخشى قط من عودتهم إلى طرق سلوكهم القديمة الشريرة ، لدرجة أن المسافرين الذين يقومون برحلات يحسبون أنفسهم أكثر ما يكونون أمناً، إذا اصطحبوا بعض هؤلاء العبيد كمرشدين لهم يستبدلونهم بغيرهم فى كل منطقة يمرون بها. ذلك أن هؤلاء لايحملون شيئاً يمكنهم من السرقة . فهم لا يحملون سلاحاً ، وإن وجد معهم مال ، فسيجعل ذلك اكتشاف الجريمة أمراً مؤكداً ، أما من يكتشف أمره منهم ويمسك فيجد العقوبة فى انتظاره ، كما أنه لا أمل مطلقاً فى الفرار إلى مكان أمين . إذ كيف يتسنى لرجل يختلف كل جزء من ملبسه عن ملبس غيره من الرجال أن يهرب بدون أن يلاحظه أحد ، إلا إذا هرب عارياً ؟ وحتى إذا تسنى له ذلك ، فستوشى به أذنه (وتدل عليه استدارة شعر رأسه) .

ولكن ألا يخشى على الأقل من أن يتفقوا معاً ويتآمروا ضد الدولة ؟

لا ، لا ، بالتأكيد . وهل تستطيع أية منطقة أن يراودها الأمل فى النجاح بدون التقرب إلى جماعات العبيد فى مناطق أخرى عديدة وإغرائها بالاشتراك معها ؟ وهذا أمر يكاد يكون مستحيلا ، فمن المحظور عليهم أن يتقابلوا أو يتحادثوا أو أن يحيي الواحد منهم الآخر . وبالأحرى فلن يجرؤوا على كشف مؤامرتهم لزملائهم من العبيد . فهم يعرفون أن فى ذلك خطورة على من يتستر على مثل هذه المؤامرة ، وفائدة كبيرة لمن يكشفها . ومن ناحية أخرى لا يوجد بينهم من يفقد الأمل تماماً فى استرداد حريته فى النهاية ، إذا تقبل العقوبة المفروضة عليه بروح الطاعة والخضوع ، وأظهر من الدلالات ما يشير إلى أنه سيقوم سلوكه فى مستقبل

حياته . وبالفعل ، يسترد عدد منهم كل سنة الحرية التى استحقوها بصبرهم وخضوعهم .

وبعد أن فرغت من هذا الكلام ، أضفت أننى لا أرى سبباً يحول دون استخدام هذا النظام حتى فى إنجلترا ومن أن يكون تنفيذه أكثر نفعاً بكثير عن تلك العدالة التى امتدحها معارضى ، رجل القانون ، كل هذا المديح . فأجاب المحامى : لا ، لا يمكن لهذا النظام أبداً أن يتبع فى إنجلترا بدون أن يزج بالدولة فى أزمة خطيرة جداً . قال هذا وهو يهز رأسه ويمط شفتيه ثم لاذ بالصمت . وصدق جميع الحاضرين على هذا القول .

ثم قال الكاردينال : ليس من السهل أن نتكهن بأن هذا النظام سيكون صالحاً أولا مادام لم يوضع مطلقاً موضع التجريب : فإذا ما حدث بعد النطق بحكم الإعدام ، أن أمر الملك بتأجيل التنفيذ ، وبعد تحديد حق اللجوء ، أخذنا بتجريب هذا النظام ، فعندئذ إذا أثبت نجاح التجربة فائدته ، سيكون من الخير أن يقره القانون . أما إذا فشلت التجربة فلن يكون إعدام أولئك الذين سبق أن حكم عليهم بذلك ، عندئذ ، أقل منفعة للصالح العام ، ولا أكثر ظلماً لهم مما لو نفذ الحكم الآن وعلى التو . وفى الوقت نفسه ، لا يمكن أن تنطوى التجربة على أى خطر . وفضلا عن ذلك ، فإنى واثق من أنه يمكن تطبيق نفس الطريقة فى معاملة المتشردين ، بعد أن فشلنا ، بالرغم من التشريعات المتكررة التى صدرت بشأنهم ، فى إحراز أى تقدم فى هذا الأمر .

وعندما توقف الكاردينال عن الكلام ، تسابق الجميع فى الثناء على ذلك الذى قابلوه بالاحتقار عندما صدر عنى ، وخاصة الجزء الخاص بالمتشردين ، فقد كان ذلك هو ما أضافه الكاردينال . وأجد نفسى فى حيرة من أمرى لا أدرى إن

كان من الأفضل أن أكتم ما تلا ذلك ، لأنه كان مضحكاً تماماً ، أو أكشف عنه ، ولكنى سأرويه على أية حال ، فلم يكن شيئاً فى حد ذاته وإن كان متصلا إلى حد ما بالموضوع الذى نتحدث فيه .

فقد حدث أن كان هناك أحد المتطفلين ، وأراد أن يتظاهر وكأنه يقلد مهرجاً ، ولكن تقليده كان قريب الشبه بالشيء الذى يقلده لدرجة أن بدا هو المهرج الحقيقى . كان يرمى من وراء دعاباته التى كان يطلقها فى غير وقتها إلى إثارة الضحك ، ولكنه كثيراً ما كان يصبح هو ، بدلا من دعاباته ، مثاراً للضحك . ومع ذلك فقد تفوه هذا الشخص أحياناً ببعض التعليقات التى أصابت المرمى ، فدلل بذلك على صحة المثل القائل بأن من يداوم لعب النرد ، قد يصيب — إن عاجلا وإن آجلا — شيئاً من الحظ . فقد تصادف أن قال أحد الضيوف : إنى قد اقترحت نظاماً سليما لمعالجة أمر اللصوص ، وقدم الكاردينال احتياطات أيضاً بشأن المتشردين ، ولم يبق سوى أن تتخذ الدولة إجراءات بشأن أولئك الأشخاص الذين أصابهم المرض أو كبر السن بالفقر وأقعدهم عن العمل لكسب عيشهم . قال المتطفل : اسمحوا لى وسأتولى أنا إصلاح هذا الأمر كذلك . فأنا شديد الرغبة فى أن أبعد هذا النوع من الناس عن ناظرى ، فكثيراً ما ضايقونى بتوسلاتهم الدامعة وهم يستجدوننى نقوداً ، وإن لم يفلحوا قط فى اختيار النغمة التى تستدرج قطعة واحدة منها من جيبى . فلا يخرج الأمر أبداً عن أمرين : إما أنى لا أريد أن أعطى شيئاً وإما أنى لا أستطيع ذلك ، إذ لا شيء عندى أعطيه . أما الآن فأصبحوا عقلاء . فعندما يروننى ماراً ، لا يوجهون إلى كلمة واحدة حتى لا يذهب تعبهم سدى . فلم يعودوا يتوقعون شيئاً منى — لا ، بحق السماء — لا

يتوقعون منى أكثر مما يتوقعون من كاهن دنيوى[1] ، ولو كان بيدى الأمر ، لأصدرت قانوناً يقضى بأن يوزع كل أولئك المتسولين بين الأديرة البندكتية وأن يصبح الرجال إخوة بالأديرة كما يسمونهم وتصبح النساء راهبات .

وهنا ابتسم الكاردينال معتبراً الأمر مجرد دعابة تؤخذ مأخذ الهزل ، أما الباقون فأخذوه مأخذ الجد . إلا أن عالماً فى اللاهوت وكان ناسكاً أيضاً ، سر سروراً بالغاً بهذه الدعابة التى تنال من القسوس والرهبان ، فأخذ هو أيضاً فى الدعابة ، بالرغم من كونه عادة جاداً لدرجة الصراحة تقريباً . قال : لا ، لن تتخلصوا ولا حتى بهذه الطريقة من المتسولين ، إلا إذا دبرتم أمرنا ، نحن النساك أيضاً .

فأجاب المتطفل : ولكن هذا أمر قد دبر بالفعل ، فقد دبر قداسة الكاردينال أمركم خير تدبير عندما قرر حبس جميع المتشردين وجرهم إلى العمل ، فأنتم أسوأ المتشردين على الإطلاق .

وعندما رأت الجماعة أن الكاردينال لم يبد اعتراضاً على هذه الدعابة أكثر مما أبدى على سابقتها ، أقبل الجميع – فيما عدا الناسك – على مواصلة المزاح . أما هو – ولا عجب فى ذلك – فغضب ولما تناثرت من حوله الدعابات الساخرة ، أخذ يرغى ويزبد حتى لم يعد قادراً حتى عن الامتناع عن سب المهرج . نعته بالوغد ، والمفترى ، وابن الهلاك ، مستشهداً أثناء ذلك بتهديدات الكتاب المقدس الرهيبة . وعندئذ أخذ المهرج الساخر فى السخرية بحق ، فقد كانت تلك هى صناعته . قال : هدئ من روعك ، أيها الناسك الطيب فإنه مكتوب « بصبركم اقتنوا

---

(١) كاهن دنيوى : يرى البعض أنه من المحتمل أن تكون الإشارة إلى الكاهن فى قصة السامرى الصالح : إنجيل لوقا ١٠ : ٣١ .

أنفسكم »[1] .

فقال الناسك ، وسأنقل إليكم كلماته حرفياً ، لست غاضباً ، أيها الشقى أو على الأقل لست أرتكب إثما بغضبى ، إذ يقول صاحب المزامير : « ارتعدوا ولا تخطئوا »[2] . وعند هذه النقطة نصح الكاردينال الناسك بلطف أن يهدئ من روعه .

فأجاب الناسك : لا يا سيدى اللورد ، إنى لا أتحدث إلا عن غيرة صالحة ، وهذا هو واجبى . فالرجال القديسون يتسمون بالغيرة الصالحة . ومن هنا تقول التوراة : « غيرة بيتك أكلتنى » ،[3] وتدوى الكنائس بهذه الترنيمة . فقد شعر أولئك الذين سخروا من إليشع وهو فى طريقه إلى بيت الله بغيرة الرجل الأصلع[4] ، كما قد يشعر بها هذا الشخص الساخر المزرى السفيه .

قال الكاردينال : ربما كان سلوكك هو السلوك اللائق ، ولكنى أظن أن سلوكك سيكون على أية حال أكثر حكمة ، وإن لم يكن أكثر قدسية ، إذا امتنعت عن مقارعة ذكائك بذكاء شخص أبله ، وإثارة مناقشة حمقاء مع مهرج .

---

(١) الإشارة إلى لوقا ٢١ : ١٩

(٢) الإشارة إلى المزامير ٤ : ٤

(٣) الإشارة إلى المزامير ٦٩ : ٩

(٤) الإشارة إلى ملوك الثانى ٢ : ٢٣ ، إلى قصة أليشع النبى الذى سخر منه صبية صغار وهو فى طريقه إلى بيت إيل (بيت الله) بقولهم : « اصعد ياأقرع . اصعد ياأقرع » فالتفت إلى ورائه ولعنهم باسم الرب . فخرجت دبتان من الوعر وافترستا منهم اثنين وأربعين ولدا .

أجاب : لا ياسيدى اللورد ، لن أكون أكثر حكمة لو فعلت ذلك . يقول سليمان ذاته ، وهو أحكم الرجال ، « جاوب الجاهل حسب حماقته »[(١)] ، وهذا ما أفعله الآن . إنى أريه الهوة التى سيتردى بها إن لم يأخذ الحذر ، فإذا كان الكثيرون الذين احتقروا إليشع قد أحسوا بغيرة الأصلع ، الذى لم يكن سوى أصلع واحد ، فكم بالأحرى سيشعر بهذه الغيرة شخص واحد يحتقر الكثير من النساك ، الذين يوجد بينهم صلع كثيرون[(٢)] . وفضلا عن ذلك ، فلدينا البيان البابوى الرسمى الذى يقضى بالحرمان على كل من يهزأ بنا أو يحتقرنا .

ولما رأى الكاردينال أن الأمر لن ينتهى عند هذا الحد ، أشار للمهرج ، بحركة من رأسه أن يترك المكان ، وحول دفة الحديث وجهة أخرى . وما لبث أن ترك المائدة ، وذهب لسماع الالتماسات التى تقدم بها أصحابها ، فانفض بذلك مجلسه معنا .

وهكذا ترى يا عزيزى مور كيف أثقلت عليكم بهذه القصة الطويلة إلى هذا الحد . والتى كنت دون شك سأخجل من سردها بهذا الإسهاب ما لم تطلبوا إلى ذلك بكل إصرار وما لم يبدُ من إنصاتكم لى وكأنكم لا تريدون أن أحذف منها شيئاً . ولكنى كنت مضطرًا لسرد هذا الحديث ، ولو بشىء من الإيجاز ، لأكشف لكم عن موقف أولئك الذين رفضوا ما قلته أول الأمر ولكنهم مالبثوا ، عندما لم يبد الكاردينال اعتراضاً عليه ، أن أقروه هم أيضاً ، متملقينه لدرجة أنهم كادوا أن يأخذوا مأخذ الجد دعابات المتطفل ، التى لم يرفضها سيده لأنه أخذها على سبيل

---

(١) الأمثال : ٢٦ : ٥ .

(٢) يحلق الرهبان والنساك قمة رءوسهم فيبدون كالصلع .

الدعابة . وهكذا يمكنكم أن تحكموا من رد الفعل هذا مدى الاهتمام القليل الذى سيوليه رجال البلاط لى ولمشورتى .

قلت : أؤكد لك ياعزيزى روفائيل أنى سررت سروراً عظيماً لسماعك ؛ فقد اتسم كل ما قلته بالحكمة والعقل . وفضلا عن ذلك ، فقد شعرت وأنا أنصت إليك لا أنى فى بيتى وبلدى فقط ، بل كأننى عدت صبياً مرة أخرى . فقد ذكرتنى بهذه الطريقة اللطيفة بذلك الكاردينال ذاته الذى نشأت صبياً فى بلاطه . فبالرغم من أننى أحببتك حباً جماً من قبل ، إلا أن إخلاصك الشديد لهذا الرجل ، قد جعل حبى لك يزداد إلى درجة لا يمكن تصديقها . ولكنى ما زلت بالرغم من كل ذلك ، لا أستطيع بحال من الأحوال أن أغير من اعتقادى بأنك ، إذا أمكنك أن تقتنع بعدم الابتعاد عن بلاط الملوك ، فستؤدى بما تقدم من مشورة خدمة جليلة للصالح العام . ففى هذا يتمثل أهم جانب من جوانب واجبك وواجب كل رجل فاضل . يرى كاتبك الأثير ، أفلاطون ، أن الدول لن تتحقق لها السعادة فى نهاية الأمر إن لم يصبح الفلاسفة ملوكاً ، أو يقبل الملوك على دراسة الفلسفة . فما أبعد هذه السعادة إن لم يتنازل الفلاسفة ولو بتقديم المشورة للملوك .

فأجاب : ليس الفلاسفة بهذه الغلظة ، بحيث لا يقدمون المشورة بكل سرور . والواقع أن كثيرين منهم قد قاموا بذلك بالفعل فى الكتب التى نشروها[١] ، لو كان الحكام على استعداد لتقبل مشورتهم السديدة . ولكن مما لا شك فيه

---

(١) من أمثلة ذلك أعمال أفلاطون وأرسطو وإيزوقراط وبلوتارخوس وزينوفون وشيشرون فى السياسة فى العصور القديمة ، وأعمال توماس الأكوينى وإيجيديوس رومانوس فى العصور الوسطى . وبونتانو وبوده وإرازموس فى عصر النهضة .

أن أفلاطون قد أدرك مقدماً أنه ما لم يتجه الملوك أنفسهم إلى دراسة الفلسفة فلن يقروا مطلقاً مشورة الفلاسفة الحقيقيين لأنهم قد تشبعوا وأفسدوا بالأفكار الخاطئة . وقد أدرك أفلاطون هذه الحقيقة من تجربته الخاصة مع الملك ديونيسيوس[١] . فإذا ما كنت لأقترح بعض الإجراءات النافعة لملك من الملوك ، محاولا أن أقتلع من روحه بذور الشر والفساد ، ألا تظن أنى سأطرد نتيجة لذلك ، أو أصبح مثاراً للسخرية ، فلنفرض مثلا أنى فى بلاط ملك فرنسا[٢] وأجلس فى مجلسه الخاص ، أثناء جلسة غاية فى السرية ، بينما حلقة من أمهر مستشاريه يرأسها الملك ذاته ، تقدح زناد فكرها للتوصل إلى عملية من العمليات الماكرة التى يتمكن الملك بواسطتها من الاحتفاظ بميلانو فى قبضته، وإعادة نابولى الشريدة إليه مرة أخرى ، ثم من الانتصار على أهل البندقية ، وإخضاع إيطاليا بأكملها لحكمه ، ثم كيف يستولى على أقاليم فلاندرز ، وبرابانت[٣] ، وأخيراً بورجنديا كلها ، وغيرها أيضاً من الشعوب التى راودته فكرة اغتصابها من قبل . وفى هذا الاجتماع ، يشير الواحد بإبرام معاهدة صلح مع أهل البندقية ، تستمر طالما يجدها الملك مواتية لأغراضه ، بحيث يكشف لهم عن أهدافه ، بل ويمنحهم جزءاً من الغنيمة التى ظفر بها ، ثم يعود فيستردها ، عندما يتم له كل ما يريد . ويوصى الآخر باستئجار البيادة الألمان[٤] . ويرى آخر

---

(١) ديونيسيوس الابن : خلف أباه حاكماً مستبداً لسيراكوز فى ٣٦٧ ق. م وكان كسولا عابثاً استقدم أفلاطون لتثقيفه ولكنه ما لبث أن غضب عليه ، فتركه أفلاطون بعد أن فشل فى إصلاحه .

(٢) الإشارة إلى لويس الثانى عشر (١٤٩٨ – ١٥١٥) .

(٣) فلاندرز : هولندا ، وبرابانت واحدة من أهم مقاطعاتها فيما مضى .

(٤) « فرسان الرمح » حاربوا مرتزقة إلى جانب الفرنسيين . واشتهروا خاصة فى معركة رافينا فى عام ١٥١٢ ضد الإسبان .

استمالة السويسريين [١] بالمال . وينصح آخر باسترضاء جلالة الإمبراطور [٢] بالذهب وبهدية مقبولة . بينما يرى آخر التوصل إلى تسوية مع ملك أراجون [٣] ، وإعادة مملكة نافار [٤] إليه ، ضماناً للسلام . ويأتى آخر باقتراح هزيل عديم القيمة ، فينصح باصطياد أمير كاستيل بالتلويح له بعلاقة نسب [٥] ، واستمالة بعض نبلاء قصره إلى جانب الفرنسيين بمنحهم معاشاً ثابتاً . ذلك بينما يواجههم أخطر سؤال على الإطلاق وهو ماذا يفعلون بملك إنجلترا؟ إنهم جميعاً متفقون على إجراء مفاوضات للصلح ، وعلى تدعيم تلك العلاقة الواهية فى أحسن الظروف بأقوى الدعامات ، وعلى أن يُدعى الإنجليز فى العلانية أصدقاء ، بينما ينظر إليهم فى السر كأعداء . ولذا فيجب أن يظل الإستكلنديون على أهبة الاستعداد ، مجهزين حتى إذا دعت الحاجة ، أطلقوا على الإنجليز عند أول بادرة تصدر منهم . وفضلاعن ذلك يشجع أحد النبلاء المنفيين سرًّا — إذ تمنع المعاهدات القيام بذلك علناً — على الاستمرار فى المطالبة بالعرش ، بحيث يمكن بهذه الحيلة أن يأمنوا جانب ملك لا يولونه بالفعل ثقتهم . فى مثل هذا الاجتماع إذن ، حيث تبذل جميع الجهود ، ويتبارى كل هذا العدد من الأشخاص المرموقين فى تقديم الاقتراحات ذات الصبغة العسكرية ، ما الذى يحدث ، إذا ما وقف شخص لا أهمية له مثلى ونصح بأن يسلكوا مسلكاً مخالفاً . لنفرض أنى اقترحت أن يتركوا إيطاليا

---

(١) اشتهر السويسريون كمرتزقة بيادة .

(٢) الإشارة إلى ماكسيميليان إمبراطور النمسا .

(٣) ملك أراجون فرديناند : ، والد كاثرين أوف أراجون ، زوجة هنرى الثامن الأولى.

(٤) نافار : مقاطعة على الحدود بين فرنسا وإسبانيا .

(٥) يبدو أن الإشارة هنا إلى المفاوضات الحادثة عندئذ بشأن زواج تشارلز أمير كاستيل من صغرى بنات لويس الثانى عشر واهتمام تشارلز ووزرائه الألمان بذلك .

وشأنها ، وأنه يجب أن نبقى فى بلادنا لأن مملكة فرنسا وحدها تكاد تكون أكبر من أن يحكمها رجل واحد ، ولذا يجدر بالملك ألا يحلم بإضافة أقاليم أخرى لسلطانه . ثم لنفرض أنى وضعت أمامهم قرارات أولئك القوم الأكوريين [١] الذين يعيشون على الجانب الجنوبى من الساحل الجنوبى الشرقى المقابل لجزيرة يوتوبيا .

فقد حدث أن دخل هؤلاء الأكوريون الحرب ليفوزوا لملكهم بمملكة أخرى كان يطالب بها معلناً أنه وريثها الشرعى نتيجة لنسب قديم . وبعد أن حصلوا عليها وجدوا أنهم سيتكبدون من المتاعب فى سبيل الاحتفاظ بها ما لا يقل عما تكبدوا فى سبيل الحصول عليها . كما وجدوا أن بذور الثورة فى الداخل من ناحية ، والغزوات الآتية من الخارج من ناحية أخرى ، لم تكن تنقطع بين رعاياهم الجدد المغلوبين على أمرهم . وأدركوا أنهم سيضطرون إلى القتال المستمر إما من أجل هؤلاء الرعايا وإما لمحاربتهم ، وإلى الاحتفاظ نتيجة لذلك بجيش دائم التأهب ، هذا بينما كانت بلادهم تنهب ، وأموالهم تحمل إلى خارج البلاد ، ودماؤهم تراق فى سبيل قليل من المجد الذى يحرزه غيرهم . أما إذا انتهت الحرب فلم يكن الأمن أكثر استتباباً من ذى قبل ، فقد أفسدت الحرب أخلاق الشعب وأصبحت شهوة السرقة طبيعة ثانية ، وازداد الاستهتار الإجرامى نتيجة لعمليات القتل فى الحرب ، ولم يعد للقانون حرمة . كل ذلك لأن الملك — وقد أرهقه حكم مملكتين — لم يستطع الاضطلاع بمسئوليته كما ينبغى نحو أى منهما . وفى النهاية عندما أعيتهم السبل لوضع حد لكل هذه الشرور ، تشاوروا فيما بينهم ،

---

(١) الأكوريون : كلمة مشتقة من اليونانية بمعنى « قوم لامكان إقامة لهم » أو « يسكنون مكانا لا وجود له » .

ثم طلبوا إلى الملك بكل احترام أن يختار لنفسه واحدة من المملكتين أيهما يفضل، ليحتفظ بها ، إذ لم يكن بوسعه الاحتفاظ بهما معاً . فقد كانا أكبر بكثير من أن يحكمهما نصف ملك ، تماماً كما لا يوجد شخص يرضى بأن يشاركه شخص آخر ولو فى رجل يرعى بغاله . وهكذا اضطر الملك المكرم أن يقنع بإمارة واحدة وأن يمنح الأخرى لأحد أصدقائه الذى مالبث أن طرد منها .

وفضلا عن ذلك ، لنفرض أنى بينت أن كل هذه الحروب وكل هذه الاضطرابات التى تعانى منها جميع هذه الشعوب، فى سبيل الملك الفرنسى ، ستنتهى فى نهاية الأمر إلى لا شىء ، بعد أن تستنفد موارده ، وتدمر شعبه ، وأن من الخير له إذن أن يعنى بمملكته التى ورثها عن أجداده ، ويعمل على ثرائها وازدهارها ما وسعه الجهد ، وأن يحب رعاياه ويكسب حبهم ، وأن يعيش بينهم ، ويحكمهم باللين ، ولا يفكر فى الحصول على الممالك الأخرى ، مادام ما يملكه بالفعل يكفيه ويزيد . كيف تظن ، أيها العزيز مور ، أن السامعين سيجدون حديثى هذا ، وكيف سيقع فى نفوسهم ؟

قلت : ليرحمنا الله ، فما أظنه سيقع موقعاً حسناً فى نفوسهم .

قال : إذن فلنستمر فى حديثنا . هب ملكاً ومستشاريه أخذوا فى قدح زناد فكرهم للتوصل إلى وسيلة يجمعون بها المال للملك . يشير واحد منهم برفع قيمة النقد عندما يكون هو مطالباً بالدفع ، وخفضها عن الحد المألوف عندما يكون الغير مطالباً بالدفع له بحيث يحقق ذلك نتيجة مزدوجة إذ يسدد ديناً كبيراً بمقدار قليل من المال ، ويتقاضى مبلغاً كبيراً حيث لا يستحق إلا مبلغاً صغيراً . وأشار آخر أن يزعم الملك باطلا لشعبه أن حرباً وشيكة الوقوع بهدف جمع

المال ، ثم عندما يرى ذلك مواتياً ، يعلن الصلح باحتفالات مهيبة ، ليذر الرماد فى عيون أفراد شعبه المساكين مدعياً أن مليكهم المحب ، شفقة منه بهم يعمل على تجنب سفك الدماء . ويذكره مستشار آخر بقوانين قديمة عفا عليها الدهر ، وظلت معطلة زمناً طويلا حتى أصبحت باطلة ، ولأنها ظلت منسية لا يذكرها إنسان ، فقد خالفها الجميع . ويشير على الملك أن يجمع الغرامات ممن خالفوها ، فما من وسيلة أكثر ربحاً أو أكثر شرفاً من تلك التى تتستر تحت راية القانون . وينصح آخر بأن يمنع أشياء كثيرة ، يفرض عليها عقوبات صارمة ، وخاصة تلك الأشياء التى فيها منفعة الشعب وفائدته . ثم بعد ذلك يمنح امتيازات لأولئك الذين أضر المنع بمصالحهم مقابل مبالغ من المال . وهكذا يكسب رضى الشعب ويحقق ربحاً مضاعفاً . فمن ناحية سيجمع الغرامات من أولئك الذين يوقع بهم جشعهم إلى الربح فى الشرك ، ومن ناحية أخرى ، يبيع الامتيازات لغيرهم . ومن المؤكد أنه كلما ارتفع سعر هذه التراخيص علا قدر الملك الذى يكره أن يمنح فرداً امتيازاً يتعارض مع المصلحة العامة ، ولا يفعل ذلك إلا مقابل ثمن باهظ .

ويقنعه آخر بأن يخطب ود القضاة ليجدهم دائماً فى صفه ، فيقضون بما فيه مصلحته وبذلك لن يكون هناك أمر يخصه — مهما كان منافياً للحق — لن يجد فيه أحدهم ، إما نتيجة للرغبة فى المعارضة ، أو خجلا من ترديد رأى آخر ، وإما رغبة فى التقرب من الملك ، ثغرة يحول من خلالها مجرى القانون والعدالة . وهكذا عندما يؤدى اختلاف القضاة فيما بينهم إلى التشكيك فى شيء واضح وضوح الظهر يجد الملك الفرصة سانحة لتفسير القانون تبعاً لمصلحته ، فيوافق الجميع إما حياء وإما خوفاً . وعندئذ ينقل القرار بكل جرأة إلى المحاكم . وهنا لن يعوز القاضى مبرر للحكم لمصلحة الملك . فيكفيه أن يكون الحق إلى جانبه ، أو حتى

حرفية القانون ، أو المعنى المحرف للكلمة المكتوبة أو الحق الملكى الذى لاجدال فيه — وهو ما يفوق جميع القوانين لدى القضاة ذوى الضمائر الحية .

وأخيراً يتفق المستشارون جميعاً ويقرون بيان كراسوس الشهير [١] بأنه مامن قدر من المال يكفى الحاكم الذى يضطر إلى الاحتفاظ بجيش . وفضلا عن ذلك فإن الملك لا يرتكب ظلماً ، حتى لو أراد ذلك ، فجميع ما يملكه الشعب كله ملك له ، وكل ما يملكه الفرد إنما هو من كرم الملك الذى لم يأخذه منه . ومن مصلحة الملك أن يكون ما يملكه الشعب أقل ما يمكن ، نظراً لأن سلامته قائمة على ألا يفسد الشعب الثراء والحرية ويؤدى ذلك بأفراده إلى التبجح . فيجعلهم أقل صبراً على تحمل الأوامر الصارمة الجائرة بينما يكسر الفقر والعوز شوكتهم ، ويعودانهم الصبر ، وينزعان من المظلومين روح الثورة والشجاعة .

فإذا ما وقفت عند هذه النقطة مرة أخرى لأقول إن هذه النصائح ليست مخزية فحسب بل خطرة أيضاً على سلامة الملك ، الذى تقوم سلامته ، بل كرامته أيضاً لا على أمواله الخاصة بل على أموال الشعب . لنفرض أنى سأبين لهم أن أفراد الشعب يختارون الملك ليرعى مصالحهم وليس مصلحته الخاصة ، أى لكى يوفر لهم بعمله وجده حياة طيبة آمنة من الظلم والقهر ، ولذا فواجب الملك أن يسهر على مصلحة شعبه أكثر مما يسهر على مصلحته الخاصة ، تماماً كما أن واجب الراعى ، مادام راعياً هو أن يطعم خرافه قبل أن يطعم ذاته .

فالدليل قائم على خطئهم البين فى اعتقادهم بأن فى فقر الشعب صيانة

---

(١) كراسوس : ماركوس ليسينيوس كراسوس : اشتهر بثرائه العظيم . شارك بومبى وقيصر فى حكم روما فى عام ٧٠ ق.م .

للسلام . فأين تجد أكبر قدر من النزاع والشقاق إلا بين المتسولين ؟ ومن أكثر الناس رغبة فى الثورة والتغيير سوى أولئك غير الراضين عن واقع حياتهم وحاضرهم؟ وأخيراً من أكثر الناس جرأة وإقداماً على إثارة الفوضى (ظناً منهم أنه قد يصيبهم شيء من الحظ بطريقة أو بأخرى) إلا أولئك الذين لا يملكون ما يخشون فقده ؟ فإذا ما كان هناك ملك بلغ احتقار شعبه وكرهه له حداً جعل من المستحيل أن يخضعهم لسلطانه إلا عن طريق القسوة والنهب والاستيلاء على أموالهم والانحدار بهم إلى مستوى الفاقة ، أفليس من الأفضل له أن يتنازل عن الملك عن أن يحتفظ به بهذه الوسائل ، أو أن يحتفظ بلقب الملك ولكنه يفقد جلاله وهيبته ؟ فكرامة الملك لا تتفق مع حكمه لقوم من المعدمين بل تقوم على حكم قوم أغنياء سعداء . وقد كان هذا بالتأكيد هو الرأى الذى عبر عنه الرجل النبيل الشجاع فابريسيوس[1] حين قال إنه يفضل أن يكون حاكماً لشعب غنى عن أن يكون هو غنياً . حقاً أن يعيش رجل واحد فى متعة وترف بين تأوهات جميع من يحيطون به ودموعهم ، فدور جدير بصاحب السجن لا بصاحب الملك . وقصارى القول هو أنه كما أن الطبيب غير الكفء هو الذى لا يستطيع أن يشفى مريضاً من مرض دون أن يورثه مرضاً آخر ، فكذلك من لايستطيع أن يصلح حياة رعاياه سوى عن طريق حرمانهم من متع الحياة فعليه أن يعترف بأنه لا يعرف كيف يحكم قوماً أحراراً . من الخير له أن يقضى أولا على تكاسله وغروره ، فهاتان الرذيلتان هما — عادة — سبب كره شعبه واحتقاره له . فيعيش مكتفياً بما عنده دون أن ينزل الضرر بأحد ويوازن بين مصروفاته وموارده ، ويمنع الشر والجريمة ، ويقضى

(١) فابريسيوس : كايزس فابريسيوس لوسينوس انتخب قنصلا لروما فى عام ٢٨٢ ق. م واشتهر بتقشفه ونزاهته .

على الشر بحسن تربية رعاياه ، وليس بترك الشر يستشرى ، ثم بتوقيع العقوبة . ليمتنع عن التسرع فى إحياء القوانين التى بطلت لطول عدم تنفيذها — وخاصة تلك التى عطلت طويلا ، دون أن يشعر أحد بالحاجة إليها . ليمتنع تماماً عن تحصيل الغرامة عن الخطأ بالاستيلاء على أشياء يمنع القانون الفرد العادى من الاستيلاء عليها لأن فى ذلك عمل يتسم بالخبث والالتواء .

لنفرض أنى وضعت أمامهم قانون المكاريين [١] الذين لا تبعد بلادهم كثيراً عن يوتوبيا وبينت لهم كيف يقسم ملكهم يوم يتسلم مقاليد الحكم قسما مقدساً ألا يحتفظ فى خزائنه أبداً بما يزيد على ألف جنيه من الذهب أو الفضة . يقولون إن هذا القانون سنّه ملك صالح ، كان يهتم بمصلحة بلده أكثر مما يهتم بثروته ، ليحول بين الملوك وبين خزن المقادير الكبيرة من المال مما يؤدى إلى العوز بين الشعب . فقد عرف مقدماً أن هذا القدر من المال سيكون كافياً ليقضى الملك على أى تمرد فى الداخل ، وللمملكة لتتصدى لأى هجوم معاد من الخارج .

كما أدرك أيضاً أن هذا القدر من المال من القلة بحيث لا يغرى الملك على الاستحواذ على أموال الغير . وكان الهدف الأساسى من التشريع هو منع ذلك من الوقوع . أما السبب الآخر فهو القضاء بهذه الطريقة على أى نقص فى المال الذى يحتاجه شعبه لتدبير أمورهم اليومية . كما رأى أيضاً أنه لما كان على الملك أن يوزع كل مازاد فى خزائنه على الحد الذى يحدده القانون ، فلن يبحث عن وسيلة لإيقاع الظلم بأحد . مثل هذا الملك سيخشاه الأشرار ويحبه الأخيار . وباختصار إذا ما كنت لأقحم هذه الأفكار وما شابهها على أناس شديدى الميل إلى فكر مضاد ، أفلن يعيروننى آذاناً صماء ؟

---

(١) المكاريون : كلمة مشتقة من اليونانية بمعنى « القوم السعداء » أو « المحظوظون » .

قلت : نعم سيعيرونك آذاناً صماء ما فى ذلك شك . وبحق السماء لن يكون فى هذا ما يدعو إلى العجب . وأصارحك القول ، بأنى لا أظن أن هذه الأفكار يجب أن تلقى على الناس ، ولا أن تقدم مثل هذا النصح ، مادمت واثقاً من أن أحداً لن ينصت إليه . فأى نفع يمكن أن تأتيه مثل هذه الآراء الجديدة وكيف يتسنى لها أن تدخل أذهان أفراد استولت عليهم وتملكتهم معتقدات مضادة من قبل ؟ إن هذه الفلسفة المدرسية لا تخلو من سحر فى الأحاديث الخاصة بين الأصدقاء المقربين . أما فى مجالس الملوك ، حيث تناقش الأمور الكبيرة بثقة عظيمة ، فليس لمثل هذه الأفكار مكان .

فأردف قائلا : هذا بالتحديد ما رميت إليه عندما قلت إن ليس للفلسفة مكان لدى الحكام .

قلت : حقاً . هذا صحيح فيما يتعلق بالفلسفة المدرسية التى ترى أن كل شىء صالح لكل مكان . ولكن هناك فلسفة أخرى ، أكثر نفعاً للساسة ، تعرف مسرحها وتكيف نفسها للمسرحية المقرر تقديمها ، وتؤدى دورها بدقة ولباقة ، تلك هى الفلسفة التى يجب أن نستخدمها وإلا فسيكون مثلك مثل من يظهر فجأة فى ثياب الفيلسوف بينما تقدم كوميديا لبلوتوس ، وعبيد الأسرة يلهون ويمزحون فيما بينهم مرددين الدعابات التافهة ، ويلقى من مأساة « أوكتافيا » تلك الفقرة التى يجادل فيها سنيكا ونيرون . ألم يكن من الأفضل أن كنت تقوم بدور صامت على أن تلقى شيئاً غير ملائم وتخلط بين الكوميديا والتراجيديا فقد كنت ستفسد المسرحية الأصلية وتقلبها بإقحامك مادة لا تتصل بموضوعها حتى لو كان ما قدمته أفضل من المسرحية ذاتها . فمهما كانت المسرحية التى تقدم ، فعليك بتقديمها على خير وجه فى وسعك تقديمها عليه ، وعدم إفسادها



لمجرد أنك تفكر فى مسرحية أخرى أفضل منها .

وهكذا الأمر فى الدولة ، وهكذا الأمر فى مناقشات الملوك . إذا لم تستطع انتزاع الأفكار الخاطئة من جذورها، وإذا لم تستطع شفاء الرذائل الكامنة حسبما تشتهى ، فيجب مع ذلك ألا تهجر الدولة . يجب عليك ألا تتخلى عن السفينة وقت العاصفة لأنك لن تستطيع السيطرة على الرياح . ومن الناحية الأخرى ، يجب عليك ألا تفرض على الناس أفكاراً جديدة غريبة تعلم جيداً أنها لن تلقى اهتماماً لدى أولئك الذين يعتنقون أفكاراً مضادة لها . بل على العكس، عليك أن تتناول الأمر بطريق غير مباشر ، وتحاول ما وسعك الجهد أن تعالج الأمور بكياسة . أما ما لا تستطيع تحويله إلى الخير ، فعليك أن تقلل من شره ما أمكنك ذلك ، فمن المستحيل أن يصبح كل شىء سويًّا، ما لم يكن جميع الناس أخياراً، وهو مالا أتوقع حدوثه لسنوات عديدة قادمة .

قال : وهكذا لن أحقق شيئاً بهذه الطريقة سوى أن أشارك الآخرين جنونهم بينما أرمى إلى علاج هذا الجنون . أما إذا أردت أن أقول الحق ، فلا مناص من أن أتحدث بالطريقة التى وصفتها . أما التحدث بأمور كاذبة ، فقد يكون بقدر علمى من عمل الفيلسوف ، ولكنه دون شك ليس عملى . ومهما يكن الأمر ، فبالرغم من أن حديثى هذا قد يكون غير معقول أومستساغ لدى أولئك المستشارين ، إلا أنى لا أستطيع أن أرى لماذا يبدو غريباً لدرجة الجنون . فماذا يحدث لو أخبرتهم بتلك الأشياء التى يقولها أفلاطون فى جمهوريته ، أو تلك التى يمارسها اليوتوبيون بالفعل فى جمهوريتهم ؟ فلو أن تلك النظم أفضل (وهى أفضل بالفعل) إلاأنها قد تبدو غريبة لأن الأفراد هنا يتمتعون بحق الملكية الخاصة ، أما هناك فكل شىء مشترك . ولن يرحب أولئك الذين قرروا التقدم إلى الأمام فى الطريق المضاد

بذلك الشخص الذى يشير عليهم بالرجوع ويبين لهم المخاطر التى تنتظرهم . أما فيما عدا ذلك ، فما الذى يحويه حديثى من أشياء لا يليق التحدث بها أو لا يتحتم ذلك فى كل مكان ؟ حقًّا، لو تخلينا عن جميع تلك الأشياء التى جعلتها أخلاق الناس المنحرفة تبدو غريبة ، لأنها غير مألوفة ومضحكة ، لتحتم علينا أن نتجاهل جميع تعاليم المسيح تقريباً . ولكنه منعنا من أن نتجاهلها (أو نغمض العين عنها) بل أمرنا بأن ما أسر به إلى تلاميذه ، يجب أن ينادى به من أسطح المنازل . أما الجزء الأكبر من تعاليمه فيختلف عن خلق الجنس البشرى أكثر مما يختلف حديثى عنها .

ولكن الوعاظ ، وهم رجال ذوو حنكة ، وجدوا أن الناس يكرهون بشدة أن تصلح أخلاقهم تبعاً لتعاليم المسيح ، وعملا بنصيحتك أيضاً على ما أظن حاولوا التوفيق بين تعاليمه وبين خلق الناس ، وكأن تعاليمه قضيب من الرصاص الرخو ، حتى يتسنى بشكل من الأشكال على الأقل أن يوفقوا بينهما . ولكنى لا أستطيع أن أرى ما حققوه بهذه الطريقة سوى أن مكنوا الناس من أن يخطئوا وهم يشعرون بقدر أكبر من الراحة . ومن المؤكد أن نجاحى فى مجالس الأمراء سيكون بهذا القدر الضئيل . إذ إما أن أعتنق رأياً مخالفاً ، وفى هذه الحالة سأكون وكأننى لا أعتنق شيئاً ، وإما أن اعتنق نفس الرأى ، وفى هذه الحالة سأكون ، كما يقول ميتيو فى تير ينس [1] ، وكأننى أشجعهم على جنونهم . أما تلك الطريقة غير المباشرة التى تنادى بها ، فلا أرى أى هدف يمكن أن تحققه وأعنى بذلك ما نصحتنى به من أن أحاول ، إذا لم يتسن لى إصلاح الأمور ، أن أعالجها على الأقل بكياسة وأجعلها ما أمكن ذلك ، أقل سوءاً مما هى عليه . فى البلاط ، ليس هناك مكان

---

(١) تير ينس: تير ينتيوس آفير الشاعر المسرحى الكوميدى الوحيد، بخلاف بلوتوس، الذى وصلتنا أعماله . توفى فى ١٥٩ ق.م والإشارة هنا إلى شخصية ميتيو فى « الأدلفى » .

لتجاهل الأشياء ، أو إغماض العين عنها ، فعلى المرء أن يقر علناً أسوأ المشورات ويؤيد أكثر القوانين تخريباً . أما ذلك الذى يمتدح النصائح الشريرة بقلب خائر ، فسيعد جاسوساً ، بل ربما يعد خائناً .

وفضلا عن ذلك ، فلن تتاح لك الفرصة لأى عمل صالح ، لأنك ستكون بين جماعة من الزملاء ، كفيلين أن يفسدوا بسهولة حتى خير الرجال ، قبل أن يتمكنوا هم من إصلاحهم . وعن طريق صحبتهم الشريرة ، إما أن تستسلم أنت للغواية ، وإما أن تحتفظ بنزاهتك وبراءتك وتصبح ستاراً لشرور الآخرين وحماقتهم . وهكذا ستكون أبعد ما يمكن عن القدرة على إصلاح أى شىء بذلك الأسلوب غير المباشر الذى تنادى به .

لهذا السبب ، يبين أفلاطون فى تشبيه رائع ، لماذا يحسن الفلاسفة صنعاً بالامتناع عن إدارة شئون الدولة عندما يصورهم وكأنهم يرون الناس يندفعون إلى الطرق ويبتلون تماماً بالمطر الذى لاينقطع ، ولكنهم لا يستطيعون إقناعهم بالبقاء فى منازلهم والوقاية من المطر . فهم يعلمون أنهم إن خرجوا إليهم ، فلن يحققوا شيئاً بذلك سوى أن يبتلوا هم أيضاً معهم. وهكذا يلزمون منازلهم ،قانعين بأنهم سيكونون هم على الأقل بمأمن من المطر ، وإن لم يتمكنوا من مداواة حماقة الآخرين .

ومع ذلك ، فمما لا شك فيه ، ياعزيزى مور ، إذا ما كنت لأعبر لك بصدق عن مشاعرى القلبية ، فإنه يبدو لى أنه حيثما وجدت الملكية الخاصة ، وكان المال هو المعيار الذى يقاس به كل شىء ،فيكاد يكون من المستحيل تقريباً أن يسود المجتمع العدل أو الرخاء ،إلا إذا حسبت أن العدل قائم حيث تتدفق أفضل الأشياء إلى أيدى أسوأ المواطنين ، أو أن الرخاء يسود حيث تتقاسم قلة قليلة منهم كل شىء ، وحتى هذه القلة لاتحقق درجة كبيرة من الثراء ، فى حين يعيش الباقون

فى شقاء تام . ولذا فطالما يجول بخاطرى نظم اليوتوبيين البالغة الحكمة والقدسية، حيث تدبر الأمور تدبيراً سويًّا عن طريق عدد صغير جدًّا من القوانين، وتنال الفضيلة جزاءها . ومع ذلك فنظراً لعدالة التوزيع، يتمتع الجميع بالوفرة فى كل شىء . ومن ناحية أخرى أقارن بين سياستهم وسياسة الشعوب الكثيرة فى الأماكن الأخرى التى لا تكف عن إصدار القوانين ومع ذلك فلا تحقق إحداها الحياة الصالحة ، وحيث يسمى كل رجل كل ما يحصل عليه ملكاً خاصًّا له ، ومع ذلك لاتكفى جميع هذه القوانين التى تصدر يوميًّا ليحتفظ المرء أو يدافع عن–أو حتى أن يفرق بين – ما يخصه وما يخص شخصاً آخر وما يدعى كل بدوره أنه يخصه ، وليس أدل على ذلك من تلك القضايا التى لا حصر لها ، والتى تتجدد يوميًّا ، ولا تنتهى أبداً ، أقول إنى عندما أتأمل هذه الحقائق ، أصبح أكثر تحيزاً لأفلاطون وأقل دهشة لرفضه وضع القوانين لأولئك الذين رفضوا تلك التشريعات التى منحت الجميع أنصبة متساوية من جميع السلع .

لقد أدرك هذا الفيلسوف الحكيم مقدماً وبسهولة أن الطريق الوحيد الذى لا يوجد سواه لتحقيق الرفاهية للجميع هو تحقيق المساواة فى جميع الأمور . وأشك فى أن هذا أمر يمكن مراعاته حيث تعد ممتلكات الفرد ملكاً خاصًّا له . فعندما يهدف كل إنسان إلى الملكية المطلقة لكل ما تصل إليه يداه ، فمهما عظمت كمية السلع ، فإنها تقسم بين حفنة من الناس وتترك الباقين فى فقر وعوز . وغالباً ما يحدث أن هذه الطبقة الأخيرة تستحق ما تتمتع به الأخرى من ثراء ، فالأغنياء جشعون ، لا ضمير لهم ، ولا فائدة منهم ، بينما الفقراء حسنو السلوك ، مهذبون ، بسطاء ، وأكثر نفعاً للدولة بعملهم اليومى عنهم لأنفسهم . وإنى مقتنع تمام الاقتناع بأنه لن يمكن إجراء تقسيم عادل ومتساو للسلع ولا أن تتحقق السعادة فى الشئون

الإنسانية ما لم تلغ الملكية الخاصة تماماً . فطالما بقيت سيظل الجزء الأكبر بكثير ، والأفضل بكثير من الجنس البشرى مثقلا دائماً بعبء ثقيل لا مفر منه من الفقر . أعترف أنه من الممكن تخفيف هذا العبء بعض الشىء ، ولكنى أنكر أنه من الممكن التخلص منه تماماً . فقد يصدر قانون يقضى بألا يملك شخص أكثر من قدر معين من الأرض . وألا يكون لأى رجل دخل من المال يزيد عما يحدده القانون . وقد تصدر تشريعات خاصة تحول بين الملك وزيادة سيطرته ، والأغنياء وزيادة جشعهم ، وتقضى أيضاً بألا يكون الحصول على الوظائف العامة بالهدايا والوساطة ، وألا تباع وتشترى ، وألا تحمل شاغلها تكاليف شخصية باهظة ، (وإلا سيكون الإغراء قوياً لأن يسترد الشخص هذه التكاليف عن طريق النصب والنهب ، وأن يعين بالضرورة لهذه الوظائف الأغنياء من الرجال بدل أن يشغلها الحكماء منهم) .

أقول إنه بهذا النوع من القوانين تخفف هذه الشرور وتقل حدتها ، كما يبقى على الأجسام المعتلة التى لا رجاء فى شفائها بأنواع العلاج الطبى المتكررة . أما أن تشفى تماماً وتعود إليها الصحة الكاملة ، فهذا مالا أمل فيه مادام كل فرد سيداً لملكه الخاص . نعم ، فبينما تحاول إصلاح جزء ما ، تزيد من وطأة المرض على جزء آخر ، بحيث يؤدى شفاء عضو واحد بالتبعية إلى إصابة عضو آخر ، ما دام لا يمكن إضافة شىء للواحد بدون أن يؤخذ من الآخر .

قلت : ولكنى أخالفك الرأى . فلا أحسب أن الحياة ستكون مرضية طيبة ، إذا ما كان كل شىء مشتركاً . إذ كيف يتوفر القدر الكافى من السلع ، إذا كف كل شخص يده عن العمل فى سبيل الإنتاج ؟ سينعدم دافع الربح الشخصى لدى الفرد ، ويؤدى به اعتماده على عمل الغير إلى التكاسل . وبالإضافة إلى ذلك ،

فإذا شعر الناس بالحاجة ، بينما لا يستطيع الفرد عن طريق القانون أن يحتفظ بما كسبه بعمله كملك خاص له ، ألا يؤدى ذلك بالضرورة إلى الاضطرابات المستمرة وإراقة الدماء ، خاصة وقد اختفت سلطة الحكام وهيبة مناصبهم ؟ إذ كيف يمكن أن يكون لها هيبة بين هؤلاء الناس الذين يشغلون جميعاً نفس المكانة ، هذا مالا أستطيع تصوره .

أجاب : لا أعجب آن يبدو لك الأمر بهذا الشكل ، وليس لديك تصور على الإطلاق ، أو تصور كامل للموقف الذى أعنيه . أما إذا كنت قد عشت معى فى يوتوبيا ورأيت بنفسك طرق سلوكهم وعاداتهم كما رأيتها أنا ، إذ عشت هناك أكثر من خمس سنوات ، وما كنت لأرغب فى ترك تلك البلاد ، إلا لأعرفكم بهذا العالم الجديد ، إذن لاعترفت بدون تردد بأنك لم ترَ أبداً شعباً بهذا التنظيم فى أى مكان آخر .

قال بطرس معترضاً : من المؤكد أنه من العسير أن تقنعنى بأنه يوجد فى ذلك العالم الجديد شعب أكثر تنظيما مما يوجد فى هذا العالم الذى نعرفه . فى هذا العالم توجد عقول لا تقل روعة ، كما توجد دول لا تقل قدماً عن تلك التى توجد فى العالم الجديد . وفى هذه الدول قد كشفت التجربة الطويلة عن كثير جداً من الأمور النافعة للحياة الإنسانية ، هذا إلى جانب تلك الاكتشافات التى جاءت عن طريق الصدفة والتى لا يمكن أن يأتيها عقل بشرى .

فرد قائلا : أما عن قدم الدول ، فستكون أكثر قدرة على الحكم ، إذا قرأت كتب التاريخ لذلك العالم . فإذا أمكننا تصديقها ، فستعرف أن المدن قد وجدت هناك بينهم قبل أن يوجد الرجال بيننا . وفضلا عن ذلك ، فكل ما اخترعته العقول أو اكتشف عن طريق الصدفة هنا ، من الممكن أن يحدث هناك أيضاً . ولكنى

واثق من أنه بالرغم من أننا نفوقهم عقلا، إلا أنهم يتفوقون علينا كثيراً فى التطبيق والصناعة . وتشهد كتب التاريخ لديهم ، أنه حتى ذاك الوقت الذى حللنا فيه بأرضهم، لم يسمعوا شيئاً عنا أبداً (نحن الذين يدعوننا شعب ماوراء خط الاعتدال) فيما عدا مرة واحدة منذ ١٢٠٠ سنة حين دفعت العاصفة بسفينة تحطمت على جزيرة يوتوبيا ، وألقى ببعض الرومان والمصريين على الشاطئ فبقوا فى الجزيرة ولم يرحلوا عنها أبداً . وجدير بكم أن تلاحظوا مدى الفائدة التى جنتها الصناعة لديهم من تلك الفرصة الوحيدة . ذلك أنهم لم يتركوا فناً واحداً من فنون الإمبراطورية الرومانية يمكن أن تجنى منه فائدة إلا وتعلموه من أولئك الأغراب الذين غرقت سفينتهم ، أو اكتشفوه بأنفسهم بعد أن سمعوا عنه منهم ، فاستفادوا فائدة عظمى من تلك الفرصة الوحيدة التى حملت إلى شواطئهم بعض الأشخاص من بلادنا .

أما إذا كان القدر قد ساق أناساً من شواطئهم إلى شواطئنا ، فقد نسى هذا الحدث تماماً، كما قد تنسى الأجيال القادمة أنى كنت هناك فى يوم من الأيام . كذلك فبالرغم من أنهم قد أخذوا عنا فى التو وعند أول لقاء كل اختراع نافع من اختراعاتنا ، فأظن أن وقتاً طويلا سيمضى قبل أن نأخذ عنهم أى شىء يصنعونه خيراً مما نصنعه نحن . ولعل ذلك هو السبب الرئيسى فى أن دولتهم يحكمها نظام أفضل ، وتزدهر فى سعادة أكبر مما هو عليه الحال عندنا ، بالرغم من أننا لا نقل عنهم ذكاء أو موارد .

قلت : إذا كان الأمر كذلك ياعزيزى روفائيل ، فإنى أرجوك وأتوسل إليك أن تصف لنا هذه الجزيرة . ولا توجز ، بل تحدث بالتفصيل عن الأرض والأنهار ، والمدن ، والسكان ، والتقاليد ، والعادات ، والقوانين ، وباختصار ،

عن كل ماترى أنه يجدر بنا أن نعرفه . ولنأخذ فى الحسبان أننا نريد معرفة كل ما زلنا نجهله .

قال : ليس أحب إلى نفسى من ذلك ، فجميع الحقائق فى متناول يدى ولكن الوصف سيستغرق وقتاً طويلا .

فقلت : إذن لنذهب لتناول الطعام . ثم بعد ذلك يمكننا أن نقضى من الوقت فى ذلك مانريد .

أجاب : اتفقنا .

وهكذا دخلنا إلى المنزل وتناولنا الطعام . ثم عدنا إلى نفس المكان ، وجلسنا على نفس المقعد ، وأصدرنا الأوامر للخدم بألا يزعجنا أحد . وطلبنا ، بطرس جايلز وأنا ، إلى روفائيل أن يفى بما وعد به . أما هو ، فلما رأى ما بنا من شوق ولهفة إلى سماعه ، فبعد أن جلس صامتاً يفكر بعض الوقت ، بدأ قصته كما يلى .

نهاية الكتاب الأول

يليه الكتاب الثانى

السّياسَة المثلى للدّولة ووصف يوتوبيا

مع بيان مفصل عن سياسة الحكومة وجميع القوانين والنظم الصالحة لتلك الجزيرة

حديث

رُوفائيل هيثلوداى

كمايرويه

توماس مُور

مواطن مدينة لندن ورئيس شرطتها

الكتاب الثانى

تمتد جزيرة يوتوبيا عند منتصفها (حيث أعرض نقطة بها) مسافة مائتى ميل ، ولا تضيق عن ذلك كثيراً فى معظم أجزائها ، ولكنها تضيق تدريجياً قرب طرفيها . ويكون هذان الطرفان دائرة يبلغ طول قطرها خمسمائة ميل ، ويجعلان الجزيرة تبدو كالهلال ، يفصل بين طرفيه مضيق عرضه أحد عشر ميلا . ثم يتسع المضيق فيكون بحراً عريضاً . ولما كان اليابس الذى يحيط به من كل جانب يحجز الرياح ، فإن الخليج يشبه بحيرة ضخمة ، تميل إلى الهدوء أكثر مما تميل إلى الاضطراب ، وهكذا يصبح الجزء الداخلى من البلاد كله تقريباً مرفأ يسمح للسفن بالمرور فى جميع الجهات ، مما يحقق فائدة كبرى للسكان .

أما مدخل هذا الخليج فخطر غاية الخطورة لما ينتشر به من أجزاء ضحلة وصخور . وفى وسط الفتحة تقريباً توجد صخرة ضخمة ، لا تشكل خطراً ، لأنها مرئية للعين . وقد بنيت عليها قلعة تشغلها حامية من الجند . أما غيرها من الصخور فغير مرئية ولذا تشكل خطراً على الملاحة . أما الممرات الآمنة بينها فلا يعرفها سوى سكان الجزيرة ، ولذا فقلما يحدث أن يدخل إلى الخليج غريب دون مرشد من اليوتوبيين ، فخطورة الملاحة به لا تكاد تسمح لهم أنفسهم بدخوله دون التعرض للخطر ، ما لم تكن هناك إشارات على الشاطئ ترشدهم إلى الطريق . فإذا مانقلت هذه الإشارات من أماكنها إلى أماكن أخرى ، أمكنهم التغرير بسهولة بأى أسطول من أساطيل الأعداء وتدميره ، مهما بلغ عدد قطعه . أما الساحل الخارجى للجزيرة ، فتكثر به المرافئ أيضاً . ومع ذلك فالمرسى يحميه حاجز منيع شاركت الطبيعة ويد الإنسان فى صنعه ، بحيث يستطيع عدد صغير من

الرجال الدفاع عنه ضد أية قوات معتدية ومنعها من الوصول إلى الشاطئ .

ومما يقال ويدل عليه مظهر الجزيرة ، أنها لم تكن فى وقت من الأوقات محاطة بالبحر . ولكن الملك يوتوبوس الفاتح الذى تحمل الجزيرة اسمه (بعد أن كانت تدعى أبراكسا [١] حتى ذلك الوقت) والذى حول ذلك الشعب الفظ البدائى إلى هذه الدرجة من الحضارة والإنسانية التى تجعلهم الآن أرفع شأناً من جميع من عداهم من بنى البشر تقريباً ، أحرز النصر بمجرد نزوله إلى اليابس . ثم أمر بحفر مسافة خمسة عشر ميلا على الجانب الذى ترتبط عنده البلاد بالقارة وجعل البحر يجرى حول البلاد . وقد كلف بهذا العمل لا أهل الجزيرة الأصليين وحدهم ، بل جنده أيضاً ، حتى لا يظنون العمل أمراً مخجلا . وقد أدى تقسيم العمل بين هذا العدد الكبير من الأيدى إلى إنجاز المشروع بسرعة لاتصدق ، بحيث أثار نجاحه عجب الشعوب المجاورة وخوفهم ، ممن كانوا قد سخروا من المشروع فى بداية الأمر وظنوه ضرباً من المستحيل .

وبالجزيرة أربع وخمسون مدينة كبيرة جميلة تتكلم جميعاً بنفس اللغة ، ولها نفس التقاليد والعادات وتسودها ذات القوانين والنظم . وهى جميعاً متشابهة أيضاً فى نظامها ، ومتشابهة أيضاً أينما وجدت وبقدر ما تسمح به طبيعة الأرض حتى فى مظهرها . ولا تبعد مدينة عن الأخرى أكثر من أربع وعشرين ميلا ولا يفصل إحداها عن الأخرى أيضاً أكثر من مسيرة يوم واحد . ويأتى سنوياً من كل مدينة إلى أموروت [٢] ثلاثة شيوخ ذوى تجربة ، لمناقشة الأمور المتصلة بالمصلحة العامة

---

(١) أبراكسا : بمعنى « الاسم المقدس » أو « البركة » ، وكذلك رمز من رموز الغنوسطية أو مذهب العرفان .

(٢) أموروت : بمعنى « المدينة القاتمة » أو « المظلمة » .



خريطة جزيرة يوتوبيا

للبلاد . وتعد هذه المدينة ، لوقوعها وسط الجزيرة تماماً أصلح مكان لالتقاء السفراء من جميع أنحاء البلاد ، والمدينة الرئيسية والعاصمة .

أما الأراضى المحيطة فموزعة توزيعاً عادلا بين المدن بحيث لا يقل ما يحيط بكل مدينة من كل جانب عن اثنى عشر ميلا ، وقد يزيد فى بعض الأماكن ، كما هو الحال فى المدن التى تفصل بينها مسافة أكبر مما تفصل بين غيرها . ولا تسعى أية مدينة من هذه المدن إلى توسيع رقعتها لأن أهلها يعتبرون أنفسهم زراعاً للأرض أكثر منهم ملاكاً لها .

وتوجد فى جميع أنحاء المناطق الزراعية منازل ريفية مزودة بجميع أنواع الأدوات الزراعية . ويسكنها المواطنون الذين يجيئون للإقامة بها بالتناوب . ولا تضم أية أسرة ريفية فى البلاد أقل من أربعين فرداً من الرجال والنساء ، بالإضافة إلى اثنين من العبيد الملحقين بالأرض . والجميع تحت رعاية رب الأسرة وربتها . وكلاهما شيخان وقوران . ولكل مجموعة من ثلاثين أسرة رئيس يدعى فيلارك .

ويعود من كل أسرة إلى المدينة سنويًّا عشرون من أفرادها ، أولئك الذين قضوا سنتين فى الريف . ويرسل من المدينة بدلا منهم عشرون آخرون . ويقوم بتدريبهم أولئك الذين قضوا سنة هناك وأصبحوا أكثر خبرة بشئون الزراعة . وهؤلاء بدورهم يدربون غيرهم فى السنوات التالية . وبهذه الطريقة تتجنب البلاد أى خطر قد ينجم عن نقص كمية المواد الغذائية التى تنتج سنويًّا نتيجة الافتقار إلى الخبرة اللازمة ، كما قد يحدث إذا كان الجميع فى وقت من الأوقات حديثى العهد بالزراعة عديمى الخبرة بها . وبالرغم من أن هذا النظام الذى يقضى بتغيير الزراع هو القاعدة المتبعة ، حتى لايجبر فرد على غير إرادته على الاستمرار فترة أطول مما ينبغى فى مزاولة هذا النوع الشاق من العمل ، إلا أنه يسمح لكثير من

الرجال الذين يميلون إلى الأعمال الزراعية ، ويجدون متعة فى مزاولتها ، بالبقاء عدة سنوات . ويقوم هؤلاء الزراع بفلاحة الأرض ، وتربية الماشية ، وقطع الأخشاب ونقلها إلى المدينة عن طريق البر أو الماء ، أيهما أسهل . ويربون أعداداً كبيرة من الدواجن بطريقة مدهشة . إذ لا يرقد الدجاج على البيض بل يحفظ الزراع عدداً كبيراً منه فى درجة حرارة معينة ثابتة . فتنبعث الحياة ويفقس . أما الأفراخ فحالما تخرج من البيض ، تتبع بنى البشر وتنظر إليهم نظرتها إلى الأم . ويربون عدداً صغيراً من الخيل ، ومن الخيول الحوشية فقط ، ولا يستخدمونها إلالتدريب الشباب على أعمال الفروسية . إذ تقوم الثيران بجميع أعمال الزراعة والنقل ، وهم يعترفون بأنها أقل ذكاء وقدرة على التصرف عند الضرورة من الجياد ، ولكنها أكثر قدرة وصبراً منها على العمل الشاق وأقل منها تعرضاً لكثير من الأمراض . وفضلا عن ذلك فهى تتطلب قدراً أقل من العناية والتكاليف لإطعامها . وأخيراً فهى تصلح للطعام ، عندما تصبح غير قادرة على العمل .

وهم يزرعون القمح فقط لصنع الخبز . أما شرابهم فهو إما النبيذ أو شراب التفاح أو الكمثرى ، وإما الماء . وهم يشربونه قراحاً أحياناً ، أما فى معظم الأحوال فيصنعون منه شراباً بغلى العسل أو العرقسوس ، فلديهم منهما كميات كبيرة وفيرة . وبالرغم من أنهم يعرفون معرفة أكيدة كمية الطعام الذى تستهلكه المدينة وما يحيط بها من أراض ، إلا أنهم ينتجون من القمح والماشية قدراً أكبر مما يحتاجون إليه لاستعمالهم الخاص ، ويوزعون الباقى بين جيرانهم . أما ما يحتاجون إليه من أشياء لاتوجد فى الريف ، فيرسلون فى طلبها من المدينة ، ويحصلون عليها دون مقابل من العاملين بالإدارة المحلية بدون القيام بأية مساومة . وتذهب إلى هناك أعداد كبيرة جداً كل شهر لقضاء يوم العطلة وعندما يقرب وقت الحصاد ، يخبر

رؤساء المناطق الزراعية من الفيلارك موظفى البلدية بعدد المواطنين الذين يحتاجون إليهم من المدينة . ولما كانت جموع رجال الحصاد تصل سريعاً فى الوقت المحدد ، فإنهم ينجزون الحصاد كله فى يوم واحد من الجو الصحو تقريباً .

المدن وخاصة أموروت

أما المدن فمن يعرف واحدة منها يعرفها جميعاً ، فكلها متشابهة بقدر ما تسمح به طبيعة المكان . ولذا سأصف لكم واحدة فقط (ولا يهم كثيراً أيها) ، ولكن هل يوجد أجدر بذلك من أموروت ؟ أولا لأنه ما من مدينة أخرى أكثر جدارة منها ولأن المدن الأخرى تعترف لها بالرئاسة لأنها مقر اجتماع المجلس القومى أو دار الشورى ، وثانياً لأنى أعرفها أكثر من غيرها من المدن ، لأنها المدينة التى عشت فيها خمس سنوات كاملة .

وتقع أموروت على سفح جبل قليل الانحدار وهى مربعة الشكل تقريباً . ويبلغ عرضها حوالى ميلين ابتداء من نقطة أسفل قمة الجبل بقليل ثم على امتداد نهر الأنايدر ، أما طولها بمحاذاة النهر فيزيد قليلا عن عرضها .

وينبع نهر أنايدر من ينبوع صغير على بعد ثمانين ميلا من أموروت ، ولكنه يزداد اتساعاً نتيجة لعدد من الروافد ، اثنان منها كبيران بعض الشىء ، بحيث يصبح عرضه نصف ميل عند المدينة . ويزداد عرضه سريعاً بعد ذلك ، ثم يصب فى المحيط بعد ستين ميلا . وطوال المسافة كلها الواقعة بين المدينة والبحر ، بل لعدة أميال أعلى المدينة ، ترتفع مياهه طوال ست ساعات ثم تنخفض فى مد وجزر سريعين . وعندما يرتفع البحر ، يملأ بمائه نهر الأنايدر كله لمسافة ثلاثين ميلا ، دافعاً مياه النهر إلى الداخل . وفى هذه الأوقات تتحول مياهه العذبة إلى

مياه ملحة لمسافة أكبر ، أما فيما بعد هذه النقطة فيصبح الماء عذباً تدريجيًّا ويصل إلى المدينة نقيًّا تماماً . وعندما ينخفض البحر ويعود أدراجه ، تتبعه المياه العذبة حتى مصب النهر تقريباً . ويصل المدينة بالجانب الآخر للنهر جسر أقيم لا من الأعمدة أو الكتل الخشبية بل من الأحجار ، وله أقواس فخمة ، ويقع فى أبعد جزء من المدينة عن البحر ، حتى تمر السفن بمحاذاة كل هذا الجزء من المدينة بدون عائق . وهناك أيضاً نهر آخر ، ليس كبيراً جدًّا ، ولكنه هادئ لطيف ، وينبع من نفس الجبل الذى بنيت عليه المدينة وينحدر إلى وسطها حيث يصب فى نهر أنايدر . وقد أحيط منبع هذا النهر ورأسه ، الذى يقع على مسافة قريبة خارج المدينة بأسوار متينة ، خشية أن يقوم الأعداء فى حالة هجوم معاد ، بقطعه أو تحويل مياهه أو تسميمها . ومن هذه النقطة توزع المياه عن طريق قنوات مصنوعة من الآجر إلى الأجزاء المختلفة من الجزء الأسفل من المدينة . وحيث لا تسمح طبيعة الأرض بذلك ، تجمع مياه الأمطار فى خزانات كبيرة وتؤدى نفس الغرض .

ويحيط بالمدينة سور عال عريض أقيمت عليه القلاع والأبراج على مسافات متقاربة ويحيط بثلاثة جوانب من السور خندق جاف عميق عريض زرعت به الشجيرات الشوكية لتعوق المرور ، أما على الجانب الرابع فيقوم النهر ذاته مقام الخندق . والطرق مهيأة جيداً للمرور وللوقاية من الرياح على حد سواء . أما المبانى فأبعد ما تكون عن الضآلة والتواضع ومقامة بعضها بجانب بعض فى صف طويل ، يستمر طوال الشارع ويقابله صف آخر على الجانب المواجه . ويفصل بين واجهات المنازل المتقابلة شارع عرضه عشرون قدماً ، وخلف المنازل وعلى طول الشارع توجد حديقة فسيحة تحيط بالجوانب الخلفية للمبانى من جميع الجهات .

ولكل منزل بابان ، يؤدى أحدهما إلى الطريق ، والآخر إلى الحديقة . وبالإضافة إلى ذلك ، فهذه الأبواب ، التى تفتح وتقفل تلقائيًّا بمجرد أن تلمسها اليد ، تسمح لأى شخص بالدخول . ونتيجة لذلك لا يوجد ما يعد ملكاً خاصًّا فى أى مكان . وبالفعل ، يتبادل اليوتوبيون بيوتهم كل عشر سنوات عن طريق القرعة .

ويهتم اليوتوبيون اهتماماً خاصا بالحدائق . فيزرعون فيها الكروم والفواكه ، والعطور ، والزهور ، ويعنون بها فتزدهر ، بحيث لم أر أبداً شيئاً أكثر إثماراً أو تنسيقاً منها فى أى مكان آخر . ويزداد حماسهم لرعايتها لا نتيجة لما يجدون فى ذلك من متعة فقط ولكن أيضاً نتيجة للتنافس بين مجموعات منازل الشوارع المختلفة حول أجمل حديقة وأكثرها تنسيقاً . وحقًّا لن تجد بسهولة فى المدينة كلها شيئاً أكثر نفعاً أو مدعاة لسرور المواطنين . وهكذا يبدو أن مؤسس المدينة لم يهتم بشىء مثل اهتمامه بهذه الحدائق . فما يقال إن الملك يوتوبوس ذاته قد وضع تصميم المدينة كلها فى بادئ الأمر . ولكنه ترك للأجيال التالية أمر تزيينها وإتمام غير ذلك من التحسينات التى رأى أن حياة شخص واحد لا يمكن أن تكفى لها . وتشهد كتب التاريخ لديهم ، والتى تغطى فترة ١٧٦٠ سنة من التاريخ الذى يسجلونه بعناية ودقة ، أن المنازل كانت فى أول الأمر منخفضة ، ومجرد أكواخ ، ومصنوعة بشكل عفوى من أى نوع من الخشب يمكن الحصول عليه ، وحوائطها مغطاة بالطين ، وأسقفها شديدة الانحدار مغطاة بالقش . أما الآن فالمنازل جميلة المنظر ، تتكون من ثلاثة طوابق . والجدران الخارجية مصنوعة من الحجر أو الأسمنت أو الآجر ، ويستخدم الزلط لملء الفراغات بين الجدران . أما الأسقف فسطحة مغطاة بنوع رخيص من الأسمنت خلط بشكل يجعله يقاوم

الحرارة ، ويفوق الرصاص في قدرته على مقاومة العواصف . وهم يتقون الرياح بتجهيز نوافذهم بالزجاج (وهو شائع الاستعمال فى يوتوبيا) وأحياناً بالقماش القطنى الخفيف بعد غمسه فى الزيت الشفاف أو العنبر . وفى ذلك فائدتان : إدخال قدر أكبر من الضوء وحجز قدر أكبر من الريح .

رؤساء المدينة

تختار كل ثلاثين أسرة سنويًّا ممثلا أو رئيساً لها ، كان يدعى بلغتهم القديمة سيفوجرانت ، أما فى اللغة الحديثة فيدعى فيلارك . ويقام على كل عشرة من الفيلارك والأسر التابعة لهم شخص كان يدعى قديماً ترانيبور ، أما الآن فيسمى بروتوفيلارك أو الرئيس الأول . وتنتخب الهيئة المؤلفة من الرؤساء أو السيفوجرانت ، ويبلغ عددها مائتى شخص ، بعد أن تقسم على اختيار الرجل الذى تراه أفضل المرشحين وأكثرهم نفعاً ، بطريق الاقتراع السرى ، حاكماً ، على أن يكون أحد أربعة يرشحهم الشعب ، بحيث يختار واحد من كل من الأحياء الأربعة للمدينة ليرشح للمجلس .

ويشغل الحاكم منصبه طوال الحياة ، ما لم يعزل إن اتُّهم بالميل للطغيان . أما الرؤساء الأول فينتخبون سنويًّا ولكنهم لا يستبدلون بغيرهم إلا لسبب قوى . أما غيرهم من الرؤساء فيشغلون مناصبهم لمدة عام واحد . وتجرى المشاورات بين الحاكم والرؤساء الأول مرة كل يومين ، وأحياناً أكثر من ذلك، إذا اقتضى الأمر . وهم يتشاورون بشأن أمور الدولة . فإذا نشأ خلاف بين فردين من أفراد الشعب ،

---

(١) فيلارك : رئيس قبيلة .

وقلما يحدث ذلك ، فإنهم يسوّونه بدون إبطاء . وينضم إلى المجلس اثنان من الرؤساء ، يتغيرون يومياً . ولا يعتمد أمر من أمور الدولة ما لم يناقش فى المجلس ثلاثة أيام قبل صدور القانون . أما مناقشة الأمور المتصلة بالصالح العام خارج مجلس الشعب فيعد جريمة من الدرجة الأولى . ويقولون إن الهدف من هذه الأنظمة هو منع أى تآمر بين الحاكم والرؤساء الأول أو منع أى ظلم أو استبداد بالشعب يؤدى بسهولة إلى تغيير نظام الدولة . ولذلك يعرض كل ما يعد أمراً هاماً من أمور الدولة على مجلس الرؤساء ، الذين يتشاورون بعد أن يعرض الأمر على جماعات الأسر ، يعرضه كل رئيس على مجموعته ، ثم يبلغون قرارهم إلى المجلس وأحياناً يعرض الأمر على المجلس الأعلى للجزيرة كلها .

وفضلا عن ذلك ، فمن عادة المجلس ألا يناقش أمراً فى نفس اليوم الذى قدم فيه إليه ، بل يؤجله إلى الاجتماع التالى . وهم يتبعون هذه القاعدة حتى لا ينطق شخص دون ترو بأول فكرة تعن له ، ثم يحاول فيما بعد البحث عن الأسباب التى يؤيد بها فكرته بدلا من تأييد ما فيه خير الدولة ، مفضلا أن يعرض المصلحة العامة للخطر على أن يخاطر بسمعته ، خجلا (وهو خجل خطأ لا محل له) أو خوفاً من أن يظن أنه كان يفتقر إلى بعد النظر فى أول الأمر ، وقد كان من واجبه أن يكون بعيد النظر من البداية فيتحدث بحرص وليس بتسرع .



الحرف والأشغال

الزراعة هى العمل الوحيد الذى يقوم به الجميع رجالا ونساء ، دون استثناء ويتعلمونها جميعاً فى طفولتهم ، عن طريق التلقين النظرى فى المدرسة من ناحية ، وعن طريق الرحلات الزراعية التى يقومون بها إلى المزارع القريبة من المدينة للترفيه من ناحية أخرى . وهنا لا يكتفون بالمشاهدة فقط ، بل يشاركون بالعمل الفعلى كلما سنحت الفرصة للتدريب البدنى .

وإلى جانب الزراعة (التى يشترك فيها الجميع كما قلت) يتعلم كل منهم حرفة معينة خاصة به . وهذه عادة إما نسج الصوف أو الكتان ، وإما البناء أو صناعة المعادن أو النجارة . أما بخلاف ذلك فلا توجد أعمال يقوم بها عدد يذكر . وتتخذ الملابس شكل زى موحد فى جميع أنحاء الجزيرة ، على مر العصور ، وإن اختلفت ملابس الرجال عن ملابس النساء ، وملابس المتزوجين عن غير المتزوجين . وهذه الملابس مريحة للعين ، ملائمة لحركة الجسم ، وصالحة للاستعمال فى الحر والبرد . وأقرر أن كل أسرة تقوم بصنع ملابسها .

أما الحرف الأخرى ، فيتعلم كل شخص واحدة منها ، وليس الرجال فقط ، بل النساء أيضاً . أما هؤلاء ، فلكونهن الجنس الأضعف ، فيقمن بالأعمال السهلة ، ويصنعن عادة الصوف والكتان . أما الرجال فيكلفون بغير ذلك من الأعمال التى تتطلب جهداً أكبر . وغالباً ما يتعلم الشخص صناعة أبيه ، التى يميل إليها ميلا طبيعيًّا ، أما إذا استمالته صناعة أخرى ، فإنه ينقل بالتبنى إلى أسرة تزاول تلك الصناعة التى يميل إليها . ولايحرص والده فقط ، بل السلطات

المعنية أيضاً على أن يوضع تحت إشراف رب أسرة وقور شريف . نعم ، وإذا رغب شخص ، بعد أن يتعلم حرفة معينة ، فى أن يتعلم حرفة أخرى ، سمح له بذلك . أما وقد تعلم الحرفتين ، فله أن يمارس الحرفة التى يختارها ، مالم تكن المدينة بحاجة إلى واحدة منهما أكثر من الأخرى .

أما الوظيفة الرئيسية والوحيدة تقريباً لرؤساء المدينة أو السيفوجرانت فهى أن يعملوا ويدبروا أمر المدينة بحيث لا يبقى رجل عاطلا ، بل يمارس كلٌّ عمله بجد ، ومع ذلك لا يرهق مثل دواب الحمل بالعمل المستمر من الصباح المبكر حتى وقت متأخر من الليل . فمثل هذه الحياة أسوأ من حياة العبيد ، ومع ذلك فتكاد تكون هى حياة العاملين فى كل مكان ماعدا يوتوبيا . أما اليوتوبيون فيقسمون اليوم إلى أربع وعشرين ساعة متساوية يخصصون ست ساعات منها فقط للعمل ، ثلاث ساعات قبل الظهر ، يذهبون بعدها لتناول الغداء . ويستريحون ساعتين بعد الغداء ، ثم يعاودون العمل ثلاث ساعات أخرى يتناولون بعدها العشاء . ولما كانت الساعة الواحدة تحسب ابتداء من الظهر ، فهم يخلدون إلى النوم حوالى الساعة الثامنة ، ويخصصون ثمانى ساعات لذلك .

أما الأوقات التى تتخلل ساعات العمل ، والنوم ، والطعام ، فيقضيها الشخص كما يشاء لا يضيعها فى اللهو والبطالة ، ولكنه يشغل وقت الفراغ بنوع آخر من النشاط ، كل تبعاً لميله الخاص . وتخصص هذه الأوقات عادة للنشاطات العقلية . فمن العادات المتبعة لديهم أن تلقى المحاضرات يوميًّا قبل بزوغ الشمس والحضور إجباريًّا فقط لأولئك الذين اختيروا لتكريس أنفسهم للعلم . ولكن عدداً كبيراً من جميع الفئات ، ذكوراً وإناثاً ، يحتشدون لسماع المحاضرات ، يسمع بعضهم هذه ، والبعض الآخر تلك ، كل وما يتفق وطبيعته وميوله . أما إذا أراد

شخص أن يقضى هذا الوقت فى العمل (كما هو الحال عند كثير من الأذهان التى لاترقى إلى مستوى أى نوع من التدريبات العقلية العليا) فلا يحال بينه وبين ذلك ، بل يمتدح بالفعل لأن فى عمله فائدة للدولة .

وبعد العشاء يقضون ساعة فى الاستجمام ، فى الحدائق صيفاً ، والقاعات العامة التى يتناولون فيها الطعام شتاء ، يعزفون الموسيقى أو يتسامرون . أما ألعاب النرد وما شابهها من أنواع الألعاب الحمقاء الضارة فغير معروفة لديهم . ولكنهم يلعبون لعبتين لاتختلفان كثيراً عن الشطرنج . أما الأولى فمعركة بين الأرقام ، ويسرق فيها الرقم رقماً آخر . أما الثانية فلعبة تشتبك فيها الرذائل والفضائل فى معركة فاصلة . ويعرض فيها بمهارة أولا صراع الرذائل الواحدة مع الأخرى فيما بينها ، ومعارضتها الجماعية للفضائل ، ثم أية رذائل تصارع أية فضائل بعينها ، والقوات التى تهاجمها بها علنا ، والحيل والخدع التى تهاجمها بها سرًّا ، والوسائل الدفاعية التى تستخدمها الفضائل ضد قوى الرذائل ، والفنون التى بها تخيّب مساعيها وتقضى على خططها ، وأخيراً الوسائل التى يحرز بها النصر جانب من الجانبين .

ولكن هناك أمراً يجب أن تتأملوه عن قرب ، لئلا تخطئوا فهمه . فقد يتبادر إلى الأذهان ، لأنهم يخصصون ست ساعات فقط للعمل ، أن ذلك سيؤدى إلى بعض النقص فى الأشياء الضرورية . إلا أن الأمر أبعد مايكون عن ذلك لدرجة أن ذلك الوقت المذكور لايكفى فقط لإنتاج كل ما هو مطلوب من أشياء لامن ضروريات الحياة فقط بل أيضاً مما يجعل الحياة مريحة. وستفهمون هذه الظاهرة أيضاً إذا تأملتم هذا الجزء الكبير من السكان الذى يعيش فى البلاد الأخرى بدون عمل . فهناك أولا جميع النساء تقريباً ، ويشكلن نصف العدد الكلى . أما حيثما تعمل النساء فيغط الرجال فى النوم بدلا منهن . وفضلا عن ذلك فما أعظم وأكسل

هذا الحشد من الكهنة ورجال الدين كما يسمونهم . . أضف إلى ذلك جميع الأغنياء وخاصة أصحاب الضياع ممن يسمون عادة الوجهاء أو النبلاء . أضف إليهم أتباعهم وأعنى ذلك القطيع من الرجال المنتفحى الأوداج الذين لا يصلحون لشيء. وأضف أخيراً المتسولين الأصحاء الأقوياء الذين يجدون فى مرض من الأمراض حجة للبطالة . ومن المؤكد أنكم ستجدون أن أولئك الذين ينتجون بعملهم كل تلك الأشياء التى يحتاجها بنو البشر فى حياتهم اليومية أقل بكثير مما كنتم تتصورون . والآن لنتأمل كم يبلغ من بين أولئك الذين يعملون ، عدد القلة التى تشتغل بأعمال ضرورية . ففى المجتمع الذى يقاس كل شيء فيه بالمال، من الضرورى أن يمارس الناس حرفاً كثيرة ، عديمة الجدوى وغير ضرورية ، ولا تخدم إلا الترف والإفراط فى الشهوات . فإذا ما وزع هذا العدد الكبير الذى يعمل الآن على ذلك العدد الصغير من الحرف الذى يتناسب مع العدد الصغير من الضروريات والمنافع التى تتطلبها الطبيعة ، فسينتج منه الأشياء بوفرة عظيمة بالضرورة ، مما يؤدى دون شك إلى انخفاض الأسعار بحيث لا يستطيع أصحاب هذه الحرف كسب عيشهم . أما إذا كلف بأعمال نافعة جميع أولئك الذين يشتغلون بأعمال غير نافعة ، وكذلك كل ذلك الحشد من الكسالى والعاطلين ، والذين يستهلك كل منهم من ثمرة أعمال غيره من العاملين ضعف ما يستهلكه اثنان من هؤلاء العاملين ، (أقول) إذا كلف هؤلاء جميعاً بالاشتغال بأعمال نافعة ، فسترون بسهولة كيف يكفى قليل من الوقت بل ويزيد لإنتاج جميع الأشياء المطلوبة ، الضرورية منها والنافعة، نعم ، بل حتى ما تتطلبه المتعة ، مادامت هذه المتعة صادقة وطبيعية .

وهذا ما توضحه تجربة يوتوبيا بجلاء . ففى المدينة بأكملها وكل ما يحيط بها من أراض ، لا يكاد يصل عدد الأشخاص الذين يعفون من العمل إلى خمسمائة

شخص من العدد الكلى للرجال والنساء الذين يؤهلهم عمرهم وحالتهم الصحية للعمل . ومن بين هؤلاء رؤساء المدينة أو السيفوجرانت وهؤلاء بالرغم من أنهم معفون بحكم القانون من العمل ، إلا أنهم لا يعفون أنفسهم ، وذلك كى يجعلوا من أنفسهم قدوة تجذب غيرهم إلى العمل . ويستمتع بهذا الإعفاء أيضاً أولئك الذين سمح لهم الشعب ، بناء على توصية من الكهنة ، ونتيجة للاقتراع السرى لرؤساء المدينة ، بإعفاء دائم من العمل ، ليتفرغوا لدراسة فروع المعرفة المختلفة دراسة تامة ، أما إذا ثبت أن أحد هؤلاء الدارسين لا يحقق الآمال المعقودة عليه ، فإنه يعاد ثانية إلى مصاف العاملين . ومن ناحية أخرى ، كثيراً ما يحدث أن حرفياً يقضى ساعات فراغه فى الدراسة و يحقق باجتهاده تقدماً ملموساً ، فيعفى من عمله اليدوى ، ويرفع إلى طبقة رجال العلم . ومن بين جماعة الدارسين هذه ، يختار أهل يوتوبيا السفراء والكهنة ، والرؤساء الأول أو الترانيبور ، وأخيراً الحاكم أو الأمير ذاته ، والذى كانوا يدعونه فى لغتهم القديمة بارزينيس (١) ، أما فى لغتهم الحديثة فيسمونه آديموس (٢) .

ولما كان باقى الشعب كله تقريباً غير متعطل أو لا يعمل أعمالا غير نافعة ، فمن السهل أن نقدر كم تبلغ كمية العمل النافع التى يمكن أن تتم فى عدد قليل جداً من الساعات .

وفضلا عن ذلك ، هناك ميزة أخرى هى أنهم لا يحتاجون فى معظم الحرف اليدوية إلى ذلك القدر من العمل الذى تحتاجه الشعوب الأخرى . ففى المقام الأول تتطلب إقامة المبانى وترميمها أن يعمل كل هذا العدد الكبير بصفة مستمرة فى

---

(١) بارزينيس : ابن زيوس : أكبر آلهة اليونان .
(٢) آديموس : « الحاكم الذى لا شعب له » .

البلاد الأخرى ، لأن مايبنيه الأب ، يؤدى به إهمال الابن المسرف تدريجيًا إلى السقوط . ونتيجة لذلك ، فما كان يمكن أن يصان بقليل من التكاليف ، يضطر خلفه إلى إعادة بنائه مما يكلفه الكثير . وفضلا عن ذلك ، فكثيراً ما يحدث أن يكلف بناء منزل شخصاً ما مبلغاً طائلا من المال ، ثم يأتى آخر فيجده لا يتفق وذوقه الخاص فيهمله . ويؤدى إهماله إلى سرعة تساقطه ، فيبنى بيتاً آخر فى مكان آخر بتكاليف لا تقل عن التكاليف الأولى . أما فى بلاد اليوتوبيين ، حيث تدبر الأمور كما ينبغى ويرعى الصالح العام رعاية منظمة ،فإن إقامة بيت جديد فى مكان جديد حدث نادر ، ذلك أنهم لا يكتفون بترميم أى تلف بمجرد حدوثه بل يحرصون على تلافى حدوث التلف . فماذا تكون النتيجة ؟ النتيجة هى أن تظل المنازل قائمة مدة طويلة جدًا ، بأقل قدر من العمل . ويجد البناءون والنجارون أنفسهم أحياناً بغير عمل تقريباً ، فيما عدا ما يكلفون به فى هذه الأثناء من قطع الأخشاب فى منازلهم وقطع الأحجار وإعدادها ، حتى إذا دعت الحاجة إلى إقامة بناء ، تم ذلك بسرعة .

وكذلك هو الحال فيما يتعلق بالملابس أيضاً ، فما أقل الجهد والعمل الذى يحتاجه ذلك . ذلك أنهم من ناحية يرتدون أثناء العمل لباساً بسيطاً من الجلد ، يبقى سبع سنوات . وعندما يخرجون إلى الخارج يضعون فوقه رداء يغطى ملابس العمل الخشنة إلى حد ما . وهذا الرداء من نفس اللون فى الجزيرة كلها ، وهو لون الصوف الطبيعى . ونتيجة لذلك لا يحتاجون فقط إلى كمية أقل من الصوف عما يحتاجه غيرهم ، بل إن ذلك يكلفهم أقل كثيراً . ومن ناحية أخرى ، لما كانت الأقمشة القطنية تصنع بجهد أقل ، فهى تستخدم بقدر أكبر . أما فيما يتعلق بالأقمشة القطنية فكل ما يهم هو بياضها ، أما الصوفية فما يهم هو نظافتها .

ولا يقام وزن لرفع التيلة . وهكذا ، بينما لا يكتفى الشخص فى البلاد الأخرى بأربعة أو خمسة أثواب صوفية مختلفة الألوان ، ومثل هذا العدد من الأقمشة الحريرية ، بل لا يكتفى ذوو الأذواق المرهفة بعشرة منها ، ففى يوتوبيا يقنع الرجل برداء واحد يظل معه سنتين عادة . وبالطبع ليس هناك ما يدعو لأن يرغب فى أكثر من ذلك إذ لو كان لديه أكثر من واحد لما كان أكثر وقاية من البرد ، ولما بدا أحسن هنداماً على الإطلاق . ومن هنا ، فلما كانوا جميعاً يمارسون أعمالا نافعة ويكتفون بقدر أقل من منتجات هذه الأعمال ، فعندما تتوفر كل هذه السلع ، فإنهم أحياناً يأخذون جمعاً غفيراً من الناس لترميم أية طرق عامة تحتاج إلى ترميم . وفى كثير من الأحيان ، أيضاً ، عندما لا يكون هناك شىء حتى من هذه الأعمال ، فإنهم يصدرون بياناً للشعب بتخفيض ساعات العمل . ذلك أن السلطات لا تجبر المواطنين على القيام بأعمال غير ضرورية ، لأن دستور دولتهم يهدف فى المكان الأول إلى أنه فيما يتعلق بالمواطنين جميعاً ، وبقدر ما تسمح به حاجات الشعب ، يجب توفير أكبر قدر ممكن من الوقت الذى يقضى فى خدمة الجسد ، وتخصيصه لحرية العقل وتثقيفه . فهم يعتقدون أن فى ذلك سعادة الحياة .

العلاقات الاجتماعية

أما الآن فيجب أن أوضح لكم كيف يتعامل المواطنون فيما بينهم ، وطبيعة علاقتهم الاجتماعية وطرق توزيع السلع . لما كانت المدينة تتكون من أسر ، فالأسرة تتكون من أولئك الذين تربط بينهم رابطة الدم . فالفتيات ، عندما تكتمل أنوثتهن ويتزوجن ، يذهبن إلى بيوت أزواجهن . أما الأبناء الذكور ، ثم الأحفاد ، فيبقون

فى الأسرة ويخضعون لأكبر الآباء سناً ، إلا إذا شاخ وخرف ، وفى هذه الحالة يخلفه من يليه سنًّا . وحتى لا يزيد عدد سكان المدينة أو ينقص عن الحد المعين ، فمن المقرر ألا ينقص عدد البالغين فى كل أسرة عن عشرة أو يزيد على ست عشرة ، وهناك ستة آلاف أسرة فى كل مدينة ، فيما عدا الأراضى المحيطة بها . أما فيما يتعلق بالأطفال تحت السن المحددة ، فليس هناك عدد محدد ، بالطبع . ويمكن مراعاة هذا الحد بسهولة عن طريق نقل أولئك الذين يزيدون على العدد المحدد فى العائلات الكبيرة إلى تلك التى تقل عنه . أما إذا زاد العدد فى المدينة بأكملها على العدد المطلوب ، فتستخدم الزيادة فى عدد البالغين لسد نقص السكان فى المدن الأخرى . أما إذا زاد عدد السكان فى الجزيرة كلها على الحد المعين ، فإنهم يختارون عدداً من المواطنين من كل مدينة ويقيمون لهم مستعمرة تخضع لقوانينهم على جزء من أرض القارة المجاورة لهم ، فى مكان تكثر فيه لدى السكان الأصليين الأرض غير المأهولة وغير المزروعة . وإن أراد السكان الأصليون أن يسكنوا معهم سمحوا لهم بالانضمام إليهم . وعندما يتم هذا الاتحاد ، يندمج الفريقان معاً تدريجيًّا وبسهولة ويتبعان نفس طرق الحياة ونفس العادات ، بما فيه فائدة الشعبين . وباستخدام الأساليب التى يستخدمونها فى بلادهم يجعلون الأرض تدر ما يكفيهما معاً ، تلك الأرض التى بدت من قبل لسكانها الأصليين فقيرة جدباء . أما إذا رفض هؤلاء السكان طاعة قوانين اليوتوبيين ، فإنهم يطردونهم من الأرض التى اختاروها لأنفسهم ، فإذا قاوموا ، شنوا عليهم الحرب . فهم يعتبرون أن أعدل مبرر للحرب هو أن يتمسك قوم بقطعة من الأرض لا يستغلونها بل يتركونها بوراً ، ويمنعون غيرهم من استخدامها وتملكها بالرغم من قانون الطبيعة الذى يجيز لهم أن يعيشوا عليها . أما إذا أدت كارثة

(١) سن الزواج : سن ٢٢ للرجال ، ١٨ للنساء .

إلى انخفاض عدد السكان فى مدينة من مدنهم ولم يتيسر إعادته إلى العدد المحدد بجلب مواطنين من الأجزاء الأخرى للجزيرة دون خفض عدد سكان المدن الأخرى عن العدد المطلوب (وطبقاً لما يقولون لم يحدث ذلك سوى مرتين فى جميع العصور وكان ذلك نتيجة لانتشار وباء فتاك) فيسد النقص عن طريق المواطنين العائدين من الأراضى المستعمرة . فهم يفضلون أن تهلك المستعمرات عن أن تضعف مدينة من مدن الجزيرة .

أما الآن فلنعد إلى علاقات المواطنين . يحكم الأسرة كما قلت أكبر الأفراد سنًّا وتسهر الزوجات على راحة أزواجهن ، ويسهر الأبناء على راحة آبائهم ، وباختصار يسهر الأصغر سنًّا على راحة الأكبر . وتقسم كل مدينة إلى أربع مناطق متساوية . وفى وسط كل منطقة سوق لجميع المنتجات . وتحضر كل أسرة منتجاتها إلى مبان معينة بالسوق . ويوضع كل نوع من السلع فى مخازن مستقلة . ومن هذه يأخذ رب كل أسرة كل ما يحتاج إليه هو وأسرته ويحمله معه دون دفع مال أو بديل . إذ لماذا يمنع شىء عن أحد ؟ فى المكان الأول تتوفر كميات كبيرة من كل شىء ، وفى المكان الثانى لا يُخشى من أن يطلب شخص أكثر مما يحتاج إليه . فلماذا يشك أحد فى أن شخصاً سيطلب كمية أكبر مما يحتاج إليه مادام واثقاً من أنه لن يفتقر إلى شىء على الإطلاق ؟ فمما لا شك فيه أن الجشع والطمع منشأهما فى كل نوع من الكائنات الحية هو الخوف من الحاجة ، أما فى الإنسان وحده فالدافع إليهما هو الكبرياء وحدها : الكبرياء التى ترى مجداً شخصيًّا فى التفوق على الغير فى استعراض الممتلكات التى لا نفع منها . وهذه رذيلة لا مكان لها مطلقاً فى أسلوب حياة اليوتوبيين .

وبجوار السوق التى ذكرتها توجد أسواق الطعام . وإلى هنا يأتى المواطنون

لا بالأنواع المختلفة من الخضراوات والفواكه والخبز فقط ، بل بالأسماك أيضاً وكل ما يصلح للأكل من الطيور أو الدواب ذوات الأربع . ولكنها تغسل قبل ذلك من الدم والفضلات فى المياه الجارية خارج المدينة فى أماكن مخصصة لذلك . وتنقل الذبائح من هناك بعد أن يقوم العبيد بذبحها وتنظيفها . فهم لا يسمحون للمواطنين بالتعود على ذبح الحيوان ، إذ يظنون أن ممارسة ذلك تقلل تدريجياً من الشعور بالرحمة وهى أروع مشاعر الطبيعة الإنسانية . كما أنهم لا يسمحون بإحضار أى شىء قذر أو غير نظيف إلى المدينة ، لئلا يتلوث الهواء برائحة التعفن ، فيؤدى ذلك إلى الأوبئة .

وبكل شارع قاعات فسيحة ، تقع كل منها على مسافة متساوية من الأخرى وتعرف كل منها باسم خاص بها . وفى هذه القاعات يقيم رؤساء المدينة أو السيفوجرانت وتخصص قاعة لكل ثلاثين أسرة ، خمس عشرة أسرة على كل جانب ، يتناولون الطعام فيها ، ويلتقى مديرو كل قاعة فى وقت محدد فى السوق لإحضار الطعام كل تبعاً لعدد الأشخاص الذين يرعاهم .

وتوجه عناية خاصة أولا للمرضى الذين يعالجون فى المستشفيات العامة . وتوجد منها أربعة على حدود المدينة ، على مسافة صغيرة خارج الأسوار . والمستشفيات فسيحة حتى تكاد تضاهى كثيراً من المدن الصغيرة . أما السبب فى اتساعها فسبب مزدوج . وهو ألا يشعر المرضى مهما بلغ عددهم بعدم الراحة نتيجة لازدحام المكان بهم أولا ، وحتى يمكن عزل أولئك المصابين بأمراض معدية بعيداً عن الآخرين ما أمكن ذلك ثانياً . وهذه المستشفيات مجهزة تجهيزاً حسناً ، ومزودة بجميع اللوازم الصحية . وعلاوة على ذلك ، فقد زودت بالعناية الفائقة والعلاج الدقيق ، والتواجد الدائم للأطباء المتمرسين ، لدرجة أنه بالرغم من أنه لا يرسل إليها أحد على غير

إرادته ، فإنه لا يكاد يوجد شخص يعانى من مرض فى المدينة بأكملها ، لا يفضل أن يعالج فى المستشفى عن أن يعالج فى بيته . وبعد أن يتسلم المشرف على المرضى الطعام الموصى به من الأطباء ، عندئذ يقسم أفضل جميع المأكولات بالتساوى بين القاعات تبعاً لعدد الأفراد فى كل منها ، فيما عدا الحاكم الذى يعامل معاملة خاصة ، وكذلك الكاهن الأعلى ، والرؤساء الأول ، وكذلك السفراء وجميع الأجانب (إن وجد أحد منهم وإن كان لا يوجد منهم إلا القليل وفى أوقات متباعدة) . أما عندما يكونون فى يوتوبيا فتهيأ لهم منازل خاصة أيضاً . وفى هذه القاعات تجتمع الأسر الثلاثون أو السيفوجرانسى كلها فى الساعات المحددة للغداء والعشاء ، يدعوها لذلك صوت نفير نحاسى ، فيما عدا أولئك الذين يتناولون وجباتهم إما فى المستشفيات وإما فى بيوتهم . ولا يمنع أى شخص بعد أن يقدم الطعام للقاعات ، من أن يأخذ طعامه إلى بيته من السوق ، فهم يعرفون أن أحداً لن يفعل ذلك دون سبب معقول . لأنه بالرغم من أنه لا يمنع شخص من تناول الطعام فى بيته إلا أنه لا يوجد شخص يفعل ذلك راضياً ، إذ لا يعد هذا السلوك سلوكاً سوياً ، ولأنه من الحماقة أن يتجشم المرء مشقة إعداد وجبة رديئة بينما هناك وجبة ممتازة شهية معدة جاهزة فى القاعة القريبة منه .

وفى هذه القاعة يقوم العبيد بجميع الأعمال الدنيا التى تتطلب عملا شاقاً إلى حد ما أو تلوث اليدين . أما عملية الطبخ وإعداد الطعام ، وباختصار ، إعداد الوجبة بأكملها فتقوم به النساء وحدهن[1] ، نساء كل أسرة بالتناوب . ويجلس الأفراد إلى ثلاث موائد أو أكثر تبعاً لعدد الجماعة . ويجلس الرجال وظهورهم إلى الحائط ، أما النساء فيجلسن على الجانب الخارجى حتى إذا ما ألم بهن ألم أو

(١) أى بدون أعداد كبيرة من الخدم .

قىء ، كما يحدث أحياناً فى حالة الحوامل من النساء ، أمكنهن القيام بدون إزعاج لأحد ، والذهاب إلى المربيات .

أما المربيات فيجلسن وحدهن مع الأطفال فى حجرة للطعام مخصصة لهذا الغرض ، لا تخلو فى أى وقت من الأوقات من مدفأة وكمية من الماء النقى ومن المهود . وهكذا يمكن للنساء أن يرقدن أطفالهن ، وعندما يرغب الأطفال فى ذلك يخلعن عنهم ملابسهم ويتركهم يلعبون بحرية بالقرب من المدفأة . وتقوم كل أم بإرضاع أطفالها ، مالم يحل دون ذلك الموت أو المرض . فإذا حدث ذلك ، وجدت زوجات الرؤساء مرضعة ، دون أن يجدن فى ذلك صعوبة . والسبب هو أن من تستطيع من النساء القيام بهذه الخدمة ، تتقدم لذلك بحماس لأن هذا النوع من الشفقة ينال قدراً كبيراً من الثناء من الجميع ، ولأن الطفل الذى يرضع من مرضعة بديلة يعتبرها أمه الطبيعية . وفى الأماكن المخصصة للمربيات يوجد جميع الأطفال حتى سن الخامسة . أما بقية الأطفال والشباب من كلا الجنسين ممن هم دون سن الزواج ، فإما أن يقوموا بتقديم الطعام وإما أن يقفوا بالقرب من الموائد فى سكون تام ، إن لم يتوفر لهم السن اللازمة أو القوة اللازمة . ويأكل أفراد كل من المجموعتين ما يقدم لهم على المائدة وليس لهم وقت آخر لتناول الطعام .

ويجلس الرئيس أو السيفوجرانت وزوجته وسط المائدة الرئيسية ، وهو أعلى الأماكن ومنه يتسنى لهما رؤية الجماعة كلها ، إذ تقع هذه المائدة فى وضع أفقى فى الطرف البعيد لحجرة الطعام . وبجوارهما يجلس اثنان من أكبر الموجودين سناً ، إذ يجلس دائماً كل أربعة إلى مائدة . أما إذا كان هناك مكان للعبادة فى المنطقة أو السيفوجرانسية ، فيجلس الكاهن وزوجته مع السيفوجرانت ويرأس هو المائدة . وعلى الجانبين يجلس بعض الشباب ، ثم بعض الشيوخ مرة أخرى ، وهكذا فى

جميع أنحاء الدار ، يجلس من هم فى نفس السن معاً ، ولكنهم يختلطون مع من يختلفون عنهم فى السن . ويقولون إن السبب فى هذا النظام هو أن يحول سلوك الشيوخ الوقور المحترم بين الشباب وبين إباحية الحديث أو السلوك ، فمن المستحيل أن يصنع شىء على المائدة أو يقال شىء دون أن يلاحظه الشيوخ فى كل جانب . ولا تقدم صحاف الطعام بانتظام ابتداء من المائدة الأولى تليها ما بعدها ، بل تقدم أولا إلى جميع الشيوخ ، الجالسين فى أماكن بارزة . ثم تقدم أجزاء متساوية إلى الباقين . ويقتسم الشيوخ كما يرون ، جزءاً من أطايب طعامهم مع من يجلسون إلى جوارهم ، عندما لا يتوفر فى الدار ما يكفى منها للجميع . وهكذا ينال الشيوخ ما يستحقون من تكريم ، ومع ذلك يحصل الجميع على نفس القدر من الاهتمام .

وتبدأ كل وجبة غذاء أو عشاء بقراءة هادفة متصلة بالأخلاق وحسن السلوك على أن تكون قصيرة لا تؤدى إلى الملل . ويعرض الشيوخ ، استمراراً لما قرئ ، لمواضيع ملائمة للحديث ، لا هى بالقاتمة أو المملة . ولكنهم لا يستأثرون بالحديث طوال فترة الطعام ، بل يرحبون بسماع الشباب أيضاً ، والواقع أنهم يستدرجونهم إلى الحديث عمداً ، ليختبروا قدرة كل وشخصيته ، مما يتكشف فى جو المائدة الخالى من القيود . ووجبات الغداء لديهم قصيرة بعض الشىء . أما وجبات العشاء فأطول ، لأن وجبة الغداء يتبعها عمل ، أما وجبة العشاء فيتبعها النوم والراحة طوال الليل . ويظن اليوتوبيون أن هذه الراحة تساعد على سرعة الهضم . ولا يمر عشاء دون موسيقى ، ولا تفتقر الحلوى إلى شىء من الأطايب . وهم يحرقون البخور ، وينثرون العطور ، ولا يتركون شيئاً يمكن أن يدخل السرور إلى قلوب الجماعة إلا ويعملونه . فهم شديدو الميل بشكل مفرط بعض الشىء إلى هذا الاعتقاد :

وهو ألا يمنع نوع من أنواع المتعة ، لا ينجم عنه ضرر .

تلك هى الحياة العامة التى يعيشونها فى المدينة . أما فى الريف ، فلأنهم يعيشون متفرقين بعض الشيء كل عن جيرانه ، فإنهم جميعاً يتناولون الطعام فى بيوتهم . ولا تحتاج أية أسرة إلى أى نوع من المأكولات ، فجميع أنواع الطعام الذى يتناوله سكان المدن يأتى من عند أولئك الذين يعيشون فى الريف .

السفر فى يوتوبيا وأمور أخرى

إذا أراد بعض المواطنين إما زيارة أقارب لهم يقيمون فى مدينة أخرى وإما زيارة المدينة ذاتها ، أمكنهم الحصول بسهولة على إذن بذلك من رؤساء المدينة أو السيفوجرانت ومن الرؤساء الأول أو الترانيبور ، ما لم يكن هناك مانع قوى . وهكذا تتكون جماعة وترحل حاملة رسالة من الحاكم تشهد بحصولها على إذن بالسفر وتحدد يوم العودة . وتعطى الجماعة عربة وعبداً من عبيد الشعب يسوق الثيران ويعنى بها ، وما لم تكن بين الجماعة نساء ، فإنهم يستغنون عن العربة معتبرين أنها عبء وعائق . وبالرغم من أنهم لا يحملون شيئاً معهم ، فإنهم لا يحتاجون لشيء طوال رحلتهم ، فأينما حلوا فهم فى بيوتهم وبين أهلهم . فإذا مكثوا فى مكان أكثر من يوم واحد ، زاول كل منهم هناك حرفته ، التى يحسن أهلها وفادته . أما إذا جاوز شخص حدود إقليمه ، وأمسك به وليس معه شهادة من الحاكم ، فإنه يعامل باحتقار ، ويعاد كهارب ، ويعاقب بشدة . فإذا عاود بحماقة ارتكاب هذا الخطأ ، استحق الحكم عليه بأن يصبح عبداً . أما إذا تملكت شخصاً الرغبة فى استكشاف الأراضى التى تقع داخل حدود مدينته ، فلن يمنعه أحد من ذلك ، ما دام قد

حصل على إذن والده وموافقة زوجه . وأينما حل فى تلك الجهات ، فلن يعطى طعاماً إلا إذا أدى الجزء المخصص للصباح من عمل اليوم ، أو الجزء الذى يؤدى عادة قبل العشاء . فإذا ما راعى هذا الشرط ، أمكنه أن يذهب حيثما شاء داخل حدود الأرض التابعة لمدينته . فبهذه الطريقة لن يكون أقل نفعاً للمدينة مما لو كان بداخلها .

وهكذا ترون كيف تنعدم فرصة إضاعة الوقت فى أى مكان ، وكيف ينعدم المبرر لتفادى العمل فى أى مكان . فليس هناك مشارب أو حانات ، أو بيوت دعارة فى أى مكان ، ولا فرصة للفساد ، ولا وكر للاختباء ، ولا مكان سرى للقاء بل على العكس من ذلك ، لما كان كل شىء يعمل علنا ، تحت أعين الجميع ، فلا بد من أن يعمل الناس أعمالهم المألوفة ويستمتعوا بأوقات الفراغ بطريقة لا تخرج عن اللياقة .

ولما كان هذا هو الأسلوب العام للحياة فإنه يؤدى بالضرورة إلى توفر جميع الضروريات . ولما كانت هذه توزع بالتساوى بين الجميع ، فيتبع ذلك بالطبع ألا يصل أحد بينهم إلى درجة الفقر أو التسول . وفى مجلس أموروت ، الذى يرسل إليه ، كما أسلفت ، ثلاثة رجال سنوياًّ من كل مدينة ، يحددون أولا السلع التى تتوفر فى كل مكان ثم تلك الأماكن بالجزيرة التى كانت المحاصيل فيها أقل وفرة . ثم يكملون حالا نقص المكان الواحد بما هو فائض عن حاجة الآخر . ويقدمون هذه الخدمة مجاناً ، وبدون الحصول على مقابل من أولئك الذين يقدمونها لهم . ويحصل أولئك الذين قدموا جزءاً من رصيدهم إلى مدينة معينة دون مقابل ، على ما يحتاجون إليه من مدينة أخرى لم يعطوها شيئاً . . وهكذا ترى أن الجزيرة كلها تعيش كأسرة واحدة .

أما عندما يوفرون لأنفسهم المؤن الكافية (وهو ما لا يعتبرونه قد تم قبل أن يوفروا ما يكفى لمدة عامين تاليين ، وذلك لعدم ثقتهم بما سيكون عليه محصول السنة القادمة) فعندئذ يصدرون إلى البلاد الأخرى ، من الفائض لديهم ، كمية كبيرة من القمح ، والعسل ، والشحم ، والصوف ، والقطن ، والخشب ، والأصباغ الحمراء والقرمزية ، والجلود ، والشمع ، وكذلك الماشية . وهم يمنحون سبع كل هذه المؤن لفقراء المنطقة ثم يبيعون الباقى بسعر معتدل . وعن طريق هذه التجارة ، يجلبون إلى بلدهم لا تلك الأشياء التى يفتقرون إليها فقط ، علماً بأن الشىء الوحيد الذى يفتقرون إليه هو الحديد ، بل أيضاً كمية كبيرة من الفضة والذهب . ولأنهم قد مارسوا هذا التبادل بدون توقف منذ زمن بعيد فإن لديهم الآن فى كل مكان كميات وفيرة لا يصدقها العقل من هذه المعادن . ولذلك فهم لا يهتمون كثيراً سواء باعوا ما لديهم من سلع وحصلوا على الثمن فوراً أو مؤخراً ، وهو ما يحدث بالفعل بالنسبة للجزء الأكبر من مبيعاتهم . ولكنهم فى جميع عمليات البيع بالأجل ، لا يتعاملون قط مع الأفراد ، بل مع الحكومات المحلية ، على أن تحرر الوثائق القانونية كالمعتاد . وعند ما يحل يوم الدفع ، تجمع المدينة النقود التى يدين بها الأفراد وتضعها فى الخزانة وتستخدمها لحين يطلب اليوتوبيون دفعها . ولا يطلب اليوتوبيون أبداً رد الجزء الأكبر من هذا المال . فهم يحسبون أنه ليس من العدل فى شىء أن يأخذوا شيئاً لا يعود عليهم بالنفع بينما فيه نفع لغيرهم . أما إذا اقتضت الظروف أن يقرضوا جزءاً من هذا المال لشعب آخر ، أو اضطروا لشن حرب فإنهم يستردون ما لهم من ديون . فهذا هو السبب الوحيد الذى يحتفظون من أجله بكل الأموال التى يملكونها فى بلادهم : لتكون سنداً قوياً لهم فى حالة الأخطار الكبرى أو الطوارئ المفاجئة. وهم يستخدمون تلك الأموال خاصة

لاستئجار المرتزقة الأجانب بأجور باهظة . فهم يفضلون أن يعرضوا هؤلاء للخطر عن أن يعرضوا مواطنيهم ، وهم يعلمون تمام العلم أنه يمكنهم بمبالغ كبيرة من المال لا استئجار المرتزقة فحسب بل أيضاً شراء أعدائهم أو بيعهم أو الإيقاع بينهم بحيث يحاربون بعضهم البعض ، إما عن طريق الخيانة وإما عن طريق الحرب العلنية . ولهذه الأغراض العسكرية ، يحتفظون بكميات طائلة من المال ، وليس بهدف كنز الثروة . وهم يحتفظون بها بطريقة ، أخجل حقاً من الكشف عنها ، خوفاً من ألا تصدقوا كلماتي . وأخشى ذلك بالأكثر ، لأني أحس أنه ما لم أكن قد عشت هناك وشهدت بعيني تلك الظاهرة ، لكان من الصعب إقناعي شخصياً بتصديقها ، إذا رواها لي شخص آخر . فمن الحتمي دائماً تقريباً أنه بقدر ما يكون الشيء مخالفاً لطرق حياة السامعين ، بقدر ما يصعب تصديقهم له . ومهما يكن الأمر فإن الشخص الذي يقدر الأمور حق قدرها دون تحيز ، والذي يرى أن جميع نظمهم تختلف إلى هذا الحد عن نظمنا ، ربما يعجب بدرجة أقل لاستخدامهم الفضة والذهب بشكل يتلاءم مع أسلوب حياتهم أكثر منه مع أسلوب حياتنا . فهم أنفسهم لا يستخدمون المال ، كما بينا ، وإنما يحتفظون به فقط لاستخدامه عند الحاجة ، وقد يدعو الأمر لاستخدامه بالفعل ، وقد لا يحدث ذلك قط .

أما فيما عدا ذلك ، فينظرون إلى الذهب والفضة ، التي تصنع منهما النقود ، نظرة من لا يقدرهما أكثر مما تستحقه طبيعتهما الحقيقية . فمن ذا الذي لا يرى أن فائدتهما تقل كثيراً عن فائدة الحديد ما دام بنو البشر لا يستطيعون الحياة بغير حديد أكثر مما يستطيعونها بدون ماء أو نار ؟ أما الذهب والفضة ، فلم تمنحهما الطبيعة تلك الفائدة التي لا يمكننا الاستغناء عنها ، ما لم تكن حماقة الإنسان قد جعلت منهما

أشياء قيمة لأنها أشياء نادرة . ومن ناحية أخرى ، فقد كشفت الطبيعة للعين ، كأم بالغة الحنان والكرم ، أفضل الأشياء ، مثل الهواء والماء والأرض ذاتها ، ولكنها أخفت عنا ما أمكن ذلك، كل ما هو باطل وغير نافع من الأشياء . فإذا ما حفظت هذه المعادن فى حرز فى قلعة ما ، فى يوتوبيا ، فقد يشك البعض فى أن الحاكم والمجلس يخدعان الشعب بخطة ما ويحصلان على فائدة من ذلك (فمثل هذه التخيلات الحمقاء هى التى تراود خيال عامة الشعب) . وفضلا عن ذلك ، إذا ما صنعت منها آنية للشرب وغيرها من الأشياء الجميلة الصنع ، ودعت الضرورة إلى صهر هذه الأشياء مرة أخرى واستخدامها لدفع أجر الجند ، فهم يدركون أن أفراد الشعب لن يرضوا بحرمانهم من أشياء قد أخذوا فى الاعتزاز بها . فلتجنب هذه الأخطار إذن ، اكتشفوا وسيلة بقدر ما تتفق ونظمهم الأخرى ، بقدر ما هى مخالفة جداً لنظمنا ، ذلك أننا نقدر الذهب كل هذا التقدير ونحرص كل الحرص على تأمينه ، ولذا فإن هذه الوسيلة عسرة التصديق إلا لأولئك الذين جربوها . فبينما يأكلون ويشربون من آنية من الفخار والزجاج ، رائعة الصنع ولكنها قليلة القيمة ، فإنهم يصنعون من الذهب والفضة « القصارى » وأحط الأوانى للاستعمال فى كل مكان ، لا فى القاعات العامة فحسب بل فى المنازل الخاصة أيضاً . وفضلا عن ذلك ، فهم يستخدمون هذه المعادن عينها لصنع الأغلال والقيود الثقيلة التى يوثقون بها العبيد ، وأخيراً ، فإن كل من يرتكب جرماً فيجلب العار على نفسه ، يعلقون الحلى الذهبية فى أذنيه ، ويضعون الخواتم الذهبية حول أصابعه ، والسلاسل الذهبية حول رقبته ، وأخيراً تاجاً ذهبياً على صدغيه . وهكذا يجعلون ، بكل وسيلة فى متناول اليد ، من الذهب والفضة علامة للعار والخزى . ونتيجة لهذه الطريقة أيضاً ، فبينما يعد فقد هذه المعادن فى جميع الشعوب الأخرى سبباً للحزن العميق

وكأن فى فقدها فقد أهم أسباب الحياة ، فنى يوتوبيا إذا ما دعت الظروف إلى فقد جميع الذهب والفضة ، فلن يشعر أحد بفقد مقدار مليم واحد . ويجمع اليوتوبيون اللآلىء أيضاً من شاطىء البحر ، والماس والعقيق من بعض الصخور ، ولكنهم لا يخرجون للبحث عنها ، فإذا وجدوها صدفة ، صقلوها ، وزينوا بها صغارهم . ويفرح هؤلاء الصغار ويفخرون بهذه الحلى فى السنوات الأولى من طفولتهم ، ولكنهم ما أن يشبوا عن الطوق ويدركوا أن مثل هذه اللعب لا يلبسها إلا الأطفال ، حتى يخلعوها خجلا ، دون أن يأمرهم بذلك ذووهم ، كما يفعل أطفالنا عندما يكبرون ، ويلقون بعيداً بلعبهم ودماهم وبليهم . أما أية أفكار ومشاعر مضادة يمكن أن تخلقها العادات المختلفة كل هذا الاختلاف عن عادات الشعوب الأخرى ، فهذا ما لم أدركه بهذا الوضوح إلا فى حالة السفراء الأنيموليين [١] .

جاء هؤلاء السفراء إلى يوتوبيا أثناء إقامتى هناك ، ولأنهم جاءوا لمعالجة أمور هامة ، فقد اجتمع الممثلون الثلاثة لكل مدينة قبل ظهورهم للقائهم . أما جميع سفراء البلاد المجاورة الذين كانوا قد زاروا يوتوبيا من قبل فكانوا يعرفون أسلوب حياة اليوتوبيين ويعلمون أنهم لا يقيمون وزناً للملابس الثمينة بل يحتقرون الحرير ويعتبرون الذهب علامة للعار . ولذا فكانوا يأتون عادة فى أبسط الملابس . أما الأنيموليون الذين يقيمون على مسافة منهم أكبر من هؤلاء ، وكانت معاملاتهم معهم أقل ، وقد سمعوا أن الجميع فى يوتوبيا يلبسون نفس الزى ، وهذا الزى بسيط خشن أيضاً ، فقد حسبوا أنهم لا يملكون ما لا يستعملون . ولما كان كبرياؤهم قد جاوز حكمتهم ، فقد قرروا أن يظهروا بمظهر الآلهة بملابسهم الفخمة ،

---

(١) الانيموليون (Anemolians) : كلمة مشتقة بمعنى « المغرورون المتقلبون » : أصلا « الممتلئون هواء » .

ويبهروا أعين اليوتوبيين المساكين بحليهم الفاخرة . وهكذا دخل السفراء الثلاثة بأبهة كبيرة ، يتبعهم مائة تابع يرتدون جميعاً الملابس المتعددة الألوان ، ويلبس معظمهم الحرير . أما السفراء أنفسهم ، وهم من نبلاء بلادهم ، فكانوا يرتدون ملابس من نسيج الذهب ، ويتحلون بعقود وأقراط ذهبية ثقيلة ، ويحلون أصابعهم بالخواتم الذهبية ، وقبعاتهم بعقود من اللآلئ والجواهر ، وباختصار ، فقد تحلوا بجميع تلك الأشياء التى تعد لدى اليوتوبيين عقاباً للعبيد أو علامة عار وخزى للمجرمين أو لعباً يلهو بها الصغار .

وهكذا كان منظرهم — وهم يختالون زهواً وهم يقارنون ملابسهم الفاخرة بملابس اليوتوبيين ، الذين امتلأت بهم الشوارع لرؤية السفراء — منظراً يستحق المشاهدة . ومن ناحية أخرى فقد كان من الممتع أيضاً أن تلاحظ كيف خابت آمالهم وتوقعاتهم وإلى أى حد كانوا أبعد ما يكون عن إثارة الاهتمام الذى كانوا يتوقعون إثارته . ففى أعين اليوتوبيين جميعاً ، فيما عدا قلة قليلة جداً ممن قد زاروا البلاد الأجنبية لأسباب مقبولة ، بدأ كل هذا الاستعراض الصارخ أمراً مخجلا . ولذا فقد حيوا أحط أفراد الجماعة وكأنهم الرؤساء ، وظنوا السفراء أنفسهم عبيداً لأنهم يلبسون السلاسل الذهبية ، فتجاهلوهم دون أى تكريم . ومما كان يستحق المشاهدة منظر الأطفال ممن كانوا قد تخلصوا من الجواهر واللآلئ ، وهم يلكزون أمهاتهم ، عندما رأوا هذه الأشياء على قبعات السفراء ، قائلين : انظرى يا أماه هذا العملاق الأحمق الذى ما زال يلبس اللآلئ والجواهر وكأنه صبى صغير . فتقول الأم ، بكل جدية أيضاً : صه يا بنى . أعتقد أنه أحد مهرجى السفراء . بينما يشير آخرون إلى سلاسلهم الذهبية قائلين إنها عديمة الفائدة ، فهى رقيقة جداً يستطيع العبد أن يكسرها بسهولة ، وفضفاضة بحيث يمكنه عندما يريد أن يلقى بها بعيداً ويفر حراً طليقاً .



أما بعد أن قضى السفراء هناك يوماً أو يومين ورأوا كمية ضخمة من الذهب ينظر إليها بغير اهتمام وبقدر عظيم من الازدراء يساوى نفس القدر من التقدير الذى ينظرون هم به إليها فى بلادهم ، كما رأوا أن كمية الذهب والفضة التى تصنع منها سلاسل وأغلال عبد هارب واحد تزيد عن جميع ما يلبسه ثلاثتهم معاً ، فقد أخذت الثقة تزايلهم ، وخلعوا بخجل تلك الأشياء الفاخرة التى أرادوا بزهو أى يلفتوا بها الأنظار ، وخاصة بعد أن قرب الحديث بينهم وبين اليوتوبيين وعرفوا طرق حياتهم وآراءهم .

يعجب اليوتوبيون من أن إنسانا يجد لذة فى اللمعان الخافت لجوهرة صغيرة أو حجر كريم بينما يمكنه أن ينظر إلى النجوم ، بل إلى الشمس ذاتها . يعجبون من أن رجلا تبلغ به الحماقة حداً يجعله يظن نفسه أكثر نبلا عن غيره نتيجة لارتدائه لنسيج من الصوف أرفع تيلة ، ما دام الصوف مهما بلغ نسيجه من الرفع ، فقد كان يلبسه فى وقت من الأوقات خروف ، ومع ذلك فلم يكن طوال الوقت سوى خروف . ويعجبون أيضاً من أن الذهب ، الذى هو بطبيعته معدن عديم الفائدة ، يقدر فى كل مكان فى العالم كل هذا التقدير ، حتى إن الإنسان ذاته الذى وَجَد الذهب ، والذى وُجد الذهب من أجل منفعته ، يُعدّ أرخص بكثير من الذهب ذاته ، وذلك إلى الحد الذى يجعل شخصاً غبياً ، لايزيد ذكاؤه على ذكاء لوح من الخشب ، ويتسم بعدم الأمانة كما يتسم بالحماقة ، يستعبد الكثير من الرجال الحكماء والأخيار لمجرد أن فى حوزته كومة كبيرة من العملات الذهبية . فإذا ما حدث نتيجة حادث عارض أو حيلة قانونية (وهى لا تقل عن الحادث العارض احتمالا فى الخلط بين الرفيع والدنىء) أن انتقل هذا الذهب من هذا السيد إلى أحط وغد فى الأسرة كلها ، فسيتحول هذا السيد بكل تأكيد إلى خدمة خادمه السابق ، وكأنه مجرد زائدة وإضافة

لتلك العملات . ولكنهم يعجبون أشد العجب و يكرهون أشد الكره حماقة الأشخاص الذين يكرمون الأغنياء الذين لايدينون لهم بشيء ولايخضعون لهم لسبب سوى لأنهم أغنياء ، يكرمونهم تكريمًا يكاد يبلغ حد العبادة . ومع ذلك فهم يعلمون أنهم من الخسة والبخل بحيث أنهم على تمام الثقة من أنه مهما طال العمر بهؤلاء الأغنياء من الرجال ، فلن يحصلوا منهم على مليم واحد من كل تلك الكمية الكبيرة من المال .

وقد اعتنق اليوتوبيون هذه الآراء وما شابهها نتيجة لتنشئتهم ، فقد نشأوا فى دولة نظمها أبعد ما تكون عن تلك الحماقات المذكورة من ناحية ، ونتيجة التعليم والتهذيب وقراءة الكتب الجيدة من ناحية أخرى . فبالرغم من أنه لا يوجد فى كل مدينة كثير ون ممن يعفون من جميع الأعمال و يعينون للدراسة وحدها ، أى من أولئك الأفراد الذين اكتشفوا فيهم ، منذ الطفولة ، شخصية فريدة ، وذكاء خارقًا ، وميلا عقليًا ، إلا أن الأطفال جميعًا يتعرفون على الأدب الجيد . و يخصص جزء كبير من الشعب أيضًا ، رجالا ونساء على حد سواء ، طوال حياتهم ، ساعات الفراغ التى تخلو من العمل اليدوى ، كما بينا ، للعلم .

و يتلقى اليوتو بيون العلم فى جميع فروع المعرفة بلغتهم الأصلية . وهى لغة غنية بمفرداتها ، حلوة الوقع على الأذن ، وأداة صادقة للتعبير عن الفكر ، وتكاد تكون مشابهة تمامًا للغة السائدة فى جزء كبير من ذلك الجزء من العالم ، إلا أنها فى غير يوتو بيا من البلاد قد شوهت بدرجات متفاوتة فى الأقاليم المختلفة .

ومن بين جميع أولئك الفلاسفة الذائعى الصيت فى هذا الجزء من العالم المعروف لنا لم يكن اسم واحد معروفاً فى يوتوبيا قبل وصولنا إلى هناك . ومع ذلك ففى

الموسيقى والجدل[١]، والحساب ، والهندسة ، قد توصلوا إلى نفس الاكتشافات تقريبا الذى توصل إليها أسلافنا فى العالم القديم . ولكن بينما حققوا نفس المستوى الذى حققه القدماء فى جميع العلوم تقريباً ، إلا أنهم أبعد ما يكون عن الوصول إلى المستوى الذى بلغته اكتشافات علماء المنطق المحدثين[٢] عندنا . والواقع أنهم لم يخترعوا واحدة من تلك القواعد البالغة الحذق والخاصة بالتحديدات والتكبيرات والافتراضات ، مما يتعلمه أطفالنا فى كل مكان فى « المنطق الصغير »[٣] . وفضلا عن ذلك فهم يفتقرون تماما إلى القدرة على مناقشة الأهداف الثانية لدرجة أنه ما من واحد منهم يستطيع أن يرى حتى الإنسان نفسه كمطلق — كما يسمونه — مهما كان ، كما تعلمون ، أضخم وأكبر من أى عملاق ، ويمكن أن يشار إليه أيضا بالبنان .

ولكنهم ذوو خبرة عظيمة بمسيرات النجوم وتحركات الأجرام السماوية . وبالإضافة إلى ذلك فقد صمموا بحذق أدوات مختلفة الأشكال ، أمكنهم بواسطتها أن يحددوا بكل دقة تحركات ومواقع الشمس والقمر وجميع النجوم الأخرى التى ترى فى أفقهم . أما فيما يختص باتفاق الكواكب واختلافها ، وباختصار جميع أنواع التنجيم الخادع المخجل ، فذلك ما لا يحلمون به على الإطلاق . أما التنبؤ

(١) يشيرسيرتز إلى أنهم يستخدمون الجدل كأداة وليس كهدف فى ذاته ، على طريقة الإنسانيين .

(٢) يعنى المدرسيين .

(٣) «المنطق الصغير» : *Small Logicals* : من تأليف بطرس الإسبانى. من الواضح أن توماس مور يسخر من الاهتمام المفرط بهذه الأمور .

بالأمطار والرياح، وجميع التغيرات الجوية الأخرى، فذلك أمر يتقنونه نتيجة للخبرة الطويلة . أما عن أسباب جميع هذه الظواهر الطبيعية ، والمد والجزر ، وملوحة البحر ، وباختصار ، أصل وطبيعة السموات والعالم ، فهم يعتنقون نفس الآراء التى يعتنقها فلاسفتنا القدماء إلى حدما . أما فيما يتعلق بما يقدمون من نظريات جديدة ، فهم يختلفون معهم جميعًا إلى حد ما ، كما يختلف هؤلاء فيما بينهم ، ومع ذلك فهم لا يتفقون بشأن جميع الأمور مع زملائهم من الفلاسفة اليوتوبيين .

أما ذلك الجزء من الفلسفة الذى يعالج الأخلاقيات ، فيواصلون مناقشته كما نفعل نحن . فهم يتناولون الخير : خير الروح والجسد ، والهبات الخارجية . ويتساءلون إذا كان من الممكن أيضًا إطلاق اسم الخير على جميع هذه الأشياء الثلاثة ، أو على صفات الروح وحدها . ويناقشون الفضيلة واللذة ، ولكن الموضوع الأهم والرئيسى للجدل عندهم هو الأمر أو الأمور التى يرون أنها تشكل السعادة . ويبدو أنهم فى هذا الشأن يميلون أكثر مما ينبغى إلى تلك المدرسة التى تقول بأن اللذة هى الهدف الذى يحدد إما السعادة الإنسانية كلها وإما الجزء الرئيسى منها . أما ما يدعو إلى العجب بدرجة أكبر فهو محاولتهم الدفاع عن هذه العقيدة اللينة : عن طريق دينهم ، وهو دين جاد ، متشدد ، لدرجة الصرامة والصلابة تقريبا . فهم لا يجرون مناقشة فلسفية دون أن يربطوا بين بعض المبادئ المأخوذة من الدين وبين البعض المأخوذ من الفلسفة ، التى تستخدم الحجج العقلية . فهم يظنون أنه بدون هذه المبادئ يعد العقل وحده ضعيفًا وقاصراً عن بحث السعادة الحقيقية وإليكم بعض أمثلة هذه المبادئ : إن الروح خالدة ، وإنها من كرم الله قد خلقت للسعادة ، وإننا سنلقى فى الحياة الأخرى الجزاء عن فضائلنا وأعمالنا الصالحة ، والعقاب على جرائمنا وأخطائنا . وبالرغم من أن هذه المبادئ متعلقة بالدين ، إلا

أنهم يرون أن تأييدها بالحجج العقلية يدعو الناس إلى تصديقها والاعتراف بها . أما إذا استبعدت هذه المبادئ فإن اليوتوبيين لا يترددون فى القول بأنه من الغباء ألا يسعى المرء للحصول على اللذة بكل الطرق ، شرها وخيرها ، وأن يحرص فقط على ألا يجعل لذة أصغر تعوق لذة أكبر أو أن يجرى وراء لذة تجلب فى أعقابها ألماً . أما أن يسعى المرء وراء الفضيلة الصارمة المؤلمة ، ولا يستبعد حلاوة الحياة فحسب ، بل يتحمل أيضا طواعية الألم الذى لا يرجو من ورائه نفعًا (إذ أى نفع يمكن أن تجنيه إذا ما كنت بعد الموت لا تجنى شيئًا بعد أن تكون قد قضيت حياتك كلها دون لذة ، أى فى شقاء ؟) فهذا ما يعتبرونه أقصى درجات الجنون .

وحقيقة الأمر أنهم يرون أن السعادة لا توجد فى جميع أنواع اللذة ، بل فى اللذة الخيرة ، الشريفة فقط . وإلى مثل هذه اللذة كما إلى الخير الأعلى ، تنجذب طبيعتنا بالفضيلة ذاتها ، التى تعزو المدرسة المضادة السعادة إليها وحدها ، ويعرف اليوتوبيون الفضيلة بأنها الحياة تبعًا للطبيعة ، ما دام الله قد خلقنا لهذا الغرض . فهم يقولون إن الفرد الذى يتبع نداء الطبيعة هو ذلك الفرد الذى يطيع نداء العقل ، متمثلا فى رغبته فى شىء ما ، وتجنبه لشىء آخر . فالعقل أساساً يذكى فى نفوس الناس حب القدرة الإلهية وتقديسها ، فلها ندين بوجودنا وبقدرتنا على السعادة ، أولا . ويحدو بنا ويحفزنا على أن نحيا حياة خالية من الهم ومليئة بالفرح ما أمكن ذلك ، ثانيًا ، وأن نعاون ، من أجل إخوتنا الطبيعية ، جميع الآخرين أيضًا ، لتحقيق نفس الهدف . فما من رجل من أنصار الفضيلة ، وأعداء اللذة ، بلغت به الصرامة والشدة حدًّا يجعله يحمّلك العمل الشاق ، والسهر ، والعناء ، ولا يأمرك فى نفس الوقت أن تفعل كل ما فى وسعك للتخفيف من فقر الآخرين وشقائهم . وسيطلب إليك أن تعتبر أنه من الجدير بالثناء باسم الإنسانية ، أن يعمل الرجل على سعادة غيره من

الرجال وراحتهم . فإذا كان من الأعمال الإنسانية بوجه خاص (والإنسانية هى الفضيلة المميزة للإنسان) أن يخفف المرء من شقاء الآخرين ، وينزع الحزن من حياتهم ، ويعيدهم إلى الاستمتاع بالحياة ، أى إلى اللذة ، لماذا ، إذن لا تحث الطبيعة كل شخص لأن يفعل نفس الشيء من أجل ذاته أيضاً ؟

فإما أن حياة الفرح ، أى حياة اللذة ، شريرة ، وفى هذه الحالة ، لن يكون من واجبك ألا تساعد أحداً على تحقيقها فحسب ، بل أن تبعد كل إنسان عنها بحجة أنها ضارة ومميتة ، ما أمكنك ذلك ، وإما ، إذا لم يكن من الجائز فقط ، بل من الواجب أيضاً أن توفرها للغير كشئ طيب ، إذن فلماذا لا توفرها بادئ ذى بدء لنفسك ، التى يجب ألا تهتم بها أقل مما تهتم بالغير ؟ فعندما تأمرك الطبيعة بأن تكون كريما مع الغير ، فإنها لا تأمرك على العكس من ذلك بأن تكون قاسياً على نفسك غير رحيم بها . وهكذا فإن الطبيعة ذاتها ، كما يقولون ، تقضى بأن تكون حياة الفرح ، أو بمعنى آخر ، اللذة هدفاً لجميع أعمالنا ، ويعرفون الفضيلة بأنها الحياة تبعا لما تقضى به الطبيعة علينا .

وهكذا ، تدعو الطبيعة الناس جميعاً لأن يساعد الواحد منهم الآخر لتحقيق حياة أكثر سروراً (ومن المؤكد أنها تفعل ذلك لسبب وجيه ، فما من رجل واحد يرتفع عن مستوى البشر جميعاً بحيث يكون هو وحده موضع عناية الطبيعة ، ما دامت توزع اهتمامها بالتساوى بين جميع أولئك الذين وهبتهم الشكل نفسه) ونتيجة لذلك فمن المؤكد أن الطبيعة تأمرك أن تحرص دوماً على ألا تعمل على الإضرار بمصالح إخوتك من بنى البشر ، فى سبيل تحقيق منفعتك الشخصية .

ومن هنا ، يرون أنه من الواجب احترام ، لا العقود التى تبرم بين الأفراد فحسب ،

بل أيضاً القوانين العامة ، الخاصة بتوزيع السلع الحيوية ، أى مادة اللذة[1] ، على شرط أن تكون هذه القوانين من صنع ملك صالح ، أو أقرتها جموع الشعب لا عن طريق القهر والإرهاب ، ولا عن طريق الغش والخداع . فمادمت لا تخل بهذه القوانين ، فمن العقل أن ترعى مصالحك ، وأن ترعى مصالح الشعب فضلا عن ذلك ، فى هذا علامة الإخلاص . أما أن تحرم الغير من اللذة ، لتحقق اللذة لذاتك ، فهذا ظلم بيّن . وعلى العكس من ذلك ، أن تأخذ شيئاً من عندك وتعطيه للغير ، فواجب من واجبات الإنسانية والمروءة ، التى لا تأخذ منفعة أبداً ، دون أن تردها . فأنت تعوض عن ذلك بعودة النفع إليك ، وأيضا بالإحساس الذاتى بالعمل الصالح . فتذكّر حب وحسن نية أولئك الذين أسديت إليهم معروفاً يمنح العقل قدراً من اللذة أكبر من اللذة الجسدية التى حرمت نفسك منها . وأخيراً فإن الله يكافئ التضحية بلذة قصيرة صغيرة ، بفرح عظيم لا ينتهى — وذلك ما يستطيع الدين أن يقنع به بسهولة الذهن المستعد للقبول — ولذا فهم يقولون ، بعد أن درسوا الأمر ووزنوه بعناية ، إن جميع أعمالنا ، وحتى جميع الفضائل التى تمارس فى مزاولة هذه الأعمال ، ترى فى اللذة ، فى نهاية الأمر ، هدفها وسعادتها .

أما اللذة فيعنون بها كل حركة وحالة للجسم أو العقل ، يجد فيها الإنسان سروراً طبيعياً . وهم على حق فيما يذهبون إليه من اعتبار جميع ميول الإنسان الطبيعية ضمن ذلك . فكما أن الحواس والعقل السليم تسعى إلى كل ما هو سار بالطبيعة أى

---

(١) مادة matter وهى تعبير أرسطى مدرسى بمعنى عنصر اللذة غير المحددة ، ولكن يمكن تحديده (الطعام والملبس والمسكن .. الخ) بعكس شكل اللذة (وهو إما الملكية الخاصة أو الشيوعية) .

انظر : Edward Surtz, op. cit., p. 94.

يوتوبيا

كل ما لا يسعى إليه المرء عن طريق ارتكاب خطأ ، أوما لا يؤدى إلى فقدان شيء أكثر جلبًا للسرور ، أو لاينتج عنه ألم ، كذلك فإنهم يرون أنه مهما كانت الأشياء التى يتصور البشر عن طريق التصور الباطل أنها حلوة بالرغم من أنها تخالف الطبيعة (وكأن بوسعهم تغيير طبيعة الأشياء كما يغيرون أسماءها) ، فإنها أبعد ما تكون عن تحقيق السعادة بل هى عقبة كبيرة فى سبيلها . ذلك أن هذه الأشياء تتملك أذهان أولئك الأشخاص التى تربعت بها عن طريق فكرة خاطئة عن اللذة بحيث لم يعد هناك مكان على الإطلاق للملذات الصادقة الحقيقية . فما أكثر الأشياء بالفعل، التى لا تحوى بطبيعتها أية حلاوة ، بل إن عدداً كبيراً منها لا يحوى إلا المرارة ، التى ما زالت بسبب الميول المنحرفة للشهوات الشريرة ، لاتعد من أعظم الملذات فحسب ، بل أيضًا من بين الأسباب الرئيسية التى تضفى على الحياة قيمتها .

وفى هذه الفئة التى تسعى وراء اللذة الكاذبة يضع اليوتوبيون أولئك الذين سبق أن ذكرتهم ، ممن يظنون أنفسهم أناسًا أفضل من غيرهم ، لأنهم يرتدون ملابس أفضل ، فيخطئون فى هذا الأمر الواحد خطأين : فهم لايقلون خطأ فى ظنهم ملابسهم أفضل من ملابس غيرهم عنهم فى حسبانهم أنفسهم أفضل من غيرهم . فإذا ما فكرنا فى منفعة الرداء ، فلماذا يعد الصوف ذو التيلة الرفيعة أرفع قدراً من الصوف ذى التيلة الأكثر سمكا ؟ ومع ذلك ، وكأنهم يتفوقون على غيرهم بالطبيعة وليس عن طريق خطأ يرتكبونه ، يرفعون هاماتهم ، ويحسبون أنهم أرفع قدراً من غيرهم لهذا السبب . وهكذا فإن التكريم ، الذى لايجرءون على انتظاره ، إذا كان رداؤهم خشنًا فإنهم يطلبونه وكأنه حق للرداء الأكثر أناقة .

وأيضا ألا يدل على الغباء ذاته أن يقيم المرء كل هذا الوزن لأنواع التكريم الزائفة

غير النافعة ؟ فأى سرور طبيعى صادق يمكن أن يجده الشخص فى أن يكشف له آخر عن رأسه أو يثنى له ركبته ؟ هل يخفف هذا السلوك من الألم الذى يشكو منه فى ركبته أو يخفف من الجنون الذى يعانى منه فى رأسه ؟ إن هذه الفكرة عن السرور الكاذب تكشف عن نوع غريب من الجنون لدى أولئك الرجال الذين يتصورون أنفسهم نبلاء ويختالون زهواً ويصفقون لأنفسهم ، لأنه قدر لهم أن يولدوا لأسلاف اعتبر خلفاؤهم أغنياء زمناً طويلا – فتلك الآن هى الصفة الوحيدة للنبالة – وأغنياء بوجه خاص فى الأراضى الزراعية . وحتى إذا لم يترك لهم أجدادهم قدماً مربعة واحدة من الأرض أو إذا ضيعوا بإسرافهم ما قد تركوه لهم ، فلا يعتبرون أقل نبالة بشعرة واحدة .

ومن هذا الصنف أيضاً يعد أولئك الذين يعشقون الجواهر والأحجار الكريمة ، كما قلت ، والذين يحسبون أنهم يصبحون نوعاً من الآلهة ، إذا ما أحرزوا واحدة ممتازة منها ، وخاصة واحدة من النوع الذى يحظى فى ذلك الوقت فى بلدهم بأغلى ثمن . ذلك أنه ما من نوع واحد من الأحجار الكريمة يحتفظ بنفس القدر من القيمة فى جميع البلاد فى جميع الأوقات . وهم لا يشترونها إلا إذا نزعت عن إطارها الذهبى وكشفت للعين ، وحتى عندئذ ، لا يشترونها ما لم يقسم البائع ويؤكد لهم أنها جوهرة حقيقية وحجر كريم لا غش فيه ، فإلى هذا الحد يبلغ قلقهم خشية أن يخدع عيونهم حجر زائف بدلا من حجر أصيل . ولكن لماذا لا ينعم بصرك بنفس المتعة من الحجر الزائف ، إن كانت عينك لا تستطيع التمييز بينه وبين الحجر الحقيقى ؟ ألا يجب أن يكون الاثنان بنفس القيمة لديك ، بل وبنفس القيمة التى سيكونان بها ، بحق السماء ، لدى رجل ضرير . وماذا أقول عن أولئك الذين يحتفظون بثروات تزيد عن حاجاتهم ، لما ينعمون به من سرور ،

لا من استعمال كل ذلك المال ، بل من مجرد النظر إليه ؟ هل يجدون فى ذلك متعة حقيقية ، أم هل ينخدعون بالأحرى بمتعة كاذبة ؟ أو ماذا أقول عن أولئك الذين يسلكون مسلكاً مضاداً ويخبئون الذهب ، الذى لايستعملونه أبداً بل قد لا يرونه أبداً مرة أخرى ، والذين نتيجة لخوفهم من أن يفقدوه ، قد يفقدونه بالفعل ؟ أفلا يفقدونه ولا شىء سوى ذلك ، بحرمانهم أنفسهم ، بل ربما الآخرين أيضاً من استعماله ، وإعادته مرة أخرى إلى بطن الأرض ؟ ومع ذلك فإنك تجد نشوة بالغة فى كنزك المدفون ، وكأن عقلك قد تخلص بدفنه من كل قلق . لنفرض أن شخصاً سرقه وانتزعه من مكانه وأنك توفيت بعد ذلك بعشر سنوات وأنت تجهل أمر هذه السرقة . فما الذى يضيرك طوال كل هذه الحقبة من الزمن التى عشتها بعد أن سرقت أموالك ، سواء سرقت أم بقيت فى أمان ؟ فى كلتا الحالتين لم تكن أقل فائدة لك فى الحالة الواحدة عنها فى الأخرى .

وإلى أولئك الذين ينغمسون فى هذه المسرات الحمقاء ، يضيفون لاعبى النرد (الذين لايعرفون حماقتهم بالتجربة بل بمجرد السماع فقط) والصيادين والقناصة . فهم يتساءلون : أى سرور يمكن أن يوجد فى إلقاء النرد على المنضدة ؟ فأنت تقوم بإلقائه مرات ومرات ، بحيث أنه حتى إن وجد فى ذلك شيئاً من اللذة ، فسيقضى عليها التكرار بالملل . أو أى سرور ، وليس بالأحرى أية مقززات ، يمكن أن توجد فى نباح الكلاب وعوائها ؟ أو لماذا يكون هناك إحساس بقدر أكبر من اللذة عندما يطارد كلب أرنباً عنه عندما يطارد كلب كلباً آخر ؟ فنفس الشىء يحدث فى الحالتين ، فهناك تسابق فى الحالتين ، إذا ما كنت تجد اللذة فى السرعة . أما إذا كان ما يجذبك هو الأمل فى مشاهدة القتل ، وفى أن ترى كائناً ينهش أمام عينيك ، فالأحرى بك أن تستشعر الشفقة عندما تنظر أرنباً صغيراً هارباً يمزقه كلب : الضعيف

يقتله القوى ، الجبان يفتك به المفترس ، البرىء يمزقه القاسى . ونتيجة لذلك قرر اليوتوبيون أن جميع أعمال الصيد ، أعمال لا تليق بالأحرار من الرجال ، وفرضوا القيام بها على القصابين ، وهم أصحاب حرفة، كما بينت من قبل ، لايمارسها إلا العبيد . ويعتبرون الصيد أحط جانب من عمل القصاب ، ويرون فى الجوانب الأخرى أشياء أكثر فائدة وأعظم شرفـًا ، لأنها تأتى بفائدة إيجابية أكبر ولا تقتل الحيوانات إلا للضرورة فقط ، بينما لا يسعى الصياد إلا وراء اللذة الناتجة عن قتل الحيوان المسكين وتمزيقه . فهم يرون أن هذه الرغبة فى مشاهدة إراقة الدماء ، حتى فى حالة الحيوان الأعجم ، إما أنها تنبع من طبيعة قاسية وإما أنها تهبط فى النهاية إلى مستوى القسوة نتيجة لاستمرار ممارسة مثل هذه اللذة البالغة الوحشية .

كل هذه الأعمال وما شابهها وهى عديدة ، إذن ، بالرغم من أن عامة الشعوب ترى فيها أنواعـًا من اللذة ، إلا أن اليوتوبيين يرون بالتأكيد أنها لا تحوى شيئـًا من اللذة الحقيقية ، لأنهم لا يجدون بها سروراً طبيعيـًا . وكونها تثير فى الحواس شعوراً بالمتعة (مما تصنعه اللذة على ما يبدو) لا يجعلهم يغيرون من رأيهم فيها شيئـًا . فالاستمتاع بهذه الأشياء لا يأتى من طبيعة الشىء ذاته ، بل من العادة المنحرفة لتلك الشعوب إذ يجعلهم هذا الميل الخاطئ يتقبلون المر على أنه حلو ، كما تظن النساء الحوامل فى فترة الوحم أن الزفت والشمع أحلى من العسل . ومع ذلك فمهما فسدت قدرة الإنسان على الحكم على الأشياء نتيجة للمرض أو العادة ، فمن المستحيل أن يغير ذلك من طبيعة اللذة أكثر مما يغير من أى شىء آخر .

أما أنواع اللذة التى يعتبرونها لذة صادقة فيقسمونها إلى عدة أقسام وينسبون بعضها للروح وبعضها للجسد . أما الروح فينسبون إليها الذكاء والمتعة الناتجة من تأمل الحقيقة . وإلى هذين النوعين تضاف لذة الذكرى السارة لماضى حياة طيبة ،

والأمل المؤكد فى السعادة القادمة. أما لذة الجسد فيقسمونها إلى نوعين : أما النوع الأول فهو الإحساس الواضح باللذة. وتأتى أحيانًا نتيجة تجدد تلك الأعضاء التى تضعفها حرارتنا الطبيعية وتتجدد قوة هذه الأعضاء بالطعام والشراب. وتأتى أحياناً نتيجة التخلص من الأشياء التى تثقل الجسم. ويحدث هذا الإحساس السار عند القيام بالتخلص من فضلات الطعام وعند القيام بعملية التناسل أو عند إشباع الحاجة إلى حك الجلد أو هرشه. ومع ذلك، فمن وقت لآخر، تنشأ اللذة، لا عن طريق تجديد شىء تفتقر إليه أعضاؤنا، أو عن طريق التخلص من شىء يسبب لنا الضيق، بل من شىء يدغدغ حواسنا ويؤثر فيها بقوة غامضة ولكنها قوية محركة، فتجذبها إليه، كما يحدث فى حالة المتعة التى تولدها الموسيقى. أما النوع الثانى من أنواع اللذة الجسدية فهو ذلك النوع الذى يرى اليوتوبيون أنه يتلخص فى حالة هدوء الجسم وانسجامه. ولا يخرج هذا عن استمتاع المرء بصحة لا تشوبها شائبة. فالصحة، التى لا يدهمها أى ألم، هى ذاتها مصدر من مصادر المتعة، بالرغم من عدم وجود إحساس ناشئ من لذة آتية من الخارج. وبالرغم من أنها أقل وضوحًا وتأثيراً فى الإحساس عن الرغبة المفرطة فى الطعام أو الشراب، إلا أن الكثيرين مع ذلك يرون فيها أعظم اللذات. ويعتبرها جميع اليوتوبيين تقريبًا المتعة الكبرى، وأساس وركيزة جميع المتع تقريبًا. وحتى بمفردها، يمكنها أن تجعل الحياة مطمئنة، مرغوبة، بينما بدونها لا يوجد مكان لأية متعة على الإطلاق. وهم يعتبرون أن الخلو من الألم، دون التمتع بالصحة، حالة من عدم الشعور لا من اللذة.

وقد رفض اليوتوبيون من زمن بعيد موقف أولئك الذين كانوا يرون أن حالة الصحة الهادئة الثابتة لا يمكن اعتبارها نوعا من اللذة (فهذا الموضوع أيضًا قد تناوله النقاش بشدة بينهم) لأن وجودها، كما يقولون، لا يمكن الإحساس به إلا عن طريق

حركة تأتى من الخارج . ومن ناحية أخرى هم جميعًا تقريبا متفقون على أن الصحة مؤدية قبل كل شيء إلى اللذة . يقولون إنه بما أن المرض ألم ، والألم هو العدو اللدود للذة ، كما أن المرض هو العدو اللدود للصحة ، فلماذا لا توجد اللذة إذن فى هدوء الصحة ؟ فهم يقولون إنه مما لا يغير من الأمر شيئًا أن تقول إن المرض ألم أو أن المرض يصحبه الألم ، فكلا الأمرين سواء . فالنتيجة فى كلا الحالين هى أن أولئك الذين يتمتعون بصحة دائمة لا يمكن أن يفتقروا إلى المتعة . وفضلا عن ذلك ، فهم يقولون إنه بينما نأكل ، فليس ذلك سوى صحة كانت قد أخذت فى الوهن ، وهى تقاوم الجوع ، والطعام هو حليفها فى الصراع . وبينما تستعيد القوة تدريجيًا ، فإن التقدم ذاته نحو القوة العادية ينتج اللذة التى نشعر بواسطتها أننا قد استعدنا الصحة . أفلا تفرح الصحة بإحراز النصر ، وقد وجدت متعة فى الصراع ؟ فعند ما تستعيد فى النهاية بنجاح قوتها السابقة ، والتى كانت هدفها الوحيد أثناء الصراع ، فهل يصيبها حالا عدم الإحساس ولا تدرك ما فيه خيرها ؟ أما الزعم بأن الصحة لا يمكن الإحساس بها فيعتقدون أنه بعيد جدًا عن الحقيقة . ويتساءلون : أى شخص لا يشعر وهو فى حالة صحو بأنه فى صحة جيدة ، إلا ذاك الذى ليس بصحة جيدة ؟ وهل يوجد شخص يتملكه مثل هذا القدر من عدم الإحساس أو الكسل بحيث لا يعترف بأنه يجد سرورًا ومتعة فى الصحة ؟ وما هى المتعة سوى اسم آخر للذة ؟

وهم باختصار يتمسكون قبل كل شيء بأنواع اللذة العقلية ، التى يرون فيها أول جميع أنواع اللذات وأهمها . ويعتقدون أنه منها ينبع الجزء الأكبر من ممارسة الفضائل والإحساس بالحياة الصالحة . أما عن تلك اللذات التى تنبع من الجسد ، فيقدمون الصحة عليها جميعًا . فمتعة الطعام والشراب ، وكل ما ينتج نفس النوع من المتعة يعدونها جميعًا أشياء مرغوبًا فيها ، ولكن لا لسبب سوى الصحة . فمثل هذه

الأشياء ليست سارة فى حد ذاتها ، ولكن فى مقاومتها لتسلل اعتلال الصحة . فكما أن الرجل الحكيم يفضل أن يصلى طالبًا تجنب المرض عن أن يصلى طالبًا دواء لعلاجه ، وطالبًا طرد الألم عن أن يصلى طالبًا تخفيفه ، فكذلك سيكون من الأفضل ألا نحتاج إلى هذا النوع من اللذة عن أن تخفف اللذة آلامنا . فإذا ظن شخص أن سعادته تتلخص فى هذا النوع من اللذة ، فلابد له أن يعترف أنه سيكون غاية فى السعادة إذا قدر له أن يقضى حياته فى جوع ، وعطش ، وهرش ، وأكل وشرب وحك دائم . فمن ذا الذى لا يرى أن مثل هذه الحياة ليست حياة منفرة فحسب بل تعيسة أيضًا ؟ فما لا شك فيه أن هذه الأنواع من اللذة هى أحطها جميعًا لأنها أقلها نقاء ، فهى لا تحدث مطلقًا دون أن تصحبها الآلام المضادة لها . فللذة الطعام مثلا مرتبطة بالجوع ، وبشكل غير معتدل ، فالألم أقوى وأكثر استمراراً ، فهو يوجد قبل اللذة ولا ينتهى حتى تخبو اللذة معه .

ومن هنا يرى اليوتوبيون أن هذه الأنواع من اللذة يجب ألا يقام لها وزن كبير ، إلا بقدر ضرورتها . ولكنهم يستمتعون بها مع ذلك ، ويعترفون بفضل الطبيعة الأم التى تغرى صغارها ، عن طريق المتعة والسرور بممارسة تلك الأشياء التى تدفعهم الضرورة دوامًا إلى ممارستها . فأى شقاء كان يمكن أن نعيش فيه ، لو كانت جميع آلام الجوع والعطش هذه التى نعانى منها كل يوم ، مثلها مثل جميع الأمراض الأخرى التى لا تصيبنا إلا بين الحين والحين ، لا يمكن التخلص منها إلا عن طريق الأدوية والعقاقير المرة ؟ أما الجمال ، والقوة ، وخفة الحركة ، فيقدرونها ويفرحون بها كهبات خاصة سارة من هبات الطبيعة . بلى ، فحتى تلك اللذة التى تأتى عن طريق الأذن ، أو العين أو الأنف ، والتى اختصت بها الطبيعة الإنسان وميزته (فما من فصيلة أخرى من الكائنات الحية ترى جمال العالم وحسنه أو

تتأثر بالرائحة الذكية ، فيما عدا رائحة الطعام ، أو تميز الفواصل المتسقة والمتعارضة للأصوات) ، أقول إن هذه أيضاً يسعون إليها كأشياء تكسب الحياة نكهة سارة . ولكنهم يراعون فى هذه الأشياء جميعاً هذا الحد الفاصل : وهو ألا تعوق لذة أصغر لذة أكبر ،وألا تؤدى اللذة فيما بعد إلى الألم. فهم يعتقدون أن الألم نتيجة حتمية للذة غير الشريفة أو الدنيئة . أما أن يحتقر الإنسان جمال المنظر ، ويضعف الجسم ، ويحيل خفة الحركة إلى تثاقل ، وينهك الجسم بالأصوام ، ويفسد الصحة ، ويرفض جميع عطايا الطبيعة الأخرى ، فما لم يهمل الإنسان جميع هذه المزايا التى يمكن أن يستمتع بها فى سبيل العمل بحماس أكبر لتوفير اللذة لغيره من الأشخاص وعامة الشعب ، بحيث ينتظر مقابل هذه التضحية فرحاً أعظم عند الله ، بل يقسو على نفسه ، فيما عدا ذلك ، فى سبيل سمعة طيبة باطلة وهمية لاتفيد أى إنسان، أولإعداد ذاته لتحمل مصائب ، قد لا تنزل به أبداً، بسهولة أكبر ، فهم يرون فى هذا التفكير غاية الجنون، ودليلاً على أن مثل هذا العقل بقدر ما يقسو على ذاته ، بقدر ما ينكر فضل الطبيعة ، التى يرفض أن يكون مديناً لها بالفضل ، برفضه كل أفضالها .

ذلك هو رأيهم فى لفضيلة واللذة . وهم يعتقدون أن عقل الإنسان لا يمكن أن يتوصل إلى رأى أصدق ، ما لم يلهمه دين سماوى شيئاً أكثر قدسية . وسواء أكانوا على حق أم على خطأ فى موقفهم هذا ، فذلك ما لا يسمح الوقت بفحصه ولا هو بالأمر الضرورى الآن . فقد أخذنا على عاتقنا وصف مبادئهم فحسب ، وليس الدفاع عنها أيضاً . ولكنى واثق من أمر بعينه ، وهو أنه مهما كان رأيكم فى هذه الأفكار ، فلا يوجد فى أى مكان فى العالم قوم أروع ، ولا دولة أسعد أو أكثر ازدهاراً من دولتهم . فهم خفيفو الحركة ، نشطو الجسم وأكثر قوة عمّا تدل عليه

أجسامهم . ولكنهم مع ذلك ليسوا قصار القامة بشكل معيب . فبالرغم من أن تربة أرضهم ليست على درجة كبيرة من الخصب ، ومناخ بلادهم ليس صحياً جداً ، فإنهم يعملون على وقاية أنفسهم من الجو بالحياة المعتدلة ويعوضون نقص خصوبة الأرض بالعمل والجد . ونتيجة لذلك ، لايوجد في مكان آخر من العالم ، كمية أوفر من الحبوب والماشية ، ولاتوجد فى أى مكان آخر أجسام أكثر قوة وأقل عرضة للأمراض . ولن ترى هناك الأعمال الزراعية العادية تؤدى بحرص وعناية ، كأن تستصلح الأرض الجدباء بطبيعتها بالحيلة والجد فحسب ، بل يمكنك أن تشهد أيضا غابة بأكملها تقتلعها أيدى الشعب من مكان وتعيد غرسها فى مكان آخر . وليس ما يعنيهم فى هذا كمية الخشب بقدر ما يعنيهم نقله ، حتى يكون أقرب إلى البحر أو الأنهار أو المدن ذاتها . فمن الأسهل أن ينقل القمح براً لمسافة بعيدة عن أن ينقل الخشب . ويتميز الناس بوجه عام بالمرح ، والسماحة ، وهدوء الطبع ، والذكاء والميل إلى الراحة . فهم يؤدون نصيبهم من العمل اليدوى بصبر ، عند الحاجة ، أما فيما عدا ذلك ، فليسوا مغرمين به بأى شكل من الأشكال . أما فى متابعتهم المخلصة للدراسة العقلية فلا يصيبهم الوهن أو الملل .

فعندما سمعونا نتحدث عن الأدب والمعرفة اليونانية (إذ فيما يختص باللاتينية لم يبد لى أن هناك ، فيما عدا التاريخ والشعر ، ما يمكن أن ينال استحسانهم) أبدوا رغبة شديدة فى أن نقوم بتعليمها لهم . وهكذا أخذنا فى القراءة معهم ، وقد فعلنا ذلك فى أول الأمر حتى لانبدو كأننا نرفض ما يستلزمه ذلك من الجهد ، وليس أملا فى النجاح . ولكن بعد أن حققنا قليلا من التقدم ، جعلنا اجتهادهم نشعر حالا بالثقة فى أن جهدنا لن يذهب سدى . فقد أخذوا بكل سهولة فى تقليد أشكال الحروف ، وفى نطق الكلمات بكل وضوح ، وحفظوا ما لقنوا عن ظهر قلب بسرعة كبيرة ،

وأعادوا على أسماعنا ما تعلموه بكل دقة حتى عجبنا لذلك كل العجب . أما تفسير ذلك فهو أن معظمهم كانوا من الدارسين الذين اختيروا لمقدرتهم ، ولأنهم من ذوى الخبرة والنضوج العقلى. وقد قاموا بأداء واجباتهم لا بوحى من رغبتهم الشخصية فحسب بل تنفيذاً لتعليمات المجلس أيضاً. وفى أقل من ثلاث سنوات أتقنوا اللغة وأصبحوا قادرين على قراءة المجيدين من الكتاب دون مشقة ما لم يكن فى الكتاب ذاته أخطاء . ويخيل إلى أنهم تمكنوا من الأدب اليونانى بهذه السهولة لأنه كان قريب الشبه إلى حد ما من أدبهم ، إذ يخيل إلى أنهم من سلالة اليونان، فلغتهم التى تشبه الفارسية فى جميع وجوهها الأخرى تقريباً ، تحتفظ ببعض آثار اليونانية فى أسماء المدن والوظائف العامة .

ولما كنت وأنا على وشك القيام برحلتى الرابعة ، قد وضعت على ظهر السفينة ، بدلا من سلع أبيعها ، لفة كبيرة إلى حد ما من الكتب ، إذ كنت قد قررت أنى أكثر ميلا إلى عدم العودة أبداً من العودة بعد وقت قصير . وهكذا أخذوا منى معظم أعمال أفلاطون[1] ، والعديد من أعمال أرسطو ، وكتاب ثيوفراستوس[2] عن النباتات ، ومما يؤسفنى أنه كان ممزقاً بعض الشىء . فقد وقعت عين قرد عليه ، أثناء الرحلة ، وهو ملقى بإهمال فى السفينة، فأخذ يعبث به ، ومزق وأتلف عدة صفحات من فصوله المختلفة . أما من النحاة فلديهم لاسكاريس فقط ، لأنى لم آخذ ثيودوروس[3] معى . وليس لديهم من المعاجم سوى معجمى هيسيكيوس

(١) يشير توماس مور بذكره لأفلاطون قبل غيره هنا إلى أكبر من تأثر بهم من الفلاسفة فى كتابه « يوتوبيا » .

(٢) تيوفراستوس (Theophrastus) : تلميذ أرسطو وخليفته .

(٣) يقدم مور لاسكاريس (Lascaris) عن ثيودوروس (Theodorus) بالرغم من أن الثانى كان مفضلا على الأول .

وديوسكوريديس [1] ، وهم شديدو الولع بأعمال بلوتارك [2] ، وقد استحوذت عليهم أعمال لوكيانوس [3] بذكائها وفكاهتها . أما من الشعراء فلديهم أرسطوفانيس وهوميروس ، ويوروبيديس ، وسوفوكليس [4] فى طبعة آلدين [5] الصغيرة. أما من المؤرخين فلديهم ثوسيديديس [6] ، وهيرودوت ، وأيضاً هيروديان [7] . كذلك كان وفيّق تريسيوس ابيناتوس [8] قد أحضر بعض كتب الطب ومنها رسائل هيبوقراط القصيرة وكتاب جالينوس «فن الطب» ، وهى أعمال تنال تقديراً كبيراً لديهم ، فبالرغم من أنه لا يكاد يوجد شعب فى العالم كله يحتاج إلى الطب بدرجة أقل ، إلا أنه لا يوجد مكان يكرم فيه الطب بنفس القدر . وذلك لأنهم يعتبرون المعرفة بالطب فرعاً من أروع وأهم فروع الفلسفة . إذ يبدو لهم عندما يحاولون استكشاف أسرار الطبيعة ، بمساعدة هذه

---

(١) معجم هيسيكيوس (Hesychius) : نشر فى البندقية فى عام ١٥١٤ أما معجم ديوسكوريديس (Dioscordes) فظهر فى ترجمة لاتينية فى عام ١٦١٥ .

(٢) بلوتارك : المؤرخ المعروف .

(٣) لوكيانوس : الكاتب الساخر ، ولد فى ساموساتا بسوريا فى ١١٧ م . ترجم توماس مور بعض أعماله (بالاشتراك مع صديقه إرازموس) .

(٤) جميعهم من الشعراء الإغريق المعروفين .

(٥) طبعة آلدين : الإشارة إلى آلدوس مانوتيوس .

(٦) ثوسيديس (Thucydides) : (٤٦ - ٤٠٠ تقريباً ق . م)، المؤرخ الأثينى الشهير . كتب تاريخ الحرب بين أثينا وإسبرطة إلى عام ٤١١ ق . م

(٧) هيروديان الأنطاكى (Herodian) : (١٨٠ - ٢٣٨) مؤلف تاريخ الأباطرة الرومان .

(٨) تريسيوس ابيناتوس (Tricius Apinatus) : اسم خيالى مشتق من اسمى بلدتين صغيرتين هما ابينا وتريكا فى أبوليا، تعتبران رمزا للتفاهات المضحكة .

انظر : E. Surtz, ed., *Utopia*, op. Cit., p. 105

الفلسفة ، أنهم لايجدون متعة كبرى فى ذلك فحسب ، بل ينالون أيضًا أكبر قدر من رضى خالق الطبيعة وصانعها . فهم يعتقدون أنه ، مثله مثل غيره من الفنانين ، قد صنع الجهاز المرئى للعالم ليكون منظراً جميلا يستمتع به الإنسان ، الذى وهبه وحده القدرة على تذوق روعة هذا العمل العظيم . ولذلك فهو يفضل ، كما يقولون ، الشخص الذى ينظر إلى عمله بحماس وإعجاب عن ذلك الذى يمر بمثل هذا المنظر العظيم الرائع بغباء وبلادة حس مثله مثل الحيوان الأعجم غير العاقل .

وهكذا ، وقد تدربوا على جميع أنواع المعرفة ، فإن عقولهم مهيأة جدًّا لاختراع الفنون التى تعمل على جعل الحياة سهلة مريحة . ومهما يكن الأمر ، فهم مدينون لنا بشيئين : هما فن الطباعة وصناعة الورق ، وإن كانوا لا يدينون لنا كلية بذلك بل لأنفسهم بدرجة كبيرة أيضًا .

فعندما أريناهم طباعة آلدين فى كتب من الورق ، تحدثنا عن المادة التى يصنع منها الورق وعن فن الطباعة بدون أن نورد تفسيراً مفصلا ، إذ لم يكن أحد منا خبيراً بهذين الفنين ولكنهم استنتجوا بذكاء وقّاد كيف يصنع الورق . وبالرغم من أنهم كانوا يكتبون من قبل على الجلود ولحاء الأشجار والبردى ، فقد حاولوا منذ ذلك الوقت صنع الورق وطبع الحروف . وبالرغم من أن محاولاتهم الأولى لم تصب قدراً كبيراً من النجاح ، إلا أنهم بمعاودة التجربة سرعان ما أتقنوا كلا الصناعتين . وقد بلغ نجاحهم حدًّا كان من الممكن أن يجعلهم لايفتقرون إلى أية كتب ، لو كان لديهم نسخ أعمال المؤلفين الإغريق . أما فى بداية الأمر فلم يكن لديهم سوى ما ذكرت ، ومع ذلك فقد أضافوا عن طريق الطباعة عدة آلاف من النسخ إلى ما لديهم من كتب .

وهم يرحبون ترحيبًا حارًّا بكل من يجىء إلى بلادهم فى رحلة سياحية ، إذا ما كان يتمتع بأية مقدرة عقلية متميزة ، أو إذا كان على علم بكثير من البلاد نتيجة رحلات

طويلة ، لأنهم يجدون متعة كبيرة فى سماع أخبار ما يدور فى جميع أنحاء العالم . ولهذا السبب نفسه أحسنوا وفادتنا وسروا بنزولنا بأرضهم . ومع ذلك ، فلا يأتى إلى بلادهم إلا القليل من الأشخاص بهدف التجارة . فأى شىء يمكنهم أن يحضروه إلى هناك سوى الحديد ، أو تلك الأشياء التى سيفضلون العودة بها إلى بلادهم ، أى الذهب والفضة ؟ أما الأشياء التى يمكن تصديرها ، فيرى اليوتوبيون أنه من الحكمة أن يحملوها هم أنفسهم إلى خارج بلادهم على أن يأتى الأغراب لأخذها . فبهذه الطريقة يحصلون على قدر أكبر من المعلومات عن البلاد الأجنبية ، ولا يؤدى بهم عدم ممارسة الملاحة إلى فقد مهارتهم الملاحية .

العبيد والمرضى والزواج
وغيرها من الأمور

لا يصبح أسرى الحرب عبيداً ، إلا إذا أسروا فى معارك خاضها اليوتوبيون أنفسهم ، كما لا يصبح أبناء العبيد عبيداً ، ولا أبناء أى شخص آخر كان عبداً عندما أحضر من بلد أجنبى . فالعبيد عندهم ، إما أولئك الذين حكم عليهم بأن يصبحوا عبيداً فى بلادهم عقاباً على جرائم منكرة ارتكبوها ، وإما أولئك المحكوم عليهم بالموت فى مكان آخر عقاباً على خطأ ما . وينتمى العدد الأكبر إلى النوع الثانى . ويجلبون منهم الكثيرين ، يشترونهم بأثمان بخسة أحياناً ، ويحصلون عليهم دون مقابل أحياناً أخرى . وهم لا يلزمون هذا النوع من العبيد بالعمل الدائم فحسب بل بالبقاء موثقين بالأغلال أيضاً . أما العبيد من أبناء بلدهم فيعاملونهم بقسوة أشد ، لأن سلوكهم يعد أكثر إثارة للأسى وأكثر استحقاقاً للعقوبة الصارمة كمثل رادع ، لأنهم ، وقد ربوا تربية ممتازة فى ظل حياة فاضلة ، لم يتسن منعهم من الإجرام .



وهناك نوع آخر أيضاً من العبيد . وهم أولئك الذين يعملون بأحط أنواع الأعمال وأشقاها فى بلد آخر ويفضلون أن يصبحوا عبيداً فى يوتوبيا . ويعامل هؤلاء الأفراد معاملة حسنة ، ويكادون أن يعاملوا بنفس الرقة تقريباً التى يعامل بها المواطنون ، فيما عدا أنهم يكلفون بقدر أكبر قليلا من العمل نظراً لأنهم قد اعتادوا ذلك فى بلادهم . فإذا أراد أحدهم الرحيل ، وقلما يحدث ذلك ، لا يحتجزونه على غير إرادته ، ولا يتركونه يرحل خالى اليدين .

أما المرضى ، فيرعونهم ، كما أسلفت ، بحب عظيم ، ولا يتركون شيئاً يمكن أن يعيد إليهم الصحة لايفعلونه ، سواء كان دواء أو طعاماً . أما من يعانون من أمراض ميئوس من شفائها فيواسونهم بالجلوس إليهم والتحدث معهم ، وبالتخفيف عنهم بجميع الوسائل الممكنة . فإذا لم يكن المرض مستعصياً فحسب ، بل مصحوباً أيضا بعذاب وألم مستمر ، فعندئذ يدعو الكهنة والرؤساء المريض ، ما دام قد أصبح غير قادر على تحمل جميع واجبات الحياة ، وأصبح عبئاً على ذاته ، وحملا على غيره ، وصار ميتاً حياً ، يدعونه إلى أن يقرر ألا يطيل هذا الداء والبلاء أكثر من ذلك وألا يتردد فى الموت بعد أن أصبحت الحياة عذاباً ، بل يعتمد على الرجاء الصالح ، ويحرر ذاته من تلك الحياة المرة وكأنه يتحرر من سجن وآلة تعذيب ، أو أن يسمح بإرادته للغير أن يخلصوه منها . فإن هو فعل ذلك ، فقد تصرف بحكمة لأنه بموته لم يضع حداً لمتعة بل لعذاب ولأنه بذلك يطيع مشورة الكهنة ، فهم مفسرو كلمة الله وإرادته ، فسيتسم عمله بالتقوى والقداسة . أما الذين يقتنعون بهذه الحجج فإما أن يمتنعوا عن الطعام حتى الموت ، وإما أن يطلقوا بيد الغير أثناء النوم ، بدون شعور بالموت . ولكن اليوتوبيين لا يضعون حداً لحياة أى شخص بدون موافقته ، وحتى إذا لم تتم هذه الموافقة فإنهم لا يقللون من

رعايتهم للشخص على الإطلاق. وهم يؤمنون إيمانًا راسخًا بأن الموت الذى ينصح به الكهنة موت شريف . أما إذا انتحر شخص دون الحصول على إذن من الكهنة والمجلس ، اعتبروه غير أهل لأن يدفن فى الأرض أو يحرق بالنار ، وألقوا بجثته باحتقار فى بركة عفنة دون أية مراسم جنائزية .

لا تتزوج المرأة قبل الثامنة عشرة من العمر . ولا يتزوج الرجل إلا بعد ذلك بأربع سنوات . فإذا أدين رجل أو امرأة بالمعاشرة سرًّا قبل الزواج ، عوقب الاثنان أشد عقاب ، وحظر عليهما الزواج حظراً تامًّا ، ما لم يعف الحاكم عن جرمهما ، وفضلا عن ذلك فإن كلا من رب وربة الأسرة التى يرتكب فيها هذا الخطأ يركبهما العار لأنهما أهملا القيام بواجباتهما . ويعاقب هذا الخطأ بهذه القسوة لأنهم يعرفون مسبقًا أنه ما لم يتوخ الحرص فى منع الأشخاص من هذه المخالطة غير المقيدة ، فلن ترتبط إلا القلة برباط الزواج ، الذى يجب أن يقضى الشخص بمقتضاه الحياة برفقة شخص واحد، ويتحمل بصبر جميع المتاعب المرتبطة به .

وعند اختيار شريك الحياة ، يراعون بكل جدية وحرص عادة بدت لى غاية فى الحماقة والسخف ، ذلك أن سيدة وقوراً محترمة تُرى المرأة سواء كانت عذراء أم أرمل عارية لراغب الزواج ، كما يقدم رجل عاقل راغب الزواج عاريًا كذلك أمام الفتاة . لقد ضحكنا كثيراً لهذه العادة وحكمنا عليها بأنها عمل أحمق . أما هم فقد عجبوا ، من الناحية الأخرى ، من حماقة جميع الشعوب الأخرى . فعندما يشترون مُهرا ، حيث لا يتطلب الأمر إلا القليل من المال ، يتوخى الشخص كل هذا الحرص بحيث إنه بالرغم من أن المهر يكاد يكون عاريًا تمامًا ، إلا أنه لا يشتريه إلا إذا رفع عنه السرج وغيره من الأغطية ، خوفاً من أن يكون مصابًا بمرض جلدى تخفيه هذه الأشياء . ومع ذلك فعندما يختارون زوجة ، وهو عمل سيكون فيه

سرورهم أو شقاؤهم طوال الحياة ، يبلغ بهم عدم الحرص درجة تجعلهم يحكمون على المرأة ، وجسمها كله تقريبـًا مغطى بالملابس ، بما لا يكاد يزيد عن مساحة الكف منها ، إذ لا يرى الرجل منها سوى الوجه ، ويرتبط بها معرضـًا نفسه لخطر عظيم إن لم يتفقا معـًا إذا حدث واكتشف بعد ذلك شيئـًا منفراً . فليس جميع الرجال من الحكمة بحيث يهتمون فقط بخلق المرأة ، وحتى فى زواج الحكماء من الرجال لاتعد محاسن الجسد إضافات هينة إلى فضائل العقل . فمن المؤكد أن تلك الملابس قد تخفى تحتها تشويها كريها قد ينفر الرجل تماماً من زوجته ، ذلك فى الوقت الذى لم يعد الانفصال الجسدى أمراً مسموحـًا به . أما إذا حدث مثل هذا التشويه بعد أن يتم الزواج ، فمن واجب كل شخص أن يرضى بقدره ، أما قبل الزواج فعلى القانون أن يحمى الشخص من أن يقع فى شرك عن طريق الغش والخداع .

ومما جعل هذا الأمر أكثر أهمية لدى اليوتوبيين ، أنهم الشعب الوحيد فى تلك الأجزاء من العالم الذى يكتفى رجاله بزوجة واحدة ، كما أن الزواج قلما يفصم لديهم إلا بالموت ، أو بسبب الخيانة الزوجية ، أو ما لا يطاق من طباع منفرة . فإذا ما حدث ذلك للزوج أو الزوجة ، صدر له إذن من المجلس بأن يتزوج ثانية . أما الطرف الآخر فيقضى بقية العمر يحمل وصمة العار ، دون زواج . أما أن يترك الرجل زوجته بدون رضاها وبدون أن يكون لها فى ذلك ذنب ، لأن مكروهـًا أصاب جسدها ، فذلك ما لا يرتضونه . ويرون أنه من القسوة أن يهجر الشخص وهو أشد ما يكون حاجة إلى السلوى ، وأن كبر السن ، الذى يصحبه المرض ويعد مرضـًا فى ذاته ، لا يجد سوى قدر ضئيل لا يعتمد عليه من الإخلاص .

ومع ذلك قد يحدث أحيانـًا ألا تتفق طباع زوجين بدرجة كافية ، ويجد كل من الزوجين شخصـًا آخر يأمل أن يعيش معه حياة أسعد ، ولذا ينفصلان بموافقة كل

منهما ، ويدخلان فى ارتباطين جديدين ، ولكن لا بد لهما من موافقة المجلس . أما المجلس فلا يسمح بأى طلاق قبل أن يبحث أعضاؤه وزوجاتهم الأمر بعناية . وحتى بعد ذلك فإنهم لا يرحبون بالموافقة على الطلاق لأنهم يعلمون أن عائقا سيقف فى سبيل توثيق عرى الحب بين الزوج وزوجته ، إذا كان هناك أمل فى زواج جديد سهل .

أما أولئك الذين يخونون الرباط الزوجى فيعاقبون بأشد أنواع العبودية صرامة ، فإذا كان الطرفان متزوجين ، يطلق الطرفان المضاران ، بموافقتهما ، من الطرفين الخائنين ويتزوجان ، أو يسمح لهما بالزواج بمن يريدان . أما إذا كان أحد هذين الطرفين اللذين أضيرا لا يزال يحب ذلك الشريك غير الجدير بالحب ، فليس ممنوعا أن يظل الزواج قائما بشرط أن يرضى هذا الطرف بمصاحبة الطرف الآخر ومشاركته العمل الشاق بعد أن يحكم عليه بأن يصير عبداً . ويحدث من وقت لآخر أن تثير توبة الواحد ، وطاعة واجتهاد الآخر شفقة الحاكم فيعيد إليهما الحرية . أما معاودة ارتكاب نفس الخطأ فعقوبتها الموت .

أما فيما عدا ذلك من جرائم ، فليست هناك عقوبات ثابتة يحددها القانون ، بل يفرض المجلس العقوبة تبعا للجريمة ، ودرجة شناعتها ، أو احتمال الصفح عنها ، كل على حدة . ويؤدب الأزواج زوجاتهم والآباء أبناءهم ، إلا إذا كان الخطأ من الخطورة بحيث يصبح فى عقابه علنا فائدة للأخلاق العامة . وتعاقب أسوأ الأخطاء عادة بالعبودية لأنهم يرون أن هذه العقوبة ليست أقل رهبة للمجرم وأكثر فائدة للدولة عن الإسراع بإعدام المجرمين والتخلص منهم مباشرة . فعملهم أكثر فائدة من موتهم ، كما يعملون كمثل يردع غيرهم عن ارتكاب جرائم مشابهة لمدة أطول . أما إذا تمردوا وثاروا ضد هذه المعاملة ، فإنهم يعدمون مثل الحيوانات التى لا يمكن استئناسها والتى

لا يردعها سجن أو أغلال . أما إذا التزموا بالصبر ، فإنهم لا يحرمون نهائياً من كل أمل . فإذا أظهروا ، بعد أن يتم ترويضهم بالعقوبة الطويلة القاسية ، توبة تشهد بأنهم أكثر أسفاً على ما اقترفوه من ذنب عما هم لما يتحملونه من عقوبة ، فإما أن تخفف هذه العقوبة ، وإما أن تلغى تماماً ، أحياناً عن طريق حق الحاكم فى العفو ، وأحياناً بناء على موافقة الشعب . ولا يعد الشخص الذى يغرى آخر بارتكاب ذنب أقل استحقاقاً للعقوبة من ذلك الذى يقترف الذنب . وفى كل جريمة تعتبر المحاولة المتعمدة والمعترف بها مساوية لارتكاب الجريمة ، لأنهم يرون أن الفشل يجب ألا يفيد الشخص الذى فعل كل ما فى وسعه لكيلا يفشل .

وهم مغرمون إلى أقصى حد بالمهرجين ، ويرون أنه من العار جداً الإساءة إليهم ، ولكن لا يوجد أى حظر على الاستمتاع بتهريجهم . فهم يحسبون أن فى هذا أعظم فائدة للمهرجين أنفسهم ، فإذا ما كان شخص من الصرامة والاكتئاب بحيث لا يرفه عنه عمل من أعمالهم أو قول من أقوالهم ، فإنهم لا يضعون مهرجاً تحت رعايته ، خوفاً من ألا يعامله بالدرجة الكافية من حسن المعاملة ، ما دام لا يجد منه فائدة ولا حتى ترفيهاً ، وهو الشيء الوحيد الذى يجيده .

أما السخرية من رجل بسبب تشويه أو عاهة فيعد عملا دنيئاً ومشوهاً ، لا للرجل الذى يضحك منه ، بل لذلك الذى يضحك ، وذلك لأنه يلوم بحماقة رجلا من أجل شيء لم يكن له فيه يد . وبينما يعتبرون عدم الحفاظ على الجمال الطبيعى علامة على عقل ضعيف بليد ، كذلك يعد استخدام مساحيق التجميل لزيادة الجمال ضرباً من التكلف المخجل . فقد تبين لهم بالتجربة أن المظهر الخارجى مهما بلغت أناقته لن يرفع من شأن الزوجة فى عينى زوجها بقدر ما يرفع من شأنها الوقار والاستقامة . فجمال المظهر فقط يجتذب بعض الرجال ولكن لا شيء يحتفظ

يحب الرجل على الدوام سوى الفضيلة والطاعة .

ولا يعمل اليوتوبيون على مقاومة الجريمة بالعقوبة فقط ، بل يحثون الناس على الفضيلة بأنواع من التكريم . ومن هنا ، يقيمون فى السوق لعظماء الرجال ممن قاموا بخدمات جليلة لبلادهم تماثيل تظل شاهدة بأعمالهم النبيلة ، وفى الوقت ذاته يعمل مجد الأسلاف على حث الأبناء وحفزهم على الفضيلة . أما الرجل الذى يسعى للحصول على وظيفة عن طريق الوساطة فيحرم تماماً من الأمل فى شغل أية وظيفة على الإطلاق .

ويعيش اليوتوبيون معاً فى حب ووئام . فليس هناك رئيس مدينة متكبراً مخيفاً . إذ يدعى الرؤساء آباء ومثل الآباء يسلكون . ويكرمهم المواطنون كما يجب التكريم ، عن طيب خاطر ، ودون إرغام ،وحتى الحاكم ذاته لا يميزه عن غيره من المواطنين رداء أو تاج بل حفنة من الحبوب تحمل أمامه ، وكذلك الكاهن الأعظم الذى لا يميزه سوى شمعة تحمل أمامه .

وليس لديهم سوى القليل جداً من القوانين ، فالأشخاص الذين ربوا بهذه الطريقة لا يحتاجون إلا إلى القليل جداً منها . والخطأ الأساسى الذى يأخذونه على الشعوب الأخرى هو أن كتب القانون والتفسيرات التى لا حصر لها تقريباً لا تكفيهم . أما هم فيرون أنه ليس من العدل فى شىء أن جماعة من الناس تفرض عليها قوانين إما هى أكبر عدداً من أن تقرأ كلها ، وإما هى أكثر غموضاً من أن يفهمها أى شخص . وفضلا عن ذلك فإنهم ينفون كلية من بلادهم جميع المحامين ، الذين يتناولون القضايا بمهارة ويناقشون الأمور القانونية بدهاء . ويرون من الخير أن يقوم الشخص بالدفاع عن قضيته ويقول للقاضى ما كان سيقوله للمحامى . وهكذا يقل الغموض وتتكشف الحقيقة بسهولة أكبر ، عندما يقوم شخص ، لم يعلمه محام

الخداع ، بتقديم قضيته ، ويزن القاضى بحذق كل جملة يقولها ، ويساعد ذوى العقول غير المدربة على دحض اتهامات اللئام الكاذبة وهذا ما يتعذر تحقيقه فى البلاد الأخرى ، نظراً للكمية الضخمة من القوانين البالغة التعقيد . أما لدى اليوتوبيين فكل شخص خبير بالقانون ، أولا ، لأن قوانينهم ، كما قلت ، قليلة جداً . وثانياً ، لأنهم يرون أن أوضح تفسيرات القانون هى أصح التفسيرات . وهذه السياسة نتيجة لقولهم بأنه ما دامت القوانين قد وضعت لتتذكر كل إنسان بواجبه ، فإن التفسيرات الأكثر تفقهاً لا تذكر إلا القليلين جداً بذلك (إذ لا يوجد إلا القليل ممن يستطيعون التوصل إليها) بينما المعنى الأكثر سهولة ووضوحاً للقانون فى متناول الجميع . وإذا لم يكن الأمر كذلك ، فأى فرق يمكن أن يكون هناك بالنسبة لعامة الشعب ، وهم الأكثر عدداً والأشد حاجة للتعلم ، سواء لم تصدر قانوناً جديداً بتاتاً أو أن تفسير القانون الذى أصدرته من الغموض بحيث لا يستطيع أن يتوصل إلى تفسيره أحد إلا بمهارة فائقة ومناقشات طويلة ؟ والحقيقة أن عامة الشعب بمقدرتهم غير المدربة على الحكم لا يمكن أن تصل إلى مثل هذه التفسيرات ، كما أن حياتهم ليست طويلة بالقدر الذى يسمح لهم بذلك ، فهم مشغولون طوال هذه الحياة بكسب عيشهم . وقد حدت فضائل اليوتوبيين هذه بجيرانهم (الذين يعيشون أحراراً مستقلين لأن اليوتوبيين قد خلصوا الكثيرين منهم من حكم الطغاة) أن يأخذوا من بينهم رؤساء لمدنهم ، البعض لمدة عام واحد ، والبعض الآخر لخمس سنوات . وعند انتهاء فترة عملهم يصحبونهم إلى بلادهم بالتكريم والثناء ويحضرون معهم غيرهم خلفاء لهم . ومما لا شك فيه أن هؤلاء الناس قد أحسنوا صنعاً بدولهم بذلك . فلما كان ازدهار الدولة أو سقوطها يتوقف على خلق رؤسائها ، فأى رؤساء كان يمكنهم أن يختاروا أفضل من أولئك الذين لا يمكن أن تجعلهم أية رشوة أن يحيدوا عن

طريق الشرف ، ذلك أنه لا يمكن للرشوة أن تفيدهم فى شىء لأنهم سرعان ما يعودون إلى بلادهم، كما لا يمكن أن يتأثروا بالتحيز الملتوى أو العداء لشخص ما لأنهم غرباء عن أهل البلد . فهاتان الرذيلتان : التحيز لفريق دون آخر والجشع ، حينما يتملكان أذهان الرجال فسرعان ما يقضيان على العدل ، وهو أقوى عصب للدولة ، وهؤلاء الشعوب الذين يأخذون أولئك الذين يديرون شئون بلادهم من يوتوبيا ، يدعوهم اليوتوبيون حلفاءهم . أما لفظ الأصدقاء فيحتفظون به لجميع أولئك الذين قدموا لهم خدمة .

أما الاتفاقيات التى كثيراً ما تبرمها الشعوب الأخرى فيما بينها ، وتخرقها ، وتجددها ، فلا يبرمون شيئاً منها مع شعب من الشعوب ، ويتساءلون : ما فائدة هذه الاتفاقيات ، ألم تربط الطبيعة ذاتها بين رجل وآخر بما فيه الكفاية ؟ فإذا لم يهتم شخص ما بالطبيعة ، فهل تظن أنه سيهتم بالكلمات ؟ وقد أصبح ذلك هو الرأى الذى يدينون به أساساً، لأن الاتفاقيات والأحلاف التى تقام بين الملوك فى تلك الأجزاء من العالم ، لا تحترم إلا قليلا . أما فى أوربا ، وخاصة فى تلك الأجزاء التى يسود فيها دين المسيح وعقيدته ، فإن جلال المعاهدات مقدس لاينتهك ، وذلك نتيجة لعدالة الملوك وصلاحهم من ناحية ، ونتيجة لما لكبار الأساقفة من احترام ورهبة من ناحية أخرى . فكما أن هؤلاء الأساقفة لايتعهدون بشىء إلاوينفذونه بكل أمانة ، فإنهم أيضاً يأمرون جميع الحكام بأن يلتزموا بتعهداتهم بكل شكل من الأشكال ويرغمون الخارجين على ذلك بما لديهم من سلطة رعوية لتوجيه اللوم والتعنيف الشديد .

ومما لا شك فيه أن البابوات على حق فيما يرونه من أنه أمر بالغ العار ألا يلتزم بوجه خاص أولئك الذين يُدْعَوْن المؤمنين بالتزاماتهم بأمانة . أما فى ذلك العالم

الجديد ، الذى يكاد يفصله خط الاستواء عن عالمنا ، بقدر ما تفصله حياة أهله وسلوكهم عن حياتنا وسلوكنا ، فإنهم لا يثقون بالمعاهدات ، فكلما زاد عدد المراسيم التى تبرم بواسطتها المعاهدات وكانت أكثر قدسية . زادت سرعة خرقها . فسرعان ما يجدون خطأ ما فى صياغة المعاهدة مما يوضع عمداً أحياناً ، بحيث لا يضطرون إلى الالتزام بمثل هذه الارتباطات القوية دون أن يجدوا وسيلة للتهرب منها ، فيخرقون المعاهدة والأمانة معاً . أما إذا وجدوا أن هذه الحيل ، لا بل هذا الغش والخداع ، قد حدث فى العقود المبرمة بين الأفراد ، فإن أولئك الذين يبرمون المعاهدات سيحتقرون القائمين بها ويحكمون عليهم بأن عملهم دنس يستوجب الشنق ، ذلك بينما يزهو هؤلاء الرجال أنفسهم فخراً لأنهم ينصحون الملوك بمثل هذه الأشياء ذاتها . ومن هنا فإن الناس إما أن يحسبوا أن العدل ليس إلا فضيلة شعبية دنيئة ، لا تليق مطلقاً بجلال الملوك ، وإما أن هناك نوعين من العدل : نوع يمشى على قدمين ويزحف على الأرض ، ولا يصلح إلا للعامة ، وتقيده كثير من الأغلال بحيث لا يتسنى له أن يتخطى الحدود الموضوعة له ، والآخر فضيلة الملوك ، وبقدر ما هو أكثر جلالا عن عدل عامة الناس ، بقدر ما هو أيضاً أكثر حرية بحيث يسمح له بكل شيء سوى ما لا يرضيه . وأعتقد أن مثل هذا السلوك من جانب الأمراء الذين ، كما قلت ، لا يرعون المعاهدات التى يبرمونها بهذا الشكل ، هو السبب فى أن اليوتوبيين لا يبرمون شيئاً منها ، ولكنهم ربما يتحولون عن هذا الرأى إذا عاشوا هنا . وعلى أية حال ، فهم يعتقدون أنه حتى إذا احترمت المعاهدات بأمانة ، فإن عادة إبرامها من البداية أمر مؤسف . فالنتيجة (وكأن الشعوب التى تفصل بينها مسافة صغيرة من جبل أو نهر ، لا تربط بينها رابطة طبيعية) هى اعتقاد الناس بأنهم ولدوا أعداء وخصوماً وأنهم على حق فى السعى للقضاء على بعضهم البعض إلا إذا حالت

المعاهدات دون ذلك . وفضلا عن هذا ، فإنه حتى عندما تبرم المعاهدات ، فإن الصداقة لا تنمو وتقوى بينهم ، بل تستمر حرية السلب والنهب لدرجة أنه ، نظراً إلى الافتقار إلى المهارة فى وضع أسس المعاهدة ، لا تتضمن موادها الاحتياطات اللازمة لمنع مثل هذا النشاط . أما اليوتوبيون فيعتقدون ، على العكس من ذلك ، أن الشخص الذى لم يلحقك منه أذى ، يجب ألا يعدّ عدوًّا ، وأن الأخوة التى خلقتها الطبيعة بين الناس تعمل عمل المعاهدة ، وأن الناس سيرتبطون برباط أفضل وأقوى إن ربط بينهم حسن النية لا المعاهدات ، والروح لا الكلمات .

الحرب

أما الحرب ، كنوع من النشاط ، فلا تليق إلا بالوحوش ، ومع ذلك لا يمارسها نوع من الوحوش أكثر مما يمارسها الإنسان ، فيبغضونها أشد البغض . وعلى عكس عادة جميع الشعوب الأخرى تقريباً ، لا يعتبرون شيئاً أبعد عن المجد من ذلك المجد الذى يتحقق عن طريق الحرب . ومع ذلك فالرجال والنساء على حد سواء يتدربون بحماس على الأعمال الحربية فى أيام محددة ، حتى لا يفتقروا إلى اللياقة الحربية إذا دعت الحاجة للحرب . ومع ذلك فهم لا يخوضون الحرب إلا إذا اقتضت الضرورة ذلك ، لحماية أراضيهم أو صد غزو عدو عن أراضى أصدقائهم ، أو شفقة بقوم يرزحون تحت وطأة القهر والإرهاب يخلصونهم بقوة السلاح من نير طاغية مُسْتَعْبِد ، وهو عمل يمليه عليهم التعاطف الإنسانى . وهم يقدمون العون لأصدقائهم ، لا للدفاع عنهم دائماً فحسب ، بل أحياناً أيضاً للانتقام والثأر لما سبق أن أنزل بهم من أضرار . ولكنهم لا يعملون ذلك ، على أية حال ، إلا إذا عرض عليهم الأمر قبل أن تتخذ أية خطوة فى سبيل ذلك ، كذلك فإنهم لا يبدءون الحرب إلا بعد أن

يستوثقوا من السبب وتذهب مطالبتهم بإعادة الحق إلى نصابه هباء . ويتخذون قرار الحرب فى النهاية ليس فقط عندما يغزو الأعداء البلاد ويحملون الغنائم بل يحاربون بضراوة أشد بكثير عندما يتعرض التجار من أصدقائهم لمعاملة جائرة فى أى بلد آخر تحت ستار القانون . وذلك إما بسبب قوانين جائرة فى ذاتها ، وإما بسبب تحريف قوانين عادلة .

وقد كان ذلك هو الدافع إلى الحرب التى شنها اليوتوبيون قبل زمننا بقليل إلى جانب النيفيلوجيت [١] ضد : الألوبوليتان [٢]. فقد ظنوا أن النيفيلوجيت قد أسيء إليهم تحت ستار القانون. وسواء أكان ذلك صوابـًا أم خطأ فقد انتقم لهم اليوتوبيون فى حرب ضارية ، وشاركت الشعوب المجاورة فى هذه الحرب بقواها ومواردها لتشد من أزر الجانبين وتعمق العداء بينهما . فكانت نتيجة ذلك أن بعض الشعوب البالغة الازدهار قد اهتزت من أساسها أولحقتها أضرار جسيمة . ولم تنته الاضطرابات تلو الاضطرابات إلا باستعباد الألوبوليتان واستسلامهم . ولما كان اليوتوبيون لا يحاربون لمصلحتهم الذاتية ، فقد سلموهم لسلطة النيفيلوجيت ، وهم شعب ، ما كان ليقارن بشعب الألوبوليتان إبان ازدهاره .

ويعاقب اليوتوبيون ما ينال أصدقاءهم من الإساءة ، حتى فى شئون المال ، بدرجة من الصرامة ، لايعاقبون بها ما يلحقهم هم من إساءة . فعندما يفقدون سلعهم فى أى مكان نتيجة الغش والخداع ، بدون أن يصيب أجسامهم أذى ، فإنهم لايعبرون

---

(١) (Nephelogetes) : كلمة مشتقة بمعنى أبناء السحاب .

(٢) (Alaopolitans) : كلمة مشتقة بمعنى البلد الخالى من الناس . انظر :
E. Surtz, ed., *Utopia.*, op. cit., p. 119, and J.C. Collins, ed., *Utopia*, op. cit., p.229.

عن غضبهم بأكثر من الامتناع عن التجارة مع هؤلاء القوم حتى يتم التراضى بينهم . وليس السبب فى ذلك أنهم أقل اهتماماً بمواطنيهم عنهم بحلفائهم ، بل السبب هو أنهم يحزنون للخسارة المالية التى تصيب أصدقاءهم بدرجة أكبر مما يحزنون للخسارة التى تحل بهم ، لأن التجار من أصدقائهم يقاسون بشدة نتيجة لتلك الخسارة التى تتحملها ممتلكاتهم الخاصة ، أما مواطنوهم فلا يفقدون إلا شيئاً من الممتلكات العامة التى توجد منها كميات وفيرة ، بل وتزيد عن حاجة البلاد ، وإلا لما صدر منها شىء إلى الخارج . ونتيجة لذلك فلا يشعر أى فرد فى البلاد بمثل تلك الخسارة . ولذا فهم يرون أنه من القسوة البالغة أن ينتقم لمثل هذه الخسارة بموت الكثيرين ما دامت الخسارة لا تؤثر فى حياة فرد من أفراد شعبهم أو فى معيشته .

أما إذا أصيب أحد مواطنى يوتوبيا بعاهة أو قتل ظلماً فى بلد آخر وسواء كان المسئول عن ذلك هو الحكومة أو فرد من المواطنين ، فإنهم يتحققون من الوقائع أولا عن طريق سفير من سفرائهم ، ثم إذا لم يسلم لهم المذنبون ، يرفضون أية ترضية ، بل يعلنون الحرب . أما إذا سلم المذنبون إليهم ، فإنهم يعاقبونهم إما بالموت وإما بأن يجعلوا منهم عبيداً . وهم لا يأسفون فحسب للنصر الذى يحرز عن طريق إراقة كثير من الدماء ، بل يخجلون منه أيضاً ، حاسبين أنه من الحماقة أن تشترى السلع ، مهما غلا ثمنها ، بأغلى مما تستحق .

أما إذا أنزلوا الهزيمة بأعدائهم وقضوا عليهم بالحيلة والدهاء ، فعندئذ يشعرون بفخر عظيم بشجاعتهم وبطولتهم عندما يحققون نصراً لا يمكن أن يحققه حيوان ، بل يحققه الإنسان وحده ، بقوة العقل ، فهم يقولون إن القوة الجسمانية ، اعتادت أن تحارب بها الدببة ، والأسود ، والخنازير والثعالب والكلاب ، وغيرها من الحيوانات المفترسة . ومعظمها تفوقنا قوة وضراوة ولكنها جميعاً أقل منا مهارة وروية .

أما الهدف الأوحد الذى يسعى اليوتوبيون لتحقيقه عن طريق الحرب فهو الحصول على ذلك الذى ، لو حصلوا عليه من قبل ، لمنع ذلك وقوع الحرب . أما إذا لم يكن هناك سبيل إلى ذلك ، فإنهم يطالبون بتوقيع العقوبة الصارمة على أولئك الذين يقع عليهم اللوم ، بحيث يخشون معاودة الكرة فيما بعد . ذلك هو أهم ما يشغلهم فى هذا الشأن ، وما يسعون بسرعة إلى تحقيقه ، على أن يحرصوا على تجنب الخطر أكثر مما يحرصوا على الفوز بالثناء والشهرة . ولذا فحالما تعلن الحرب ، فإنهم يعملون فى نفس الوقت على أن يقام سرًّا فى أكثر الأماكن لفتاً للأنظار فى أرض الأعداء عدد من اللافتات التى تحمل ختم الدولة لتكون ذات فاعلية أكبر . ويعدون فى هذه اللافتات بمنح مكافآت ضخمة لأى فرد يقتل ملك الأعداء . وفضلا عن ذلك ، يعدون بمنح مبالغ أقل ، وإن كانت كبيرة أيضاً ، مقابل رءوس الأفراد الذين يذكرون أسماءهم فى تلك اللافتات . أما هؤلاء الرجال ، فهم أولئك الذين يعتبرونهم مسئولين ، بعد الملك ذاته ، عن الإجراءات العدائية التى اتخذت ضدهم . ومهما كانت المكافأة التى يحددونها لأى اغتيال ، فإنهم يضاعفونها للرجل الذى يحضر إليهم أى طرف من الأطراف المحكوم عليهم حيًّا . ويقدمون نفس المكافآت ، كما يتعهدون بتأمين حياة جميع الأشخاص المذكورين ، إذا تحولوا إلى صفوفهم . وهكذا سرعان مايدب الشك فى أعدائهم نحو جميع الغرباء من ناحية ، ويفقدون الثقة والولاء فيما بينهم ، ويصبحون فى حالة من الذعر التام والخطر العظيم من ناحية أخرى . ومن المعروف جيداً أنه كثيراً ما حدث أن مُنى الكثيرون منهم ، وخاصة الملك ذاته ، بالخيانة على يد أولئك الذين وضعوا فيهم أكبر قدر من ثقتهم . فما أسهل ما تدفع الرشوة الناس إلى ارتكاب كل نوع من أنواع الجريمة . أما اليوتوبيون فلا يقفون عندحد فيما يقدمون من مكافآت . وهم يحرصون - علما منهم بمدى المخاطرة

التى يطلبون إلى الشخص أن يقوم بها – على الموازنة بين عظم الخطر وحجم المكافأة . ونتيجة لذلك فإنهم يدفعون بأمانة ما يعدون به ، لا فى شكل كميات ضخمة من الذهب فحسب ، بل أيضا ممتلكات من الأراضى التى تدر ريعًا مرتفعًا فى أماكن آمنة جدًّا من أراضى الأصدقاء .

أما عادة المزايدة من أجل شراء الأعداء ، التى يحكم عليها فى الأماكن الأخرى بأنها عمل يتسم بالقسوة ولا يأتيه إلا ذوو الطبيعة الدنيئة ، فيرون فيها انعكاسًا لعمل جدير بالثناء ، لأنه يعكس ما يتسمون به من حكمة ينهون بواسطتها حروبًا كبيرة بدون معارك ، أولا ، ومن إنسانية ورحمة لأنهم بموت بضعة أشخاص مذنبين يشترون حياة الكثير ومن الأشخاص الذين لا ضرر منهم ممن كانوا سيسقطون فى القتال فى كل من جانبهم وجانب الأعداء ، ثانيًّا . فهم يشفقون على جمهور الشعب من الأعداء كما يشفقون على أبناء شعبهم ؛ فهم يعرفون أن عامة الشعب يخوضون الحرب لا بمحض إرادتهم بل مدفوعين إليها نتيجة جنون الملوك . فإذا لم تنجح هذه الخطة ، بذروا بذور الفتنة على أوسع نطاق ، وشجعوا الصراع ببث الأمل فى الحصول على العرش فى نفس أخ للملك أو نبيل من النبلاء . فإذا خمد الصراع الداخلى ، حركوا جيران أعدائهم وورطوهم فى نزاع معهم ، ودفعوهم إلى المطالبة من جديد بحق منسى فى جزء من أراضيهم ، وهى أمور لا يفتقر الملوك إلى أمثالها فى أى وقت من الأوقات ، كذلك فإنهم يعدون بمساعدتهم فى الحرب ، كما يقدمون لهم كميات وفيرة من المال . ولكنهم لا يرسلون من مواطنيهم إلى صفوف القتال إلا القليل أو لا يرسلون منهم أحداً مطلقًا ، لأنهم يحبونهم حبًّا عظيما ، ولا يرضون باستبدال مواطن واحد منهم بأمير من أعدائهم . أما الذهب والفضة ، فلأنهم يحتفظون بهما لهذا الغرض بعينه ، فيقدمونهما بسخاء ، لأنهم سيعيشون بنفس الثراء ، إذا قدموا كل ما لهم حتى آخر درهم .

ذلك أنه فضلا عن المال الذى يحتفظون به فى بلادهم ، فلديهم أموال طائلة خارج البلاد ، نتيجة لأن شعوبًا كثيرة مدينة لهم بكثير من المال ، كما أسلفت . وهكذا يستأجرون الجند من جميع البلاد الأخرى ويبعثون بهم إلى القتال ، ولكن هؤلاء أساسًا ممن يطلقون عليهم اسم الزابوليت (١). وهم قوم يقيمون على مسافة ٥٠٠ ميل شرقى يوتوبيا . وهم أناس مخيفون ، شرسون ، يقطنون الغابات والمرتفعات حيث نشأوا وتربوا . ويتسمون بالقسوة والصلابة والقدرة على تحمل الحرارة والبرودة والعمل الشاق ، ويكرهون الحياة الهادئة الوديعة ، ولا يعملون بالزراعة أو حرث الأرض . ولا يهتمون بالمنازل التى يسكنونها أو الملابس التى يرتدونها ولا يشغلهم سوى أغنامهم وماشيتهم . ويعيشون إلى حد بعيد على الصيد أو السرقة ؛ فقد ولدوا من أجل الحرب ، التى يسعون إليها بحماس ، ويفرحون جدًّا عندما يجدونها . وهم يخرجون من بلادهم فى جماعات ، وحيثما وجدت حاجة إلى الجند ، قدموا خدماتهم لقاء أجر ضئيل . فالحرفة الوحيدة التى يعرفونها فى الحياة هى تلك التى يسعون بها إلى حتفهم . وهم يحاربون بشراسة وأمانة فى خدمة أولئك الذين يستأجرونهم . ولكنهم لا يرتبطون بهم إلا لأجل معين وبشرط أنهم قد ينضمون إلى الجانب الآخر فى اليوم التالى ، إذا قدم لهم أجراً أكبر بقليل . وقلما توجد حرب لا يحارب فيها عدد كبير منهم فى كل من الجانبين . وهكذا يحدث يوميًّا أن بعض ذوى القربى ممن استؤجروا معًا للقتال فى جانب واحد ، وكانوا على خير ما تكون الصداقة والألفة فيما بينهم ، سرعان ما ينفصلون إلى جانبين متحاربين ، فيهاجمون الواحد الآخر بحقد ووحشية ، ناسين القربى والصداقة التى تربط بينهم ، وهم يغمدون سيوفهم الواحد فى صدر

---

(١) الزابوليت (Zapoletans) : « البائعون النشطون » : بمعنى من يبيعون خدماتهم المرة بعد المرة ويعنى بهم السويسريين .

الآخر . وذلك لا لسبب سوى أن أميرين متخاصمين قد استأجراهما للقتال كل إلى جانبه مقابل قدر قليل من المال الذى يهتمون به اهتماماً عظيماً ، لدرجة يسهل معها إغراؤهم بالانتقال من جانب إلى جانب مقابل زيادة طفيفة فى الأجر اليومى ، فقد أصبحوا يجدون لذة كبرى فى هذا الجشع ، الذى لا يعود عليهم بكثير من النفع ، فسرعان ما ينفقون فى اللهو ، دون حساب ، ذلك الذى يحصلون عليه بالقتال .

ويحارب هؤلاء القوم فى صفوف اليوتوبيين ضد غيرهم من الشعوب لأنهم يدفعون لهم أجوراً أكبر مما تدفع الشعوب الأخرى . فاليوتوبيون ، الذين يبحثون عن خير الرجال لاستخدامهم استخداماً حسناً يبحثون أيضاً عن أكثر هؤلاء الأوغاد شراً وشراسة لاستخدامهم فى الأغراض السيئة ، ويدفعون بهم عندما تضطرهم الحاجة إلى ذلك ، إلى أخطار كبرى ، بالوعود بتقديم مكافآت كبيرة . أما العدد الأكبر فلا يعود من تلك المخاطر ليطالب بالمكافأة . أما لمن ينجو ويظل على قيد الحياة ، فيدفعون ما وعدوا به بأمانة وذلك حتى يكون هؤلاء أكثر استعداداً لمواجهة مثل تلك الأخطار فى المرات القادمة . ومهما بلغ عدد أولئك الذين يدفع بهم اليوتوبيون إلى الهلاك ، فذلك لا يشغلهم مطلقاً ، لأنهم يعتقدون أنهم سيقدمون خدمة جليلة للبشرية كلها ، إذا خلصوا العالم من تلك الشرذمة الفاسدة من حثالة البشر . فإذا اقتضى الأمر ، فإنهم يستخدمون جند الشعوب التى يحاربون من أجلها ثم يستعينون بجنود الشعوب الصديقة ، ثم أخيراً بأبناء وطنهم ، ويختارون من بينهم شخصاً مشهوداً له بالفضيلة والشجاعة ليضعوا فى يده قيادة الجيش كله . ويعينون بعده شخصين آخرين لا يشغلان أية رتبة طالما كان القائد الأول بخير ، فإذا أسر أو قتل خلفه أحدهما . فإذا ما أصاب الثانى مكروه ، خلفه الثالث ، وذلك حتى لا يؤدى موت

القائد أو تعرضه للخطر ، فى ظروف المعركة ، التى لا يمكن التكهن بها ، إلى تعرض الجيش كله للخطر . ويختارون للجندية من كل مدينة أولئك الذين يتطوعون لذلك ، فهم لايدفعون برجل إلى الحرب رغم أنفه ، لاعتقادهم بأن الرجل الجبان الرعديد لن يخفق فى القيام بالأعمال التى تحتاج إلى الرجولة والشجاعة فحسب ، بل سيكون سبباً فى انتقال عدوى الجبن إلى زملائه . أما إذا شن عدو الحرب على بلادهم ، فعندئذ يضع اليوتوبيون هؤلاء الجبناء (ما داموا أقوياء الجسم) على ظهر السفن بين غيرهم من الرجال الشجعان ، أو يقيمونهم على الأسوار حيث لا يستطيعون الفرار . وهكذا فإنهم ينسون مخاوفهم ، عندما يشعرون بالخجل لاقتراب الأعداء وييأسون من الفرار وكثيراً ما يتحول الجبن عند الضرورة القصوى إلى شجاعة ورجولة .

ولما كانت الدولة لاتدفع بأحد منهم إلى الحرب على غير رغبته ، فإن النساء اللاتى يرغبن فى اصطحاب أزواجهن إلى ساحة الحرب لايمنعن من ذلك ، بل على العكس من ذلك يشجعن ويحثثن على ذلك بالمديح والثناء . وفى ميدان القتال تقف الزوجات إلى جانب أزواجهن . وأيضا يحيط بكل رجل أبناؤه وذوو قرباه ، وذلك بهدف أن يساعد أولئك الذين يميلون بالطبيعة إلى التعاون ، بعضهم البعض ، عندما يقفون هكذا جنباً إلى جنب . فهم يحسبونه عاراً وخيانة أن يعود الزوج بدون زوجته أو الزوجة بدون زوجها ، أو الابن بدون أبيه . ونتيجة لذلك ، فعندما يصل الأمر إلى القتال وجهاً لوجه ، إذا صمد العدو ، فإن المعركة تصبح طويلة عنيفة وتنتهى بالقضاء تماماً على الجانبين . فبالرغم من أنهم لا يألون جهداً فى تجنب القتال أو استخدام الجند المأجورين للقتال فإذا لم يكن هناك بد من أن يحاربوا بأنفسهم ، حاربوا بشجاعة تماماً كما حاولوا بحكمة من قبل أن يتجنبوا القتال ويمنعوا وقوعه .

ومع ذلك فإنهم لا يحاربون بضراوة عند بدء الهجوم ولكنهم يزدادون قوة وإصراراً شيئًا فشيئًا ، بحيث يفضلون أن يُمزقوا إربًا عن أن يستسلموا . ذلك أن الشعور بالأمن الذى يشعر به كل منهم فى بلده ، فضلا عن خلوهم من القلق على أبنائهم من بعدهم (فكثيراً ما تخور القلوب الشجاعة نتيجة للهم والقلق) يقوى عزيمتهم ويجعلهم يحتقرون الهزيمة . وإلى جانب ذلك فإن تدريبهم المتخصص على الأعمال الحربية يملأ نفوسهم بالثقة . وأخيراً فإن المبادئ الفاضلة الصحيحة التى نشأوا عليها منذ طفولتهم عن طريق التعليم من ناحية وعن طريق قوانين دولتهم الصالحة من ناحية أخرى ترفع من شجاعتهم ورجولتهم . ونتيجة لذلك ، فإن اهتمامهم بالحياة لا يبلغ الحد الذى يجعلهم لايقيمون لها وزنًا فيلقون بها بتهور ولا يبلغ الحد الذى يجعلهم يتدلهون فى حبها فيفرطون فى التمسك بها بشكل مخجل عندما يدعوهم الشرف إلى عدم التمسك بها .

وبينما تبلغ حرارة المعركة ذروتها فى كل مكان ، تأخذ جماعة مختارة من الشبان ، الذين كرسوا أنفسهم لهذه المهمة ، فى البحث عن قائد جيش الأعداء ، فيهاجمونه علنًا تارة ، ويقيمون له كمينًا تارة أخرى . يوجهون إليه ضرباتهم من قريب ومن بعيد . ويستمر الهجوم عن طريق إسفين من الرجال ، يأخذ فيه رجال جدد مكان أولئك الذين أصابهم التعب بصفة مستمرة . وهكذا قلما يحدث ، ما لم يلُذ القائد بالفرار بحثًا عن السلامة ، ألا يقتل أو يقع أسيراً فى يد الأعداء .

فإذا تحقق لهم النصر ، فلا يتبع ذلك عمليات قتل لا ينجو منها أحد ، فهم يفضلون أسر المهزومين عن قتلهم . كما أنهم لا يطاردون الجيش الهارب أبداً دون أن يتركوا وراءهم فرقة مجهزة من الرجال ، على استعداد للقتال تحت لوائهم . وتلك قاعدة لا يخرجون عنها لدرجة أنه إذا حدث أن أحرزوا النصر ، بعد أن هزم بقية

الجيش كله ، بواسطة هذه الفرقة ، فإنهم يفضلون أن يتركوا أعداءهم يفرون عن أن يمارسوا عادة مطاردتهم وقواتهم غير منتظمة . فهم يذكرون أنه قد حدث أكثر من مرة بعد أن هزم الجزء الأكبر من جيشهم وتفرق ، وبينما الأعداء ، فرحين بإحراز النصر ، وقد أخذوا فى مطاردة الجيش الهارب فى كل ناحية ، قام بغتة عدد قليل من جنودهم كانوا قد احتفظوا بهم احتياطياً لمواجهة الطوارئ وهاجموا الأعداء المتفرقين الموزعين ، وهم على غير استعداد إذ ظنوا أنفسهم بمأمن من عدوهم . وهكذا غيروا مصير المعركة تماماً ، وانتزعوا من يدى العدو نصراً مؤكداً لا شك فيه ، وهزموا بدورهم عدوهم ، وقد كانوا هم المهزومين .

وليس من السهل أن نقرر ما إذا كانوا أكثر دهاء فى إقامة كمين أو أكثر حرصاً على تجنبه . فقد تحسب أنهم ينوون الفرار بينما يكون ذلك آخر ما يدور بخلدهم ، وعلى العكس من ذلك عندما يقررون الهرب ، فقد يخيل إليك أن ذلك آخر ما يفكرون فيه . فإذا أحسوا أنهم أقل عدداً من عدوهم أو أنه قد ضيق الخناق عليهم ، فإما أن يتقدموا وينقلوا معسكرهم ليلا ودون جلبة وإما أن يراوغوا العدو بحيلة ما ، وإما أن يتقهقروا ببطء يكاد لا يرى بدرجة من النظام بحيث يتعرض العدو إذا هاجمهم وهم يتقهقرون لنفس الخطر الذى يتعرض له إن هاجمهم وهم يتقدمون .

ويقومون بتحصين معسكرهم بكل حرص بخندق عميق عريض ، ويلقون بالأتربة التى يخرجونها منه إلى الداخل . ولا يكلفون أقل العمال شأناً بهذا العمل ، بل يقوم به الجند بأيديهم . ويشترك الجيش كله فى ذلك فيما عدا من يقومون بالحراسة ، وهم بملابس القتال أمام الخندق استعداداً لصد أى هجوم مفاجئ . وهكذا ، باشتراك كل هذا العدد ، يقيمون تحصينات عظيمة ، حول مساحة كبيرة من الأرض ، بسرعة لا يصدقها العقل .

وبزة الحرب التى يرتدونها شديدة التحمل بحيث ترد الضربات ، ولكنها لاتعوق حركات الجسم وأوضاعه المختلفة ، بحيث يستطيعون حتى العوم دون صعوبة وهم يرتدونها ، فهم يتدربون على العوم وهم بلباس الحرب كجزء من تدريباتهم العسكرية . أما الأسلحة البعيدة المدى التى يستخدمونها فهى السهام ، التى يطلقونها بقوة ومهارة فى إصابة الهدف ، المشاة منهم والفرسان على حد سواء . أما عن قرب فلا يستخدمون السيوف بل فؤوس الحرب ، التى تعد نظراً لمضى طرفها وثقل وزنها ، أسلحة قاتلة ، سواء استخدمت فى ضربات أمامية أوسفلية . أما المركبات الحربية فيصنعونها بحذق فائق . وعندما يصنعونها يخبئونها بحرص شديد ، لئلا تعرف قبل أن تقضى الحاجة باستخدامها ، فتصبح أضحوكة بدلا من أداة من أدوات الحرب . وأكثر ما يهتمون به فى صنعها هو أن تكون خفيفة الوزن سهلة الحركة والمناورة .

وإذا أبرموا هدنة مع عدو ، احترموها بكل أمانة ، وامتنعوا عن خرقها ، حتى إذا أثيرت حفيظتهم . وهم لا يخربون أرض الأعداء أو يحرقون حقولهم ، بل يعملون قصارى جهدهم على حمايتها من أن تدوسها أقدام الرجال أو الخيل ، علماً منهم بأن ذلك سيعود عليهم بالفائدة . وهم لا يمسون رجلا لا يحمل السلاح بسوء ، إلا إذا كان جاسوساً . وعندما تستسلم لهم المدن يحافظون عليها . ولا ينهبون حتى تلك المدن التى يدخلونها بقوة السلاح ، ولكنهم يقتلون أولئك الرجال الذين قاوموا الاستسلام . أما غيرهم ممن اشتركوا فى الدفاع فيجعلون منهم عبيداً . أما جمهور الشعب من غير المحاربين فلا يمسونهم بأذى . فإذا اكتشفوا أن بعض المواطنين كانوا قد نصحوا باستسلام مدينتهم ، منحوهم جزءاً من ممتلكات أولئك الذين أدينوا . أما باقى السلع المستولى عليها فيوزعونها بين أولئك الذين ساعدوهم ، أما رجالهم فلا ينال واحد منهم شيئاً من الغنيمة .



وعندما تنتهى الحرب ، لا يحملون أصدقاءهم شيئًا من التكاليف التى تحملوها نيابة عنهم ، بل يحملونها أولئك الذين هزموهم . ولا يجعلونهم يدفعون مالاً فحسب يحتفظون به للأغراض الحربية المماثلة ، بل يتسلمون منهم ضياعًا يحصلون منها دائمًا على دخل سنوى كبير . ويأتيهم مثل هذا الدخل من بلاد كثيرة ، وقد تجمعت هذه الأموال التى تأتى شيئًا فشيئًا بحيث جاوزت سبعمائة ألف دوقية سنويًا . وهم يرسلون إلى هذه الضياع بعض مواطنيهم ، الذين يطلقون عليهم لقب الوكلاء الماليين ليعيشوا هناك فى أبهة كبيرة ويقومون بدور أصحاب المكانة والسلطة ، ومع ذلك تتوفر أموال طائلة تودع فى الخزانة العامة ، ما لم يفضلوا أن يقرضوها للشعب المهزوم . وكثيراً ما يفعلون ذلك إلى أن يحتاجوا إلى استعمال هذا المال ، وحتى عندئذ فقلما يستردون المبلغ كله . أما الضياع ذاتها فيمنحون جزءاً منها لأولئك الذين يقومون بناء على طلبهم بتلك المهمة الخطرة التى وصفتها من قبل .

فإذا شهر ملك سلاحه فى وجوههم وهمّ بغزو أرضهم ، تقدموا لمواجهته سريعًا بقوة عظيمة خارج حدودهم . فهم لا يقدمون على القتال بدون روية داخل بلادهم قط ، كما أنهم لا يجدون فى أى طارئ مهما كان عاجلا مبرراً للسماح للحلفاء الأجانب بالدخول إلى جزيرتهم .

الأديان فى يوتوبيا

هناك أنواع مختلفة من الأديان لا فى الجزيرة بوجه عام فحسب ، بل فى كل مدينة من مدنها أيضاً . فالبعض يتخذ من الشمس إلهاً ، ويعبد البعض القمر ، ويعبد البعض الآخر كوكبًا من الكواكب . ويقدس البعض رجلا معروفًا بصلاحه وفضيلته أو بمجد حققه فى الماضى لا كإله فحسب ، بل كالإله الأعلى أما الغالبية

العظمى ، وأكثر اليوتوبيين حكمة ، فلا يؤمنون بشيء من هذا ، بل يؤمنون بكائن واحد معين ، غير معروف ، أبدى ، يفوق التصور والفهم ، وأبعد بكثير عن متناول العقل البشرى ، منتشر فى العالم كله ، لا حجمًا بل قوة . ويطلقون عليه لفظ الأب . وإليه ينسبون بدايات الأشياء جميعًا ، ونموها ، وتطورها ، وتغيرها ، ونهاياتها كما يرونها . ولا يقدمون العبادة لسواه .

وفضلا عن ذلك ، فإن جميع من عداهم من اليوتوبيين ، بالرغم من معتقداتهم ، يتفقون معهم فى هذا الشأن ، وهو الإيمان بوجود كائن أعلى واحد ، خالق الكون كله ، ومدبّره بحكمته . ويدعونه جميعاً بلغة بلادهم ميثرا[1] إلا أن نظرتهم إليه تختلف من شخص إلى آخر . ذلك أن كلا منهم يرى فى ذلك الذى يعتبره الكائن الأعلى تلك الطبيعة بعينها التى ينسب إلى قوتها الفريدة وعظمتها وجلالها مجموع ما فى العالم كله من أشياء بإجماع آراء جميع الشعوب . ولكنهم فى سبيلهم تدريجيًّا إلى التغلب على هذا الاختلاف فى المعتقدات والاتجاه نحو الاتحاد فى ذلك الدين الذى يبدو للعقل متفوقًا على غيره من الأديان . ومما لا شك فيه أن الأديان الأخرى كانت لا بد ستختفى من زمن بعيد ، لولا أنه كلما وقع مكروه لأحد أتباعها عرضًا ، بينما كان يفكر فى تغيير دينه ، حدا به الخوف لتفسير ذلك ، لا على أنه حادث عرضى ، بل على أنه تحذير من السماء ، وكأن الإله الذى كان بصدد هجر عبادته ينتقم منه بهذا الشكل عقابًا على تلك النية غير الورعة التى راودته بشأنه .

---

(١) ميثرا (Mithra): اسم الإله الفارسى . فلغة اليوتوبيين مشتقة من اللغة الفارسية . بالرغم من أنهم من سلالة اليونان كما تدل على ذلك أسماء مدنهم وأسماء الوظائف العامة لديهم .

ولكنهم بعد أن سمعوا منا عن السيد المسيح ، وتعاليمه ، وخلقه ، ومعجزاته ، وعما لايقل روعة من ثبات الشهداء الكثيرين الذين أريقت دماؤهم بغزارة مما اجتذب شعوباً كثيرة من مشارق الأرض ومغاربها إلى دينهم ، فلن تصدقوا مدى السرعة التى رغبوا بها هم أيضاً فى اعتناق هذا الدين ، سواء أكان ذلك نتيجة وحى غامض من الله أو لأنهم رأوا فى ذلك الدين أكثر الأديان قرباً إلى الدين الذى يعد أكثرها انتشاراً بينهم . ومهما يكن الأمر ، فاعتقد أن من العوامل التى كان لها وزن ليس بقليل أيضاً ، ما قد سمعوه من أن المسيح سر باشتراكية الحياة بين تلاميذه وأن تلك الاشتراكية مازالت قائمة فى أكثر المجتمعات المسيحية أصالة . ولكن أياً كان العامل الذى كان له فضل التأثير عليهم ، فقد دخل عدد ليس بالقليل منهم ديننا ، وطهروا بماء المعمودية المقدس . ولكن لما لم يكن بيننا نحن الأربعة للأسف كاهن (فقد كان ذلك هو عدد من بقى منا على قيد الحياة ، بعد أن توفى اثنان من الجماعة) ، فقد حصلوا منا على جميع ما هو متصل بهذا الدين ، فيما عدا تلك الأسرار المقدسة التى لا يمكن أن يؤديها إلا الكهنة . ولكنهم يفهمونها على أى حال ، ويرغبون فيها رغبة شديدة . وفضلا عن ذلك ، فهم يناقشون الأمر بجدية فيما بينهم ، متسائلين إذا كان من الممكن ، دون إرسال أسقف مسيحى ، أن يحصل شخص مختار من بينهم على صفة الكهنوت . وبدا لنا أنهم بصدد اختيار مرشح لذلك ، ولكن ذلك لم يتم قبل مغادرتنا لبلادهم .

وأما أولئك الذين لا يقبلون دين المسيح ، فلا يحاولون منع غيرهم من الدخول فيه . ولا يهاجمون أحداً ممن يعلنون اعتناقه . شخص واحد من جماعتنا ، تعرضوا له أثناء وجودنا هناك . ذلك أنه ما كاد يعمد ، حتى أخذ ، بالرغم من نصحنا له بأن يمتنع عن ذلك ، فى الحديث جهراً عن دين المسيح بحماس يزيد عما تقتضيه

الحكمة . وبلغ به الحماس فى الدعوة إلى هذا الدين حداً جعله لايفضله عن غيره من الأديان فحسب ، بل أن يدين جميع الأديان الأخرى أيضاً ، معلناً أنها جميعاً أديان باطلة ، ومتهماً أتباعها بعدم الورع والكفر واستحقاق النار الأبدية . ولما طال حديثه بهذا الأسلوب ، ألقى القبض عليه ، وحوكم وأدين باحتقار دين البلاد بل وبإثارة الفتنة بين الناس . أما العقوبة التى حكم بها عليه بعد إدانته فكانت النفى . والحقيقة أن من أقدم المبادئ المتبعة لديهم ، ذلك المبدأ القائل بألا يضار شخص بسبب دينه .

فقد بلغ سمع الملك يوتوبوس ، قبل وصوله إلى يوتوبيا ، أن السكان لا يكفون عن الخصام فيما بينهم ، كما لاحظ أن الخلافات العامة بين المذاهب المختلفة التى كان يحارب معتنقوها فى سبيل الوطن ، قد هيأت له فرصة النصر عليهم جميعاً . لذا قرر منذ البداية ، بعد أن أحرز النصر ، أن يكفل القانون لكل شخص حرية اعتناق الدين الذى يريده ، ويسمح له بدعوة الآخرين إلى دينه ، بشرط أن يؤيد الدعوة بالمنطق وبهدوء ووداعة ، وألا يهاجم الأديان الأخرى بمرارة إذا لم تنجح حججه ، وألا يستخدم العنف ، ويمتنع عن السب . فإذا ما عبَّر عن آرائه بعنف وحماس متطرف ، عوقب بالنفى أو بأن يصبح عبداً .

وقد وضع الملك يوتوبوس هذه القواعد لا حباً فى السلام ، الذى رأى أنه دائم التعرض للخطر نتيجة للجدل المستمر والكره الدائم فحسب ، بل أيضاً لأنه رأى أن هذه الطريقة لتسوية الأمور تخدم الدين أيضاً . أما بشأن الدين ، فلم يكن يجرؤ على إصدار القواعد دون ترو . ذلك أنه لم يكن واثقاً من أن الله لا يريد أنواعاً كثيرة ومختلفة من العبادة ، ولذا لم يوح للشعوب المختلفة بآراء مختلفة . ولكنه كان واثقاً من أنه من الوقاحة والطيش معاً أن يطلب شخص إلى الناس عن طريق

العنف والتهديد أن يؤمنوا بصدق ما يؤمن هو بأنه الصدق. وفضلا عن ذلك ، فحتى لو أن ديناً واحداً بالفعل هو الدين الصحيح وبقية الأديان باطلة ، فقد رأى مسبقاً أنه إذا عولج الأمر بتعقل واعتدال ، فسيظهر الحق بقوته الطبيعية إن عاجلا وإن آجلا ويتجلى بوضوح. أما إذا فض النزاع بالسلاح والفتنة ، فلما كان أسوأ الرجال هم دائماً أكثرهم تمسكاً بآرائهم ، فإن أفضل الأديان وأكثرها قدسية ستقهر نتيجة لتلك الأديان الباطلة المتنازعة ، كالحنطة يخنقها الزوان والأشواك . لذلك ترك يوتوبوس أمر الدين بدون تحديد وترك لكل شخص حرية اختيار الدين الذى يريد اعتناقه . ولكنه أوصى بكل جدية وشدة ألا يبلغ الأمر الدرجة التى تنزل بالشخص عن كرامة الطبيعة الإنسانية فيعتقد أن الروح تموت وتنتهى بانتهاء الجسد ، أو أن العالم يسير بغير هدى لا تحكمه قوة إلهية .

ونتيجة لذلك ، فمن المقرر ، فى نهاية هذه الحياة ، أن تنال الرذائل عقابها والفضائل جزاءها . ذلك هو اعتقادهم . أما من يعتنق رأياً مخالفاً لذلك ، فلا يحسبونه من عداد بنى الإنسان ، ذلك أنه نزل بروحه السامية بطبيعتها إلى مستوى جسم الحيوان البائس ، بل ولا يعتبرون فى عداد المواطنين شخصاً ما كان ، لولا الخوف ، ليحترم قوانين البلاد وعاداتها . فمن ذا الذى يشك فى أنه سيسعى جاهداً ، إما للتحايل بمكر على القوانين العامة للبلاد ، وإما لكسرها بالعنف إشباعاً لرغباته الخاصة ، ما دام لايخشى سوى القوانين ، ولا يأمل فى شىء أكثر من الأمور الجسدية ، ومن هنا يحرم الشخص الذى يفكر بهذه الطريقة من جميع أنواع التكريم ، ولا يشغل أية وظيفة عامة ، ولا يكلف بأى عمل . وينظر إليه الجميع على أنه يتسم بطبيعة كسولة وضيعة ولكنهم لايوقعون عليه أية عقوبة ، لأنهم يؤمنون بأنه ليس بمقدور الشخص أن يؤمن بما يريد ، كما لا يجبرونه عن طريق التهديد أن يخفى

آراءه ، كما لا يسمحون فى هذا الشأن بأى نوع من أنواع الخداع أو الكذب التى يكرهونها أشد الكره ويرون أنها لا تختلف كثيراً عن ارتكاب الخطأ نفسه . ولكنهم يمنعون مثل هذا الشخص من مناقشة أفكاره فى حضور عامة الشعب ، أما أمام الكهنة والشخصيات الهامة ، فلا يسمحون له بذلك فحسب ، بل يشجعونه أيضاً على ذلك ، واثقين من أن مثل هذا الجنون سيسلم فى النهاية للعقل .

كذلك هناك أشخاص آخرون ، ليسوا بالعدد القليل ، يتركونهم وشأنهم لأنهم لا يفتقرون كلية إلى الحجة فيما يذهبون إليه من آراء ، ولأنهم ليسوا أشراراً . فهم يرتكبون خطأ من نوع آخر ، إذ يعتقدون أن للحيوان الأعجم روحاً خالدة أيضاً ، وإن كانت لا تقارن فى الكرامة بأرواح البشر ولن تستمتع بما قدر لهذه الأرواح من سعادة . ويثق اليوتوبيون جميعاً تقريباً ثقة تامة ويؤمنون إيماناً كاملا بأن الغبطة التى سيتمتع بها الإنسان ستكون عظيمة لدرجة أنهم ، بينما يحزنون لمرض أى شخص ، إلا أنهم لا يأسفون لموت أى شخص سوى ذلك الذى يرونه ينتزع من الحياة وهو قلق غير راض بذلك لأنهم يرون فى هذا السلوك علامة سيئة جداً ، فكأن الروح ، يعوزها الأمل ويقلقها ضمير معذب فتخشى أن تفارق الحياة ، نتيجة لإحساس داخلى بما ينتظرها من العقاب . وفضلا عن ذلك ، فإنهم يعتقدون أن الله لن يسر بمجىء شخص لا يسرع عندما يدعى فرحاً لتلبية النداء ، بل يجر جراً على غير رغبته . ولذا فمن يشهدون مثل هذه الميتة ، يمتلئون رعباً ويحملون الميت إلى الخارج لدفنه فى صمت حزين . ثم بعد الصلاة التى يطلبون إلى الله فيها أن يكون رحيماً بروحه ، وأن يغفر له ضعفه بنعمته ، يوارون الجثة التراب . وعلى العكس من ذلك ، عندما يموت الناس فرحين ويتركون الحياة ممتلئين بالأمل ، لا يبكيهم أحد ، بل يشيعونهم بالغناء ، طالبين إلى الله أن يتسلم أرواحهم بحب

عظيم . ثم يحرقون أجسادهم باحترام وبغير حزن ، ويقيمون فى تلك البقعة نصبا ، يحفرون عليه الصفات الحميدة للشخص المتوفى . وعندما يعودون إلى منازلهم ، يتحدثون عن خلقه وأعماله الصالحة . ولايتحدثون عن أى جانب من حياته أكثر مما يتحدثون عن موته الفرح . ويرون أن فى تذكر سيرته الصالحة لا وسيلة فعالة جداً لحث الأحياء على الأعمال الصالحة فحسب ، بل أيضا أسلوباً مقبولا جداً لتكريم الموتى ، الذين يعتقدون أنهم موجودون بينهم ، حين يتحدثون عنهم ، وإن كانوا غير مرئيين لبصر البشر الضعيف . أما ألا يكونوا أحراراً يذهبون حيث يشاءون فذلك ما لا يتفق ومصير المطوّبين ، أما أن يرفضوا تماماً كل رغبة فى زيارة أصدقائهم الذين ارتبطوا بهم طوال حياتهم بالحب والود المتبادل ، فذلك مالا يتفق والاعتراف بالجميل . فاليوتوبيون يعتقدون أن الحرية مثلها مثل جميع الأشياء الطيبة الأخرى ، تزداد أكثر مما تنقص بعد الموت لجميع الأخيار من الرجال . ونتيجة لذلك يعتقدون أن الموتى يتحركون بين الأحياء ويشهدون أعمالهم ويسمعون أقوالهم . ومن هنا فهم يقومون بشئون حياتهم بقدر أكبر من الثقة ، معتمدين على ما يوفره لهم ذلك من وقاية . وفضلا عن ذلك ، فإن الإيمان بوجود أشخاص أجدادهم بينهم ، يمنعهم من القيام سراً بأى عمل لايتسم بالشرف والأمانة .

وهم يحتقرون تماماً ويسخرون من العرافة وجميع أنواع التنبؤ القائمة على الخرافة الباطلة ، التى يهتم بها الناس فى البلاد الأخرى اهتماماً كبيراً . أما المعجزات ، التى تحدث بدون مساعدة من الطبيعة ، فإنهم يحترمونها كدلائل وشواهد على وجود قوة إلهية . ويقولون أيضاً إن المعجزات كثيراً ما تحدث فى بلادهم . وأحياناً فى حالة الأزمات الحرجة ، يصلون صلوات جماعية طالبين تحقيق معجزة ، ينتظرونها وتتحقق لهم بإيمان عظيم .

ويعتقدون أن دراسة الطبيعة ، والتسبيح الذى ينبع منها ، عبادة مقبولة لدى الله . ومع ذلك ، فهناك أشخاص ، ليسوا بالعدد القليل ، يتجنبون العلم والاهتمامات العلمية لأسباب دينية ، ولكنهم مع ذلك لايسمحون لأنفسهم بشيء من الفراغ . فهم مصممون على أن يكونوا مستحقين للسعادة المستقبلة بعد الموت ، عن طريق العمل المتصل وجميع الأعمال الصالحة وحدها . أما البعض فيرعون المرضى ، والبعض الآخر يصلحون الطرق ، وينظفون الخنادق ، ويعيدون بناء الجسور ، وينقلون التراب والرمل والأحجار ، ويقطعون الأشجار ، وينقلون الأخشاب ، والحبوب ، وغيرها من الأشياء فى العربات إلى المدن . ولا يفعلون ذلك من أجل الشعب عامة فقط ، بل من أجل الأفراد أيضاً ، عاملين كالخدم ، بل كالعبيد وأكثر . فإذا وجد فى أى مكان عمل كريه شاق وقذر لدرجة أن معظم الناس يمتنعون عن أدائه لأنه شاق ومقزز وباعث على اليأس ، أخذوه كله على عاتقهم بفرح وابتهاج . وبينما يشغلون أنفسهم دائماً بالعمل الشاق ، يوفرون الفراغ لغيرهم ، ولا يطلبون مقابل ذلك شكراً أوثناء . وهم لا يقللون من شأن الغير بالنيل منهم أو الثناء على أنفسهم . ولكن كلما غالى هؤلاء الرجال فى وضع أنفسهم موضع العبيد زاد تكريم الجميع لهم . وينقسم هؤلاء الأشخاص إلى مذهبين : أما المذهب الأول فينتمى إليه المتبتلون ، الذين يمتنعون لا عن ممارسة العلاقات الجنسية فحسب ، بل أيضاً عن أكل جميع أنواع اللحوم بل فى بعض الأحوال عن جميع أنواع المأكولات الحيوانية . وهم يرفضون تماماً ملذات هذه الحياة كأشياء ضارة ولا يتوقون إلى شىء سوى الحياة الأخرى التى يسعون إليها بالسهر والعرق . ولأنهم يأملون أن يدركوها فى وقت قريب جداً ، لذا فهم فرحون نشطاء حتى ذلك الحين .

أما المذهب الآخر فلا يقل حباً للعمل الشاق ، ولكن أفراده يفضلون الزواج ،

ولا يحتقرون ما يجلبه من راحة ، حاسبين أن واجبهم نحو الطبيعة يتطلب منهم القيام بالممارسة الزوجية وواجبهم نحو بلدهم يتطلب منهم إنجاب الأبناء . وهم لا يمتنعون عن أى نوع من الملذات ما لم يتعارض مع عملهم . ويحبون لحوم الحيوانات لأنهم يرون أن هذا الطعام يجعلهم أكثر قوة وقدرة على أى نوع من العمل . ويعتبر اليوتوبيون هؤلاء الرجال أكثر حكمة أما أولئك السالف ذكرهم فأكثر قداسة . فإذا كان هؤلاء قد فضلوا التبتل على الزواج ، والحياة الصعبة على الحياة المريحة على أساس من الحجج المنطقية لضحكوا منهم واحتقروهم . أما وهم يقولون بأن الدين هو الحافز على ذلك ، فيحترمونهم ويكرمونهم . فليسوا أكثر حرصاً على شيء منهم على حرصهم على عدم التسرع بإبداء الآراء المتزمتة فى شأن من شئون الدين . أولئك إذن هم الرجال الذين يطلقون عليهم فى لغتهم اسماً خاصاً لهم ، هو بوثريسكاى ومعناه « المتدينون بحق »[1] .

وكهنة اليوتوبيين بالغو القداسة ، ولذا فهم قليلون جداً . ولا يزيد عددهم عن ثلاثة عشر كاهناً فى كل مدينة ، ونفس العدد من الكنائس فى كل مدينة ، ما عدا فى حالة الحرب . فى هذه الحالة يصحب سبعة من الكهنة الجيش ، ويعين سبعة آخرون مكانهم فى نفس الوقت . وعندما يعود الكهنة الأصليون ، يعود كل إلى عمله الأصلى . أما أولئك الذين يزيدون عن الثلاثة عشر ، فيبقون مع الكاهن الأعظم ، إلى أن يخلفوا من تخلو أماكنهم بالوفاة . ذلك أن كاهناً يعين للرئاسة . أما الكهنة فينتخبهم الشعب كما ينتخب غيرهم من الموظفين بالاقتراع السرى لتجنب روح الحزبية . وعندما ينتخبون ، يكرسون بواسطة جماعة الكهنة .

---

(١) (Buthrescae): المعنى الحرفى هو : « الشديدو التدين » أو « المتدينون بشكل غير عادى » .

ويرأس الكهنة الخدمة الإلهية ، وينظمون الطقوس الدينية . ويعد من العار أن يدعو الكاهن شخصاً إليه أو يوبخه لأنه لا يعيش باستقامة . ومن واجبهم إسداء النصح والحث على العمل الصالح . أما ردع المخطئين وعقابهم فمن عمل الحاكم وغيره من الرؤساء المدنيين . ولكن الكهنة يحرمون من المشاركة فى الخدمة الدينية الأشخاص الأشرار بدرجة غير عادية . ولا تكاد توجد عقوبة أكثر رهبة بين الناس من تلك العقوبة ، فمن توقع عليه يصبح موضع عار عظيم ، هذا إلى جانب ما يعانيه من عذاب داخلى وخوف روحى . وحتى أجسامهم لاتنجو من العذاب ، فإذا لم تثبت توبتهم سريعاً للكهنة ، ألقى القبض عليهم وعاقبهم المجلس على عدم ورعهم

والكهنة هم المكلفون بتعليم الأطفال. ويعتبرون الاهتمام بأخلاقهم وفضائلهم لا يقل أهمية عن الاهتمام بتقدمهم العلمى . ويعملون بكل جد منذ البداية على ملء أذهان الأطفال ، وما زالوا يتسمون بالرقة والمرونة ، بالأفكار الصالحة والنافعة أيضاً للحفاظ على الدولة . فإذا ما اتخذت هذه الأفكار لها جذوراً فى أذهان الأطفال ، بقيت معهم طوال حياتهم وعادت بالنفع العظيم فى المحافظة على حالة الدولة . فالدولة لاتنهار إلا نتيجة للرذائل التى تنبع من الأفكار الخاطئة .

ولايحرم جنس الإناث من الانخراط فى سلك الكهنة ، إلا أنه لايختار لذلك إلا الأرامل المتقدمات فى السن ، ولا يحدث إلا نادراً . والكهنة ، من الرجال ، يتخذون لهم زوجات من أفضل نساء البلد على الإطلاق . ولا تنال أية فئة أخرى فى يوتوبيا ما يناله الكهنة من تكريم . ويبلغ ذلك درجة تجعلهم ، حتى إذا ارتكبوا جريمة ، لا يحاكمون أمام محكمة ، بل يتركون لله وحده ولأنفسهم . إذ يرى اليوتوبيون أنه من الخطأ أن تلمس يد بشرية ذلك الذى ، مهما بلغ جرمه ، قد كرس لله كتقدمة

مقدسة بطريقة فريدة . ومما يجعل مراعاة هذه العادة أمراً يسيراً هو أن عدد الكهنة لديهم قليل جدًّا ، كما أنهم يختارون بعناية فائقة. وفضلا عن ذلك ، فليس من السهل أن يحدث أن يسقط فى الفساد والشر ذلك الذى انتخب لمثل هذا المنصب الرفيع ، لأنه أفضل الأخيار ، ولم يؤخذ فى الاعتبار عند اختياره سوى الفضيلة والخير . وحتى إذا حدث ذلك ، فالطبيعة الإنسانية تميل أبداً إلى التغير ، فلأن الكهنة ليسوا إلا عدداً قليلا ، ولا يتمتعون بنفوذ سوى شرف المنصب فليس هناك ما يدعو للخوف من أن يسببوا ضرراً كبيراً للدولة . أما السبب فى وجود عدد قليل وممتاز من الكهنة فهو بالفعل الحيلولة بين منصب الكهنوت ، الذى يبجلونه بشدة الآن ، وبين أن يفقد هيبته بمنحه لعدد كبير . وخاصة لأنهم يجدون صعوبة فى العثور على كثير من الرجال الذين تؤهلهم درجة فضيلتهم لهذا المنصب الرفيع الذى لايكفى لشاغله أن يتصف بفضائل عادية .

وهؤلاء الكهنة ليسوا أكثر احتراماً بين قومهم منهم بين الشعوب الأخرى . وهذا ما يمكن رؤيته بسهولة فى حقيقة بعينها ، أرى أنها أيضاً السبب فى هذا الاحترام . فعندما تخوض الجيوش المعارك ، يرى الكهنة منفصلين عن الجند ولكن على مقربة منهم ، جاثين على الأرض ، مرتدين مسوحهم المقدسة ، رافعين أيديهم إلى السماء ، مصلين أولا من أجل السلام ، ثم ليكون النصر فى جانبهم ؛ ولكن دون إراقة كثير من الدماء فى أى من الجانبين . فإذا ما كانت الغلبة لرجالهم ، جروا وسط المقاتلين ، وعملوا على كبح غضبهم ضد العدو المهزوم. أما بين الأعداء ، فيكفى أن يراهم الشخص ويطلب إليهم إنقاذ حياته ليتم له ذلك ، أما أن يلمس المرء ملابسهم الطويلة ففى ذلك الحفاظ على ما تبقى له من حاجيات من كل ضرر ناجم عن الحرب ، أى من كل سلب ونهب . وقد ساعد هذا السلوك على ما يتمتعون به من هيبة واحترام بين جميع

الشعوب فى كل مكان ، كما أضفى عليهم جلالا حقيقيًّا بحيث تمكنوا من إنقاذ مواطنيهم من الأعداء مراراً كثيرة لاتقل عن تلك التى أنقذوا فيها الأعداء من رجالهم . فمن المعروف جيداً أنه عندما يحدث أن تضعف روح رجالهم ، ويفقدون الأمل ، ويولون الأدبار ، والعدو يندفع نحوهم باغياً القتل والسلب ، فإذا ماتدخل الكهنة أوقفت المذابح . وبعد أن يحال بين الجيشين ، يبرم الصلح بشروط عادلة . فلم يكن هناك شعب مهما بلغت درجة وحشيته وقسوته وضراوته ، لم يعتبر أشخاص الكهنة أشخاصًا مقدسة لا تنتهك .

ويقدس اليوتوبيون اليومين الأول والأخير من كل شهر ، ومن كل سنة ويقسمون السنة إلى شهور ، يقيسونها تبعًا لمدار القمر ، كما يقيسون السنة تبعاً لمسار الشمس . ويسمون الأيام الأولى بلغتهم سينيمرنى والأخيرة ترابيميرنى (١) ، وهى كلمات معناها « العيد الأول » و « العيد الأخير » . ومعابدهم فخمة جداً ، لا تتسم بروعة الفن فحسب ، بل أيضًا بالاتساع لجماهير غفيرة وذلك أمر لابد منه لقلة عدد الكهنة عندهم . والمعابد جميعها مظلمة بعض الشيء . وليس ذلك نتيجة جهل بالعمارة بل تلبية لرغبة الكهنة المقصودة . لأنهم يرون أن النور القوى يشتت الفكر ، بينما يساعد الضوء الخافت الهادئ على تركيز الذهن ويهيئ الجو للعبادة . ولما لم يكن هناك دين واحد فى يوتوبيا ، كما بينا ، بالرغم من أن أشكاله ، رغم تعددها واختلافها ، فإنها تؤدى بالطرق المختلفة ، كما يقال ، إلى

---

(١) سينيمرنى (Cynemerni) : يعد أكثر التفسيرات إقناعاً تفسير لوبتون (Lupton) الذى يقول إن معنى الكلمة هو يوم الكلب وهو بالتحديد الليلة الفاصلة بين آخر يوم من الشهر وأول يوم من الشهر الذى يليه والذى كان يوضع فيه الطعام عند مفارق الطرق ، وكان نباح الكلاب يعد علامة على اقتراب هيكيت إلهة السحر . ترابيميرنى (Trapemerni) : اليوم الأخير من الشهر أو خاتمته .

هدف واحد ، وهو عبادة الطبيعة الإلهية ، لذلك لايرى ولا يسمع فى المعابد شىء لا يتفق ، كما يبدو ، مع الأديان جميعًا بوجه عام .

فإذا ما كان لطائفة ما طقوس خاصة ، أقام كل شخص هذه الطقوس داخل جدران منزله . ولذا لاترى فى المعابد صورة لإله من الآلهة ، حتى يكون الفرد حرًّا يتصور الإله بأقصى درجات التعبد بالصورة التى يريدها . وهم لايدعون الله بأى اسم خاص سوى اسم ميثْرا ، ويتفقون بهذه الكلمة على طبيعة واحدة للعظمة الإلهية . أما الصلوات الموضوعة فصلوات يمكن أن يتلوها أى شخص دون تعارض مع دينه الخاص .

ويجتمعون فى المعبد عشية العيد الأخير وهم صائمون . ويقدمون الشكر لله على ما وفقوا إليه من نجاح فى ذلك الشهر أو تلك السنة التى يشكل اليوم المقدس يومها الأخير . أما فى اليوم التالى ، الذى يشكل العيد الأول ، فيتوافدون جماعات على المعبد فى الصباح . ويصلون طالبين أن يحالفهم الحظ والتوفيق فى السنة التالية أو الشهر التالى ، الذى يعد اليوم المقدس بداية طيبة له .

وفى أيام العيد الأخير ، قبل الذهاب إلى المعبد ، تجثو الزوجات عند أقدام أزواجهن ، ويجثو الأبناء عند أقدام آبائهم ، معترفين بأخطائهم ، سواء أكانت ارتكاب المعاصى ، أو الإهمال فى أداء الواجب ، وطالبين الصفح عنها . وهكذا إذا كان صفاء الأسرة قد شابته سحابة خلاف ، انقشعت بهذه الطريقة ، بحيث يحضرون إلى العبادة بأذهان نقية صافية ، فمن الإثم أن يفعلوا ذلك بضمائر غير خالصة . فإذا ما كانت نفوسهم تحمل كرهًا أو يشوبها غضب نحو أى إنسان امتنعوا عن المشاركة فى تلك الطقوس حتى يتصالحوا ويطهروا قلوبهم ، خوفًا من أن يحل بهم سريعًا العقاب الرهيب .

وعندما يجيئون إلى المعبد ، يتجه الرجال على حدة إلى الجانب الأيمن ، وتتجه النساء إلى الجانب الأيسر . وينتظمون فى أماكنهم بحيث يجلس جميع الذكور فى كل أسرة أمام رب الأسرة ، وتجلس النساء أمام ربة الأسرة . وهكذا يحرصون على أن كل حركة تصدر عن أى شخص فى الخارج ، يلاحظها أولئك الذين بيدهم أمر تهذيبهم وتدريبهم فى الداخل . كما يحرصون أيضاً على أن يكون الأصغر سناً فى أى مكان فى صحبة الأكبر سناً . أما إذا اصطحب الصغار صغاراً مثلهم فقد يقضون فى العبث الصبيانى الوقت الذى يجب أن يقضوه فى خوف الله والتعبد له مما يشكل الدافع الأعظم والوحيد تقريباً لممارسة الفضائل .

ولا يقتل اليوتوبيون الحيوان لتقديم الضحايا . فهم لايعتقدون أن الذات الإلهية الرحيمة تسر بإراقة الدم والذبح ، وهى التى وهبت الحياة للكائنات الحية حتى تتمتع بالحياة . إنهم يحرقون البخور وغيره من المواد ذات الرائحة الزكية كما يوقدون أعداداً كبيرة من الشموع . وهم لايجهلون أن هذه الأشياء لاتضيف شيئاً للطبيعة الإلهية ، مثلها مثل الصلوات التى يقدمها بنو البشر ، ولكنهم يجدون سروراً فى هذا النوع من العبادة الذى لاضرر منه . إذ يشعر الناس أنه ، بهذه الروائح الزكية ، والأضواء ، وغيرها من الطقوس ، ترتفع قلوبهم إلى أعلى ، ويعبدون الله بنفوس أكثر حرارة .

ويرتدى الشعب الملابس البيضاء فى المعبد . أما الكهنة فيرتدون مسوحاً متعددة الألوان ، ذات تصميمات وأشكال رائعة ، ولكنها ليست مصنوعة من مواد غالية الثمن ، كما يتوقع المرء . فهى ليست مطرزة بالذهب أو مرصعة بالأحجار الكريمة ، بل مشغولة بريش الطيور المختلفة بحذق وفن لدرجة أنه لايوجد نسيج غالى الثمن يمكن أن يساوى قيمة العمل الذى تم بواسطته صنعها . وفضلا عن ذلك فى ريش هذه الطيور وفى النظام الذى شغلت به فى ملابس الكهنة ، تكمن أسرار خفية ، كما

يقولون . وعن طريق معرفة معناها ، الذى يحرص الكهنة على تلقينه لجيل بعد جيل ، يتذكرون نعم الله عليهم ، وبالتالى التقوى التى يدينون له بها ، وواجبهم كل نحو الآخر . وحالما يدلف الكاهن من الهيكل وهو يرتدى هذه الملابس ، يسجدون فى التو جميعاً إلى الأرض إجلالا . ويسود جميع أرجاء المكان سكون عميق بحيث يثير منظر الاجتماع الرهبة فى النفس، وكأن قوة إلهية موجودة حقاً فى المكان . وبعد أن يظلوا فترة قصيرة على الأرض ، يعطى الكاهن إشارة فينهضون . وعند ذلك يرتلون التسابيح لله ، بمصاحبة الآلات الموسيقية ، التى تختلف أشكالها كثيراً عن تلك التى نراها فى هذا الجزء من العالم . ويتفوق عدد كبير جداً من هذه الآلات فى عذوبتها على الآلات المستعملة عندنا ، ولكن بعضها لايقارن بآلاتنا . ولكن مما لا شك فيه أنهم تقدموا عنا كثيراً فى أمر بالذات ، هو أن جميع موسيقاهم سواء تلك التى تعزف على الآلات أو التى تنشدها الأصوات البشرية ، تنقل المشاعر الطبيعية وتعبر عنها ، وتطابق بين الصوت والشىء (سواء كانت الكلمات تعبر عن الضراعة أو الفرح ، أو الاسترضاء ، أو القلق ، أو الحزن ، أو الغضب) ، وهكذا تعبر عن المعنى عن طريق اللحن بحيث تؤثر بشكل رائع على أرواح السامعين ، وتنفذ إليها وتلهبها .

وفى النهاية يتلو الكاهن والشعب معاً صلوات مقدسة موضوعة صممت بحيث يستطيع كل فرد أن يطبق على نفسه شخصياً ما يتلوه الجميع معاً . وفى هذه الصلوات يعترف كل شخص بالله صانع الخليقة وحاكمها ، وصانع جميع الخيرات أيضاً ويشكره الجميع على ما يعطيه من بركات ، وخاصة على نعمته الإلهية التى عن طريقها وجد الشخص طريقه إلى هذه الدولة البالغة السعادة واختار ذلك الدين الذى يأمل أن يكون أصدق الأديان . فإذا ما كان على خطأ بشأن هذه الأمور ، أو كان هناك شىء أفضل أو أكثر قبولا لدى الله من تلك الدولة وذلك الدين ، فإنه يصلى إلى الله ،

أن يشاء من فضل جوده ، أن يرشده إلى معرفته لأنه على استعداد لاتباع أى طريق يقوده إليه . أما إذا كان شكل الدولة هذا هو الشكل الأفضل وكان دينه هو الدين الأصدق ، فإنه يصلى إليه أن يمنحه الثبات ويقود البشر جميعاً إلى نفس أسلوب الحياة ونفس الإيمان بالله ، ما لم يكن فى تعدد الأديان هذا شيء يرضى إرادته البعيدة عن الفهم . وأخيراً يصلى أن يأخذه الله إليه بميتة سهلة ، سواء كان ذلك فى وقت قريب أم بعيد ، فذلك مالا يجرؤ على تحديده . أما إذا كان ذلك يغضب عظمته ، فإنه يرحب بأن يموت ميتة صعبة ويذهب إلى الله عن أن يعيش طويلا بعيداً عنه حتى لو كان يحقق النجاح فى حياته على الأرض . وبعد أن تتلى هذه الصلاة يسجدون إلى الأرض مرة أخرى ، ثم ينهضون بعد قليل ويذهبون لتناول الغداء أما بقية اليوم فيقضونه فى الألعاب والتدريب على الأعمال العسكرية .

وبهذا أكون قد وصفت لكم ، بقدر ما أستطيع من الدقة بناء تلك الدولة ، التى أرى أنها ليست أفضل دولة فحسب ، بل أيضاً الدولة الوحيدة التى يمكن بحق أن يطلق عليها اسم الدولة المثلى . فمن المؤكد أن الناس يتحدثون كثيراً خارج يوتوبيا عن الصالح العام ، ولكنهم لايهتمون إلا بمصالحهم الخاصة . أما فى يوتوبيا ، حيث لا توجد ملكية خاصة ، فإنهم يهتمون بالفعل بالمصلحة العامة . ومن المؤكد أن لمثل هذا السلوك ما يبرره فى كل من الحالتين . ففى غير يوتوبيا من البلاد ، كم من الناس يجهلون أنه مهما بلغ ازدهار الدولة ، فسيموتون جوعا ، إن لم يوفروا لأنفسهم بعض الموارد الخاصة ؟ ولهذا فهم مجبرون بالضرورة على الاعتقاد بأن من واجبهم أن يهتموا بأنفسهم أكثر مما يهتمون بالشعب أى بالغير . أما فى يوتوبيا ، حيث الملكية عامة ، فما دامت مخازن الغلال مليئة فلن يظن أى فرد أنه سيفتقر إلى أى شيء يحتاجه لاستعماله الخاص . والسبب فى ذلك هو أن توزيع الغلال لا يتسم

بالتقتير . فلا يوجد فى يوتوبيا فقير أو متسول . وبالرغم من أن شخصًا لا يملك شيئًا ، إلا أن الكل أثرياء . فأى ثراء أعظم من أن يعيش المرء بنفس راضية مطمئنة ، خالية من الهموم ، غير قلق على قوته ، ولا تضايقه مطالب زوجة لاتكف عن الشكوى ، ولا يخشى فقر ابن ، ولا يحمل هما بشأن بائنة ابنة ، بل يشعر بالأمن فيما يتعلق بمعيشته وسعادته ، ومعيشة أفراد أسرته وسعادتهم : زوجته وأبنائه ، وأحفاده ، وأبناء أحفاده ، وأحفاد أحفاده ، والخط الطويل الممتد من الذرية التى يتوقعها القوم الطيبون ؟ ومن الجدير بالذكر أيضًا أن أولئك الذين يعجزون على العمل فى الوقت الراهن ، ولكنهم كانوا يعملون فى وقت من الأوقات ، لايقل حظهم من حاجيات الحياة عن أولئك الذين ما زالوا يعملون .

وهنا أتساءل إن كان هناك من يجرؤ على مقارنة هذا العدل بما تسميه عدلا تلك الشعوب ، التى لا أستطيع ، ولتحل بى اللعنة ، إن كنت أستطيع أن أكتشف بينها أقل أثر للعدل والإنصاف . فأى نوع من العدل ذلك الذى يحصل بمقتضاه أى نبيل — مهما كان أمره ، أوأى صائغ مصرفى ، أومقرض نقود ، أو أى شخص آخر من أولئك الذين إما أنهم لا يعملون مطلقًا ، وإما أنهم يعملون أعمالا من ذلك النوع غير الضرورى للدولة — على حياة ترف وأبهة عن طريق البطالة أو الأعمال غير الحيوية ؟ هذا بينما يؤدى العامل العادى ، وصاحب العربة ، والنجار ، والزارع عملا شاقًا مستمرًا لا تكاد تتحمله دواب الحمل ، وعملا ضروريًا بحيث أن الدولة لا يمكن أن تستمر ولا حتى سنة واحدة بدونه . ومع ذلك فلا يكسب هؤلاء إلا كفاف العيش ويحيون حياة بائسة جداً قد تبدو حياة دواب الحمل أفضل منها بكثير ، فهذه الأخيرة ليست مضطرة للعمل بدون توقف بهذا الشكل وطعامها ليس أسوأ بكثير من طعامهم (بل الواقع ، أنها تجده أحلى مذاقاً) ولا يؤرقها الخوف من

المستقبل. أما العمال، من الناحية الأخرى، فهم لا يشقون ويكدحون دون عائد أو ربح في الوقت الحاضر فقط، بل يتألمون نتيجة التفكير فيما سيعانونه من عوز في شيخوختهم، فأجرهم اليومي من الضآلة بحيث لا يكاد يكفي قوت يومهم، فما بالك بأن يتبقى منه زائد أو فائض يمكن أن يوفر يومياً لسد حاجة الشيخوخة .

والآن، ألا تفتقر مثل هذه الدولة إلى العدل والاعتراف بالفضل : تلك الدولة التي تغدق المكافآت الكبيرة على أولئك الذين يدعون النبلاء وأصحاب البنوك من الصياغ وغيرهم من هذا النوع من الناس، الذين إما أنهم متعطلون أو مجرد متطفلين، أو متعهدي ملذات باطلة . وعلى العكس من ذلك لا تقدم العون الكافي للزراع، وعمال المناجم والعمال العاديين، وأصحاب العربات، والتجار الذين لا يمكن أن تقوم للدولة قائمة بدونهم . فبعد أن تستغل ما يقدمونه من جهد في شبابهم، وبعد أن تشتد عليهم وطأة الشيخوخة والمرض، ويصبحون في مسيس الحاجة إلى العون، تنسى جميع الليالي التي قضوها ساهرين، وجميع تلك الخدمات الكبيرة التي قدموها لها بأيديهم وتكافؤهم بنكران متناه للجميل، وتتركهم يموتون وهم أكثر ما يكونون شقاء .

أما ما هو أسوأ من ذلك، فإن الأغنياء ينتزعون كل يوم من الفقراء جزءا من مخصصاتهم اليومية لا عن طريق ما يمارسه الأفراد منهم من خداع، بل عن طريق القانون العام . وحتى قبل أن يفعلوا ذلك يبدو أنه من الظلم أن يكافأ أكثر الأشخاص استحقاقاً أسوأ مكافأة . ولكنهم لم يكتفوا بذلك بل شوهوا الحق وحطوا من قدره وجعلوا الظلم يتخذ مظهر العدل بقوة القانون .

لهذا، عندما أفكر في هذه الأمور وأتأمل حالة جميع الدول المزدهرة في كل مكان في هذه الأيام، فإني، ولتدركني رحمة الله، لا أرى سوى نوع من المؤامرة التي يدبرها الأغنياء، الذين يسعون لتحقيق مصالحهم الخاصة باسم المصلحة

العامة . وهم يعدون ويخططون الطرق والوسائل التى يستطيعون بواسطتها أن يحتفظوا أولا بكل ما جمعوه عن طريق ما يمارسونه من أعمال شريرة ، دون أن يخشوا ضياعه ، وأن يتمكنوا ، ثانياً ، من شراء واستغلال جهد جميع الفقراء بأرخص ما يمكن . وما تلبث هذه الوسائل أن تصبح قوانين بمجرد أن يقرر الأغنياء مراعاتها باسم الشعب ، أى باسم الفقراء أيضاً . ولكن ما أبعد هؤلاء الأشرار الذين لا يشبع جشعهم ، بعد أن يقتسموا فيما بينهم ذلك الذى كان يمكن أن يكفى الشعب كله ، عن سعادة الدولة اليوتوبية . فنى يوتوبيا قد قضى تماماً على كل جشع للمال بالقضاء على استعمال النقود . فما أثقل الهموم التى قضى عليها بذلك . وما أكثر الجرائم التى اقتلعت من جذورها . من ذا الذى لا يعرف أن الغش ، والسرقة ، والسلب ، والخصام ، والفوضى ، والشغب ، والفتنة ، والقتل والخيانة ، والقتل بدس السم ، التى تعد عمليات الإعدام التى تنفذ يومياً نوعاً من الثأر من مرتكبيها أكثرمنها رادعاً لهم ، ستختنى تماماً باختفاء النقود ؟ من ذا الذى لا يعرف أن الخوف ، والقلق ، والهم ، والعمل الشاق ، والسهر ستنتهى كلها أيضاً فى نفس الوقت الذى ينتهى فيه استخدام النقود؟ وفضلا عن ذلك ، فإن الفقر ، الذى كانت النقود وحدها تجعله فقراً ، سيختنى ، إذا قضى على النقود تماماً فى كل مكان .

وحتى يبدو هذا الرأى أكثر وضوحاً ، لنتخيل سنة جدب وقحط ، قضت المجاعة فيها على عدة آلاف من الناس . أقول إنه من المؤكد أنه إذا كانت مخازن غلال الأغنياء ، قد فتشت فى نهاية هذا القحط ، لوجد بها من القمح كميات لو وزعت بين الناس الذين قتلهم الجوع والمرض لوجدت كافية لسد حاجة الجميع بحيث ما كان أحد ليشعر بقلة المحصول أو رداءة الطقس . فما أسهل أن يحصل الناس على ضروريات الحياة إن لم تكن تلك النقود اللعينة ــ ذلك الاختراع

الرائع الذى كان الغرض منه تسهيل الحصول على تلك الضروريات – هى بالفعل ذلك الحائل الوحيد الذى يحول دون حصولنا على ما نحتاج إليه .

ولا أشك فى أن الأغنياء أنفسهم يشعرون أن الأحوال ستتحسن كثيراً، إذا لم يفتقر المرء إلى الضروريات بدلامن أن تتوفر لديه الكماليات وإذا انتزع من كل هذه المتاعب بدلا من أن تحيط به وتحاصره الثروات الكبيرة . ولا يمكن أن أشك فى أن العالم كان لابد سيتبنى من زمن بعيد قوانين الدولة اليوتوبية نتيجة لاهتمام المرء بمصالحه الخاصة أو نتيجة لقدرة مخلصنا يسوع المسيح (الذى ما كان ليفوته بحكمته معرفة ما فيه خير الناس ، وما كان يفوته ، من كرمه ، أن ينصح بما يعرف أن فيه خيرهم) ما لم يكن هناك وحش واحد بمفرده ، هو أساس جميع الأوبئة ومصدرها ، يقف حائلا دون ذلك، ألا وهو الكبرياء . فالكبرياء تقيس الثراء لا بما يعود عليها من فائدة بل بما يعود على الغير من مضار . فلن تقبل الكبرياء أن يجعل الناس منها إلهة يعبدونها إن لم يبق هناك فقراء بؤساء تتسلط عليهم وتسخر منهم ، وإذا لم يبرز حظها السعيد بالقياس إلى شقائهم، وإذا لم يؤكد استعراض ثرائها فقرهم ويزيدهم ألما . فهذه الحية الجهنمية تلتف حول قلوب الناس وتعمل مثل السمكة الماصة ، على منعهم وحرمانهم من دخول حياة أفضل . لقد مدت الكبرياء جذورها فى أعماق الناس بحيث لم يعد من السهل نزعها . لهذا السبب يملؤنى الفرح ، لأن نظام الدولة هذا ، الذى أتمناه من كل قلبى لجميع الشعوب ، قد كان لحسن الحظ من نصيب اليوتوبيين على الأقل . فقد اتخذوا تلك الأنظمة التى أرست دعائم الدولة على أسس من السعادة الفائقة من ناحية والقدرة على البقاء إلى الأبد ، بقدر ما يستطيع المرء التنبؤ بالمستقبل ، من ناحية أخرى . فقد اقتلعوا من بلادهم جذور الطموح والفتنة الحزبية ، مع غيرهما من الرذائل . ومن هنا لم يعد هناك خطر من الخلافات



الداخلية ، التى كانت السبب الوحيد فى هدم الثراء المتين فى كثير من المدن . فطالما ساد الوئام البلاد وظلت نظمها صحيحة قوية ، فلن يفلح حسد جميع الحكام المجاورين ، فى هدم هذا الشعب أو هزه ، فقد حاولوا ذلك مراراً ، وردوا خاسرين .

وعندما أتم روفائيل قصته بدت لى أشياء كثيرة ، فى عادات هذا الشعب وقوانينه التى وصفها لنا ، وكأنها تقوم على أساس مضحك ، لا فى أساليب الحرب التى يستخدمونها ، وفى طقوسهم ودينهم وغيرها من النظم ، بل بالأكثر فى تلك الناحية التى تشكل الأساس الرئيسى للبناء كله — وأعنى بذلك اشتراكية الحياة والمعيشة عندهم ، وانعدام تبادل النقود . فهذا وحده يقضى تماماً على النبل ، والعظمة ، والفخامة ، والجلال ، وهى صفات تعد فى تقدير عامة الشعب الأمجاد والمفاخر الحقيقية للدولة .

ولكنى كنت أعلم أن روفائيل متعب من الكلام ولم أكن واثقاً تماماً من أنه سيتقبل أية معارضة لآرائه ، وخاصة عندما تذكرت أنه وجه اللوم لأولئك الذين يخشون ألا يبدوا على قدر كاف من الفهم ، إن لم يجدوا ما ينقدونه فى اكتشافات غيرهم من الناس . لذا امتدحت أسلوب حياة اليوتوبيين وحديثه عنهم ، وأمسكت بيده ، ودخلت به لتناول العشاء . ولكنى قلت إنه ستكون هناك فرصة أخرى للتفكير فى هذه الأمور بطريقة أكثر تعمقاً ؛ والحديث عنها معه بشكل أتم . ألا ليت هذا كان ممكناً فى يوم من الأيام .

وحتى ذلك الحين ، لا أستطيع الموافقة على كل ما قاله ، بالرغم من أنه ، فيما عدا ذلك من الأمور ، رجل لا يشق له غبار فى علمه ، وفى معرفته الكبيرة بالشئون الإنسانية . ولكنى أعترف بكل رضى أن هناك كثيراً من ملامح الدولة اليوتوبية أجد من

السهل أن أتمنى تحقيقها فى بلادنا أكثر من أن أجد لدى الأمل فى رؤيتها وقد تحققت .

نهاية الكتاب الثانى

وهكذا ينتهى حديث العصر لروفائيل هيثلوداى عن قوانين وعادات
جزيرة يوتوبيا ، غير المعروفة حتى الآن إلا لقليل من الناس
كما رواها الرجل المرموق والعلامة
السيد توماس مور
مواطن لندن ورئيس شرطتها

انتهت

إلى السيد المكرم هيروم بوسليدين رئيس مدينة آريين ومستشار الملك الكاثوليكى
– تشارلز – يتمنى لك بطرس جايلز ، مواطن أنتورب الصحة والسعادة

بعث إلى توماس مور درة عصرنا ، كما يمكن أن تشهد بذلك (أيها السيد المكرم بوسليدين) والذى تعرفه جيداً ، بعث إلى منذ بضعة أيام « بجزيرة يوتوبيا » ، التى لا يعرفها حتى الآن إلا عدد قليل جداً ، ولكنها جزيرة جديرة جداً بالاهتمام . وهى إذ تفوق « جمهورية » أفلاطون بكثير ، فلابد أن يرغب الناس جميعاً فى التعرف عليها . وخاصة أنها من عمل رجل فائق البلاغة ، ومقدمة بروعة ، ومرسومة بدهاء ، وواضحة للعين ، لدرجة أننى مهما عاودت قراءتها ، فإنى أظن أنى أرى فيها أكثر مما رأيت عندما استمعت إلى روفائيل هيثلوداى ذاته وهو يخبرنا عنها (لأننى كنت حاضراً واستمعت إلى حديثه مع توماس مور) . فبالرغم من أن هذا الرجل ، نتيجة لبلاغته الخالصة ، قد كشف الأمر بدرجة من الوضوح الذى يشعرك بأنه لاينقل أشياء سمع بها عن طريق الغير فقط ، بل أشياء رآها بعينيه بالفعل ، وتأملها جيداً ، بل وعرفها وقتاً ليس بقصير . وهو رجل ، فى رأيى ، يفوق بكثير ، فيما يختص بمعرفة البلاد ، والشعوب ، وتجارب الحياة ، حتى الرحالة البالغ الشهرة يوليسيس ، فهو بالحقيقة رجل لم تجسد الطبيعة بمثله على هذا العالم طوال الثمانمائة سنة الماضية ، إذ لا يعتبر فسبوتشى ، إذا قورن به ، وكأنه رأى شيئاً . وفضلا عن ذلك ، فبينما اعتدنا أن نرى المرء يصور بقدر أكبر من الدقة والتأثير تلك الأشياء التى رآها عن تلك التى سمعها فقط ، فإن هذا الرجل يتمتع بقدرة فائقة ومهارة فريدة لوصف أى أمر مهما كان .

ولذا فمهما بلغ عدد المرات التى أرى فيها تلك الأشياء التى صورها قلم توماس مور وأتأملها ، فإنى أنفعل بها وأستمتع وألتهب حماساً ونشوة حتى يخيل إلى أحيانا أنى أعيش بالفعل فى جزيرة يوتوبيا . وأؤكد لك ، أنى لا أكاد أصدق أن روفائيل ذاته ، قد رأى طوال فترة السنوات الخمس التى أقامها فى يوتوبيا ، بقدر

ما يرى المرء هنا فى وصف توماس مور . ويحوى هذا الوصف من الغرائب الكثيرة والأشياء العجيبة ما يجعلنى أشك كثيراً فيما كنت أعجب فى المكان الأول بروعة تلك الذاكرة القوية التى تستطيع أن تسترجع بالحرف الواحد تقريبا ، جميع تلك الأشياء التى سمعت مرة واحدة ، أم بحصافة ذلك الشخص الذى لاحظ بدقة وفطنة وتذكر جميع الأسباب الأصلية (التى يجهلها غالبًا السوقة) لتلك الفوضى القاتلة والفساد المشرى للدولة وأيضًا لتقدمها وازدهارها ، أم بفاعلية كلماته وقدرتها على التأثير ، تلك الكلمات التى جمعت فى هذا الأسلوب اللاتينى الرائع ، و بمثل قوة البيان هذه ، جميع هذه الأمور الكثيرة المتباينة ، خاصة وقد صدرت عن رجل يثقله دائمًا الكثير من المشاغل والمشاكل ، سواء منها العام أو الخاص . ومهما يكن الأمر ، فلن تعجب إلا قليلا (أيها السيد المكرم بوسليدين) لجميع هذه الأشياء ، لأنك تعرف جيداً وعن قرب فطنة هذا الرجل الممتازة ، بل الإلهية .

أما الآن إذا انتقلت إلى أمور أخرى ، فلا أدرى حقًا ما يمكن إضافته إلى كتاباته سوى قصيدة من أربع فقرات مكتوبة باللغة اليوتوبية ، أطلعنى عليها هيثلوداى صدفة بعد سفر توماس مور ، وقد أضفتها ، إلى الأبجدية اليوتوبية ، كما زينت هامش الكتاب ببعض الملاحظات . أما بخصوص موقع الجزيرة ، أو فى أى جزء من العالم تقع يوتوبيا فإن الجهل به يزعج مور ويحزنه بقدر غير قليل ، والحقيقة أن روفائيل لم يمتنع عن الحديث عن ذلك الأمر . وإن كان قد أشار إليه فى كلمات قليلة جداً ، مارًّا به مرًّا سريعاً ، فى معرض الحديث ، وكأنه يرمى إلى الاحتفاظ به حتى وقت آخر . أما ما ذكره فلا أعرف كيف فات كلينا ، إنما حدث ذلك نتيجة لصدفة سيئة غير مواتية . فعندما كان روفائيل يتحدث فى ذلك ، جاء أحد خدم مور وهمس بشىء فى أذنه . ولما كنت لذلك ، أكثر اهتماما بسماع ما يقال ، إذا بأحد أفراد الجماعة يسعل بصوت عال ، نتيجة لبرد ألم به ، على ظهر السفينة ، كما أظن ،

فيعوقني عن سماع بعض الكلمات . ولكن لن يهدأ لي بال حتى أتوصل إلى معرفة ذلك تماماً و بدقة وذلك حتى أتمكن من إخباركم لا بخط الطول أو خط الزوال فحسب ، بل أيضاً بخط العرض ، أى ارتفاع القطب فى ذلك الإقليم ، وذلك إن كان صديقنا هيثلوداى بخير ، وعلى قيد الحياة . لأننا نسمع أخباراً متضاربة عنه . يقول البعض إنه توفى أثناء رحلة العودة إلى بلده . ويؤكد البعض الآخر أنه عاد سالماً . ولكن لأنه من ناحية لم يستطع أن يغير أساليب أهل بلاده فى الحياة ، ومن ناحية أخرى لأن قلبه وعقله كانا متعلقين تماماً بيوتوبيا ، لذا يقال إنه شد الرحال مرة أخرى إلى هناك . أما فيما يتعلق بعدم وجود اسم هذه الجزيرة فى أى من خرائط القدماء ، فقد قضى هيثلوداى ذاته على ما يحيط بهذا الموضوع من شك بقوله إنه من المحتمل جداً ، أن الاسم الذى كانت تحمله الجزيرة فى الزمن القديم تغير فيما بعد ، أو أنها لم تكن معروفة قط لهم ، كما توجد الآن فى زمننا بلاد كثيرة لم تكن معروفة للجغرافيين القدماء . ومهما يكن الأمر ، فهل من ضرورة تقضى بتدعيم الأمر بالحجج علماً بأنه ما دام توماس مور هو المؤلف ففى ذلك الكفاية ؟ ولكن لما كان هو يشك فيما إذا كان الكتاب يجب أن يطبع ، فإنى أجد فى هذا ما يستحق الثناء والاعتراف بتواضع الرجل . إذ يبدو لى أنه عمل جدير بألا يبقى طويلا فى طى الكتمان وأنه جدير جداً بأن يصل إلى أيدى الناس ، نعم ، وأن ينشر للعالم حاملا اسمك ، إما لأن مواهب توماس مور وقدراته لا يعرفها شخص خيراً مما تعرفها أنت ، وإما لأنه ما من رجل أفضل منك أو أكثر صلاحية ليعمل بمشورته الصالحة على قيام وتقدم الدولة ، حيث بقيت وعملت سنوات عديدة بالفعل محققاً المجد والثناء العظيم ، عاملا بالحكمة والعلم معاً ، وأيضاً بالنزاهة والاستقامة .

وهكذا ، يانصير العلم الحر ، وزهرة هذا الزمان ، أتمنى لك من كل قلبى كل خير .

كتب فى أنتورب فى ١٥١٦ ، فى اليوم الأول من نوفمبر .

قصيدة من أربعة أبيات باللغة اليوتوبية

يوتوبوس اسم ملكى وفاتحى

أمير ذائع الصيت خالد الذكر ،

صنع جزيرة لم تكن جزيرة من قبل

ملأى بثراء الدنيا والسرور والراحة .

أنا التى من دون الجميع لم تكن لى فلسفة

صنعت للإنسان مدينة فلسفية .

وكما أنى لا أضن على غيرى بشىء مما لى

فإنى على استعداد للتعلم من الغير بكل قلبى

نظم قصير من يوتوبيا

بقلم أنيموليوس ، أمير الشعراء وابن أخت هيثلوداى

سمانى القدماء يوتوبيا

قلما يزورنى الغرباء أو أغريهم بالمجىء إلىّ

أنا الآن شبيهة بمدينة أفلاطون

التى جابت شهرتها الآفاق

نعم أشبهها ، أو بالأحرى

أفوقها وأبزها .

فما صاغه قلم أفلاطون بإيجاز
في كلمات عارية ، كصورة في مرآة
قد حققته أنا تحقيقاً كاملا
بما يليق من القوانين والرجال والكنوز .
ومن هنا فلست يوتوبيا : أرض الأحلام
بل بالأكثر اسمى هو أوتوبيا : أرض السعادة .

بقلم جيرار نوفيوماج

شاعر من يوتوبيا

أتبغي المتعة ؟ إذن لتأخذ مكانك هنا وتستريح
فستجد هنا أمتع المسرات .
أتريد الفائدة ؟ إذن فلتنزل هنا ، فهذه الجزيرة خير مكان لك
فهنا ستجد أعظم الفائدة .
أتغريك المتعة والفائدة وتريد اقتناص كليهما ؟
ستجدهما في الجزيرة بوفرة وسخاء .
فلكي تشبع رغبتك الجشعة ، ستجد هنا كنزاً لا مثيل له
وستزين كلا من العقل واللسان بثراء
فآبار الرذائل ونافورات الفضائل المخبأة
ستجدها هنا تحت ناظريك .
لتكن شكوراً إذن ، وقدم الشكر حيث يجب الشكر
إلى توماس مور فخر لندن ونجمها الخالد .

من كورنيليوس جرافى إلى القارئ

أتود أن تعرف عجائب البلاد المكتشفة حديثًا وغرائبها ؟
أتريد أن تتعلم كيف تعيش حياتك بأساليب صالحة مختلفة ؟
أترغب فى فهم أسس الفضيلة والرذيلة ؟
أتريد أن ترى مدى امتلاء هذا العالم بالغرور ؟
إذن فلتقرأ ، ولتع وتذكر بقدر ما تستطيع
جميع ما فى هذا العمل من أمور تناولها
ووضحها للعالم بفطنة إلهية وعلم غزير
ذلك الكاتب القدير سير توماس مور
الذى تفخر به لندن ، وبحكمته وعلمه القويم .

المراجع

BIBLIOGRAPHY

1. Thomas More :

Adams, Robert D., *The Better Part of Valour,* Seattle, 1949.

Ames, Russel, *Citizen Thomas More and his Utopia,* Princeton, 1949.

Bridgett, Fr., *Life of Blessed Thomas More,* London, 1891.

Campbell, W.E., *More's "Utopia" and his Social Teaching,* London, 1930.

Chambers, R.W., *Thomas More,* London, 1935.

Donner, H.W., *Introduction to Utopia,* Upssala, 1945.

Gibson, R.W. and J. Max Patrick, *St. Thomas More : A Preliminary Bibliography,* New Haven, 1961.

Harpsfield, Nicholas, *The Life and Death of Sir Thomas More,* ed., E.V. Hitchcock, London, 1932.

Hexter, J. H., *More's Utopia : The Biography of an Idea,* Princeton, 1952.

Kautsky, Karl, *Thomas More and his Utopia,* Stuttgart, 1890; tr. H.J. Stenning, London, 1927.

Johnson, Robbin S., *More's "Utopia" :Ideal and Illusion,* New Haven, 1969.

Marc'hadour, Germain, *L'Univers de Thomas More.* Paris, 1963.

Nelson, W.,ed. *Twentieth Century Interpretations of Utopia,* London, 1968.

Reynolds, E.E., *St. Thomas More,* London, 1954.

Rogers, E.F., ed., *The Correspondence of Sir Thomas More,* Princeton, 1947.
St. Thomas More : Selected Letters, New Haven, 1961.

Roper, William, *The Lyfe of Sir Thomas More,* ed., E.V. Hitchcock, London, 1935.

Stapleton, Thomas, *Vita Thomae Mori*, Douai, 1588; tr. C. More, Paris, 1631;
The Life and Illustrious Martyrdom of Sir Thomas More, tr. P.E. Hallett, London, 1928.

Surtz, Edward, *The Praise of Pleasure*, Cambridge, Mass., 1957.
The Praise of Wisdom, Chicago, 1957.

Sylvester, R.S. and D.P. Harding eds., *Two Early Tudor Lives... Wolsey, by George Cavendish.. More, by William Roper*, New Haven, 1962.

2. Utopian Literature :

Berneri, Marie Louise, *Journey Through Utopia*, London, 1956.

Bloomfield, Paul, *Imaginary Worlds*, London, 1932.

Hertzler, J.O., *The History of Utopian Thought*, London, 1922.

Mannheim, Karl, *Ideology and Utopia*, London, 1936.

Morgan, A.E., *Nowhere was Somewhere*, Chapel Hill, 1946.

Morley, Henry, *Ideal Commonwealths*, London, 1886,

Morton, A.L., *The English Utopia*, Londo n, 1952.

Ross, Harry, *Utopias Old and New*, London, 1938.

Russell, F.T., *Touring Utopia*, New York, 1932.

Samaan, Angele B., "Utopias and Utopian Novels, 1516-1949 : A Preliminary Bibliography", *Moreana*, Angers, Nov. 1971.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٨٧/٣٨٩٣

ISBN ٩٧٧ - ٠١ - ١٣٧٨ - ٦

الفهرس

صفحة

تمهيد ٧

مقدمة ١٣

« يوتوبيا » ٧٩

الكتاب الأول ٨٧

الكتاب الثانى ١٣٩

المراجع ٢٤٠

هذا الكتاب

يعد أكثر أعمال « توماس مور » شهرة وذيوعا كما يكاد يكون الأول من سلسلة الأعمال الأدبية الفكرية التى تقدم صورة متكاملة لعالم مثالى ، تختفى منه شرور عالم الواقع ، وتتحقق فيه أحلام الإنسانية بالسعادة والكفاية والعدل ، وذلك فى قالب روائى جذاب . أما فكرة العالم المثالى أو الفردوس الأرضى أو اليوتوبيا كما صارت تسمى منذ صاغ « توماس مور » هذه الكلمة ، ففكرة راودت خيال الإنسان من قديم الزمان وتناولها الفلاسفة والمفكرون وقدموا لها صورا مختلفة اتخذت الطابع الدينى أحيانا والطابع الفلسفى أحياناً أخرى ، وصيغت فى قالب الحوار تارة وفى قالب القصة الخيالية تارة أخرى .

٢٥٠ قرشا

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب